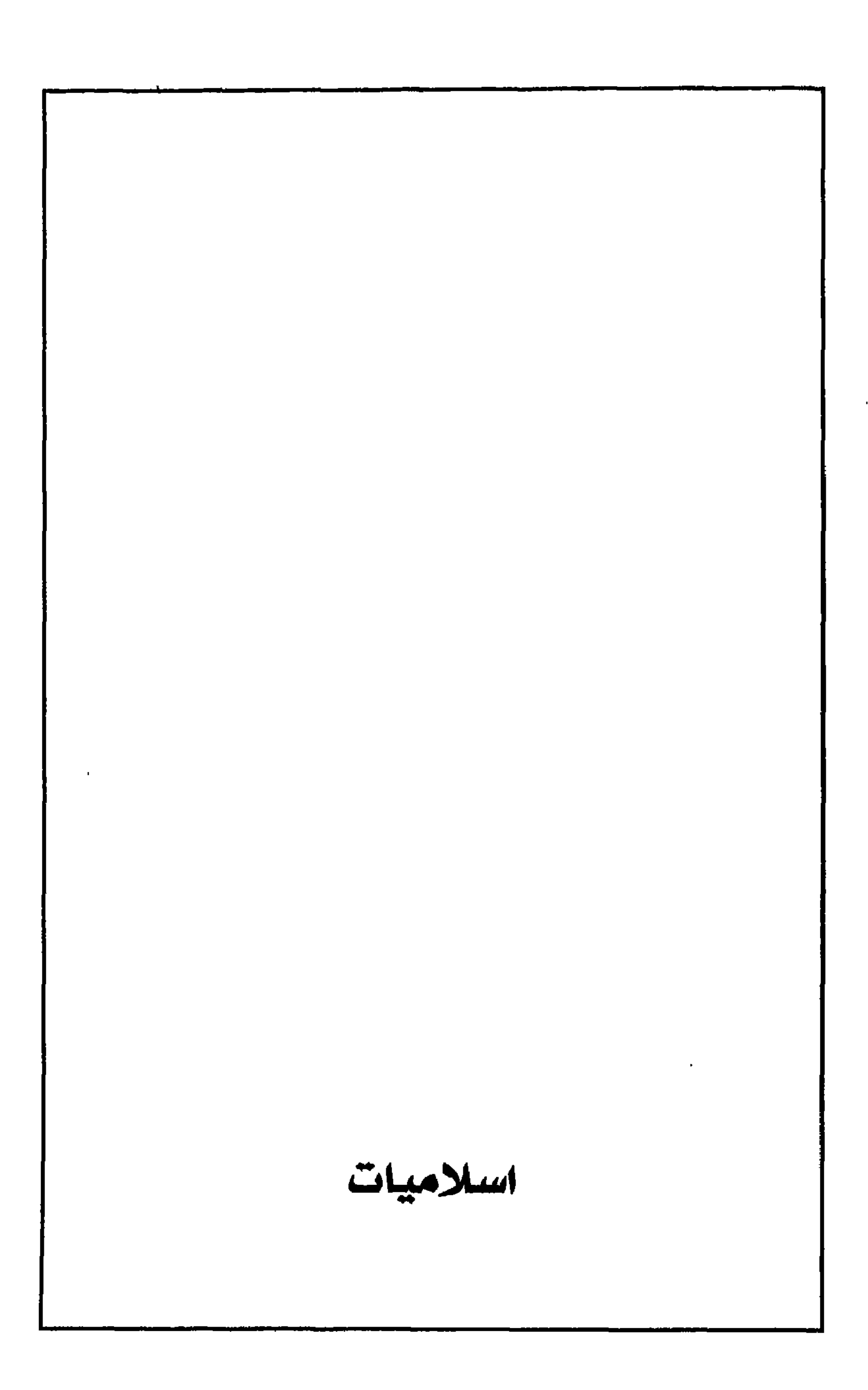


اسلاميات

اسلاميات

تأليف: سامح كريم



مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الدينية)

اسلاميات

تاليف: سامح كريم

الغلاف

الإشراف الفنى:
للفنان محمود الهندى

المشرف العام

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التنويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د. سمير سرحان

تقـــديم

بقلم الإمام الأكبر الدكتور محمد محمد الفحام
شيخ الجامع الأزهر سابقاً

بسم الله الرحمن الرحيم

الإسـلام نعمة الله الكبرى على العباد ، بـه يستقيم الفكـر ، ويرشد القلب ، ويمضي السلوك الى صراط الله المستقيم .

ونظرة واحدة توازن بين حالي البشر قبل الإسلام وبعده تعطي هذه النتيجة بما لا يحصى من الادلة والبراهين والفاهمون المنصفون وحدهم هم الذين يعقلون بحق قول الله تعالى : «اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام دينا» .

وان دعاة الاسلام بالقلم واللسان لهم احسن الناس قولا ، واسلم الناس رأيا «ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين» .

وكل نعمة في المجتمع الاسلامي مردها الى سببها الحقيقي وهو التزام الاسلام ، وكل انحراف في المجتمع الاسلامي مرده الى سببه الحقيقـي وهو تسلط الاهواء والله تعالى يقول : «ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك» .

الاسلام اذن هو الدين الحق . وللحق في كل مجتمع رجاله ، ودعاته واعلامه ، لا يتوقف ذلك على غير القلب السليم والفكر الناضج، والظروف المواتية ، فاذا تجمع لإنسان كل هذا كانت الدراسات المتخصصة عونا له وسندا ومددا .

والكتّاب الخمسة الذين اختارهم ابننا العزيز الاستاذ سامح كريم لتصوير خصائص اقلامهم ، والاشادة بثمار قرائحهم في عرض الاسلام وخدمة قضاياه . عن طريق تناول الموضوعات ، وتراجم الشخصيات . هؤلاء الخمسة نعرف لهم منازلهم ، ونعترف لهم بجمال ما قدموا ، وجميل ما صنعوا . فمن منا لا يعرف الدكتور طه حسين ، والاستاذ عباس محمود العقاد ، والدكتور محمد حسين هيكل والدكتور أحمد أمين ، والاستاذ توفيق الحكيم ؟

ان الذي لا يعرفهم هو المنعزل عن فكر امته ، وتراث سلفه ، ولا يعنيه أن يتلفت الى ثمار القرائح الفاهمة للاسلام المجاهدة في بيان جلاله وجماله ..

ولقد قرأت هذا الكتاب فسرني ما لمسته من قدرة المؤلف على تحديد ملامح كل كاتب واعطاء خصائصه ، والاستشهاد لذلك بكثير من كتاباته ، فكان يعطي بذلك الى جانب صورة الكتاب صورة مؤلفهوخصائص اسلوبه.

ان الجديد الذي اضافته كتابات الدكتور طه حسين والدكتور محمد حسين هيكل والاستاذ عباس محمود العقاد والدكتور احمد امين والاستاذ توفيق الحكيم هو انها اخرجت السيرة المحمدية فيثوب جديد وتحدثت عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثا لا يسع العقل المنصف الا أن يقر به ويجله ويحترمه ، وردت بهذا الاسلوب العلمي القوي على كتابات المغرضين من المتعصبين ضد الاسلام الذين يقدحون في حقائقه بسوء نية وينكرون وجود الشمس لانهم عمي لا يبصرون .

هذا . ولقد أعجبني من ابننا الاستاذ سامح كريم قراءاته الواسعة ووقوفه عند الخصائص التي تميز بها انتاج المؤلفين العباقرة ، وإلحاحه المشكور على قراء العربية ان يعطوا الكتب وقتا اطول وعناية أكبر ، ونظرا وفكرا ، وأن كتابه هذا يثير الرغبة الجارفة في قراءة الكتب التي يقدم خصائصها ويتحدث عن مناهجها . ثم أعجبني منه قوله في نهاية هذا الكتاب :

«وهذا الجهد المتواضع الذي أسعفه توفيق من الله وعونه ليس سوى اشارة الى هذه الاسلاميات الحافلة .. بالنظريات والمناقشات

والتساؤلات والآراء والافكار» .

غير ان لي بعد ذلك وقفة مع الاستاذ سامح حول قوله عن الكتاب الخمسة انهم يقتحمون ميدان الكتابات الاسلامية ، وهو ميدان ما كان لامثالهم من غير المتخصصين في الكتابات الدينية .

وخلال هذه الوقفة نرى في موضوعها أمرين :

(أ) أن كل فاهم للاسلام ، دارس له مستوعب لقضاياه انما هو من المتخصصين في الكتابات الدينية وليس بلازم أن يتخرج في معهد بعينه، المهم أن يكون دارسا بعمق ووعي وورع وفهم أصيل .

(ب) الدكتور طه حسين أزهري النشأة ، وكذلك الدكتور أحمد أمين ، وأما الدكتور هيكل والاستاذ العقاد والاستاذ توفيق الحكيم فقد تخرجوا على كتب الازهر وان لم يتخرجوا فيه .

ولو ان الكتاب حفل بالعناوين الجزئية والجانبية لكان ذلك أعون على التحديد والتحصيل .. ولو أن الكتاب عنى بالرد على شبهات المبشرين كما عنى بتسجيلها لكان أوفق وأجمل .. وخصوصا انه علل نشاط انتاج التاريخ الاسلامي في الفترة التي ظهرت فيها هذه الكتابات بنشاط معاد للاسلام فكانت تآليف هؤلاء الخمسة الكرام رد فعل مشكورا لهذا الهجوم المغرض الظالم ضد الاسلام ..

ومما هو جدير بالتسجيل ان الاسلام يزداد صلابة وصمودا كلما تفنن خصومه في الكيد له ، ومن آيات صموده في الثلاثينات هذه الاسلاميات التي يحصرها لنا المؤلف .. وكل ما يحتاجه الاسلام .

(أ) أن يجد العقل الفاهم .

(ب) والقلم المعبر .

(ج) والمجتمع المطبق لتعاليمه .

(د) والحرية التي لا تضاد أنواره .

ودين الله مع ذلك جديرة أنواره أن تبدد الظلام مهما كان معتكرا كثيفا.

لاحظت كذلك القسوة ــ من المؤلف ــ على من سماهم المعارضين اذ وصمهم بالتعصب والجمود .

كما لاحظت التأثر بعبارات علماء النفس مثل «عبادة البطل» و«عبادة الخير والحق والجمال» وكلمة عبادة لا تجوز لغير الله وكان الاولى أن يقال بدل عبادة.. تقدير البطل والاعجاب به، والايمان بالخير والحق والجمال..

وأخيرا نقرر في اعتزاز ان كل بطل من أبطال هذه الكتابات الاسلامية صنعه الاسلام دون ان يكون هذا البطل قبل الاسلام شيئا مذكورا الا في

عداد اعداء الدين .. والدين الذي صنع هؤلاء لا زال بيننا بكتابه الكريم، وسنّة رسوله الامين . فمن اراد ان يبلغ ما بلغوا فليمــــض على نفس الطريق . فان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم .

واخيرا اشكر ابننا العزيز الاستاذ سامح كريم واعرف له نشاطـــه واستيعابه واقدر له حسن اتجاهه الى الكتابة الاسلامية والاشادة بالاقلام التي تركت في مجالها اثرا محمودا واسأل الله تعالى ان ينفع به طـــول حياته ، وأن يجزل له الثواب لقاء ما قدم لدينه ووطنه .

د. محمد محمد الفحام

كلمة..

في لقاء مع الدكتور طه حسين وجهت اليه السؤال الذى يعيش فى وجدان وعقل كل من قرأ عمله العظيم «الفتنة الكبرى» وهو: هل سيتيح للقارئ العربى أن يقرأ «الفتنة الكبرى» فى جزئها الثالث ذلك الذى وعد به؟

أجاب سيادته بأنه يرجو ذلك ويتمناه.

وتطرق الحديث فشمل الاسلاميات وكتابها. وهنا طرح الدكتور طه حسين سؤالا أراه جديرا بالاهتمام والبحث وهو: ما الذى فعله الجيل التالى لكتاب الاسلاميات حيال هذه الكتابات؟ هل قام أحدهم بعملية الرصد الواجبة لما جاء فيها من أساليب وأفكار؟ وأين مكانها من فكرنا العربى ـ الحديث بوجه عام؟

ثم يتساءل عميد أدبنا العربى قائلا: هل كتبت لتبقى هكذا فوق أرفف المكتبة.. حتى يأتيها مستشرق يخصص الكثير من عنايته لدراستها.. والله وحده هو الذى يعلم كنه هذه الدراسة؟

والحق أننى لم أجد ما أرد به على عميد أدبنا العربى غير القول بأن بعض الأقلام العربية لم تزل تناقش هذه الاسلاميات بين حين وآخر.

وهنا يرد سيادته بأن ما يفعلونه لا يتعدى عرض واحد من الكتب أو نقده أو دراسته. ولكن ما يعنيه هو أن تكون هناك دراسة شاملة لهذه الاسلاميات.

ويمضى على حديث عميد أدبنا العربى ـ الذى نشرت مجلة الاذاعة جزءا منه ـ ثلاث سنوات تابعت خلالها المكتبة العربية علنى أظفر بإجابة لسؤال الدكتور العميد يكون فى صورة كتاب عن الاسلاميات ولكن دون جدوى.

والآن وقد كان لى شرف المبادرة، برغم تواضع ما أقدمه من عمل الى جانب هذه الأعمال الشامخة تلك التى قدمها أصحابها لا أزعم لنفسى بأننى قد أوفيت بالغرض المنشود، أو الهدف الذى كان يرمى اليه عميد أدبنا العربى. ولعل عذرى فى ذلك أن دراسة الكتاب الواحد من الإسلاميات تكفى أو تزيد على صفحات مثل هذا الكتاب الذى نقدمه اليوم. ولا عجب ففى بعض كتبها من الخصب والنماء ما غطت به حاجة رسالة جامعية كما حدث فى كتاب (حياة محمد) للدكتور محمد حسين هيكل حين اتخذ منه واحد من المستشرقين مادة لرسالة الدكتور فى التاريخ الاسلامى الحديث للسيرة النبوية الشريفة.

اقول ان كنت لم أصل بعد الى ما ينبغى أن تكون عليه دراسة مثل هذه الكتابات العظيمة فيكفينى أننى قدمت خطوة على الطريق لا أشك فى أن هناك خطوات تعقبها قد تكون أشمل وأفضل.

وبعد هذه الإشارة السريعة، ان كان هناك مجال لتقديم هذه الصفحات، يمكن القول فى كلمات بأننى سأصحب القارئ التى تروق له قراءة الاسلام مبسطاً مقنعا شامخا فى رحلة داخل فكر كل واحد من هؤلاء الأربعة الذين يمثلون علامات مميزة لفكرنا العربى الحديث وهم: «الدكتور طه حسين» و«الاستاذ عباس محمود العقاد» و«الدكتور محمد حسين هيكل» و«الدكتور أحمد أمين».

وفى هذه الرحلة نتوقف معا لننظر من بعيد نظرة شاملة إلى تلك الدوافع والأسباب التى جعلت هؤلاء الأربعة يقتحمون ميدان الكتابة الإسلامية.. وهو ميدان ما كان لأمثالهم من غير المتخصصين فى الكتابات الدينية أن يقتحموه، وعند هذا الحد نكون قد قطعنا معا الفصل الأول من الكتاب. ونسرع الخطى فنحن على موعد مع أول من دعا إلى كتابة الاسلاميات وهو الدكتور طه حسين وعنده تبهرنا دعواه المبكرة فى اتباع المنهج العلمى الحديث فى تقييم هذا التاريخ الاسلامى، كما تبهرنا كلماته وأسلوبه المنفرد حين يحدثنا عن الحياة الأدبية فى الاسلام.

ويسلمنا هذا الفصل إلى الفصل الثالث.. إلى اسلاميات الدكتور أحمد أمين: وعندها نقف مشدوهين أمام هذا العمل العظيم من الفكر. حيث ينظر العقل فى العقلية الاسلامية.. وعلى الرغم من أن نظرة العقل فى العقل تعتبر فلسفة الا أن أسلوب الدكتور أحمد أمين كان مترفقا وفكرته واضحة مما أتاح للعقل أن ينظر إلى العقل فى غير تفلسف.

بعد هذا نجد أنفسنا وجها لوجه أمام الدكتور محمد حسين هيكل وأسلوبه المميز الذى يعتبر خير سفير للاسلام حين تخطت كتبه الاسلامية الحدود لتدرس فى جامعات الأجانب. ويمضى بنا الوقت سريعا فى الاستمتاع بقراءة أسلوب الدكتور هيكل الذى يختلف ولا شك عن أسلوب كل من زميليه السابقين. وهو ما يشغل الفصل الرابع.

من بعده يفتح الطريق الى الفصل الخامس.. حيث هذه الموسوعة الاسلامية الضخمة لعملاق فكرنا العربى عباس محمود العقاد. وفيها تدور أعيننا على صفحات ما يقرب من الثلاثين كتابا، متنقلين بين ثلاثة أساليب للتناول. فكتبه التى تحدثنا عن العبقريات ليست مثل التى تحدثنا عن الشخصيات والاثنتين تختلفان ولا شك عن الدراسات والأبحاث. ونودع العقاد قائلين فى إعجاب: كم كنت عظيماً عندما دافعت عن الإسلام ونبى الاسلام صلى الله عليه وسلم.

وهنا نتوقف لنسأل انفسنا سؤالا وهل أضاف الأربعة بما كتبوا عن الإسلام ـ نبيه ورجاله ونظامه وعقيدته ـ جديدا الى التفكير الاسلامى نفسه أم أن كتاباتهم كانت تحصيل حاصل، وصورة طبق الاصل لكتابات قديمة؟

والسؤال وإجابته تستوعبهما السطور الأخيرة لهذا البحث.. والله أسأل أن يوفقنا إلى ما فيه الخير.

«سامح كريم»

الوقت ـ وإلا فما معنى تشديدها في طلب الموضوعات الاخرى المعدة للنشر ، والاكثر من ذلك الامر بوقف هذه السلسلة فورا . واذكر أن رئيس التحرير طلب من وكيل وزارة الاعلان لشؤون الرقابة ، الرفق بهذا المجهود الذي قامت به المجلة في شخص محررها . وطلب اللقاء بيني وبينه للتفاهم .. وتم هذا اللقاء ولم يحدث فيه الا تأكيدا لوقف المقالات ، وقد صحبت معي إحداها وكانت حول كتاب كتاب الدكتور منصور فهمي، عن مكانة المرأة في الاسلام وهي رسالة الدكتوراه التي كان قد ناقشها بفرنسا في بدايات هذا القرن فقراها وبعد ان فرغ منها علّق قائلا : «ان وقف نشرها كان لا يكفي !؟» .

في ظل هذا المناخ صدر لي كتاب «إسلاميات طه حسين والعقاد واحمد امين وهيكل» وتوقعت الدار التي اصدرته وهي نفسها الدار التي كنت اكتب منها الدراسات موضع الخلاف بان الكتاب لن ينجح ، واعدت موضعا فسيحا في مخازنها ، يليق بعودة هذه الأعداد الهائلة التي لن يمسها بشر .

الا ان الامر جاء على غير ما كنا نتوقع .. لقد حدث أن سجل توزيع هذا الكتاب رقما مدهشا ، فقد نفد في عامه الاول ، والاكثر من ذلك او على الاقل الاهم بالنسبة لي ، جآءتني مجموعة من أولئك الذين قد كتبوا للمجلة يهددونها بالمقاطعة لانها تسمح لي بالكتابة . جاءت هذه المرة مشكورة ايضا لتقول كلمات هي بحق أجمل أوسمة نلتها في حياتي ، وتحول اللقاء معهم الى ما يشبه الندوة الصغيرة .. والحق اشهد انني استفدت الكثير من مجرد حديثي معهم ، وفي مقدمة ما استفدته هو ذلك التعديل الذي أرجو ان ينال رضا القارىء واقتناعه .. والذي تتضمنه هذه الطبعة .

لقد قالوا لي لماذا تجاهلت في مدخلك للاسلاميات دور الجمعيات الاسلامية ، في ثلاثينات هذا القرن حين تصدت لهذه الهجمة الضارية من المبشرين والمستشرقين ، ووجدت ما يؤكد ذلك ، حين رجعت الى بعض المصادر وفي مقدمتها كتاب «تطور مصر» للعالم الفرنسي مارسيل كولومب ، وقد فعلت قدر استطاعتي ما نبهوني اليه .

وقالوا ايضا : لماذا لم تعمق دور الذين دافعوا عن الاسلام ، قبل طه حسين والعقاد واحمد امين والدكتور هيكل ، وفي مقدمتهم الاستاذ الإمام محمد عبده ، واستاذه الشيخ جمال الدين الافغاني ، وتلميذه الشيخ محمد رشيد رضا ، ولماذا مررت مرورا عابرا على صاحب أم القرى

المجاهد العربي الكبير عبد الرحمن الكواكبي . وقد فعلت ما يمكن ان تسمح به ظروف هذه الطبعة .

كذلك استفسروا عن كتابات الاستاذ توفيق الحكيم في الاسلام ، وواجهني احدهم بكتابه «محمد» وقال لي. الا يرقى هذا الى مستوى ما عرضته من كتابات في الأسلام ، واعترف ان نفس هذا المطلب قراته لمن تفضل من النقاد بعرض ونقد الكتاب ، وسمعته ايضا من اصدقاء تحدثوا معي فيه ، أمرا ضخّم الاحساس عندي بهذا التقصير ، غير المقصود ، والذي حاولت قدر استطاعتي أن اتلافاه في هذه الطبعة ، فاضيف الى إسلاميات الاربعة الذين ضمتهم الطبعة الاولى إسلاميات الحكيم .

وفي الخلاصة اقول ان الإقبال على اقتناء الكتاب ان دل على شيء فإنما يدل على عناية القراء ، بالبحث الذي يحتويه . لذلك لم يكن بد من التفكير في اعادة النظر فيه مرة ثانية .

ولا شك ان موضوع الكتاب ، هو السبب الاول في الإقبال عليه بلا ريب ، واذا تاضح للقراء بعد هذا العمل ان الصورة المقدمة مقنعة حقا . فإنما الإقناع بها منبعث من ذات واقعها .. من الموضوع نفسه .. من الاسلام وليس من دفاع كاتب متحمس والله ولي التوفيق .

٣-٢-١٩٧٧ سامح كريّم

الفَصْـل الأوّل

الإسلاميات .. معناها وأسبابها

من الامور الشاقة التي كانت تواجـــه الباحث في تاريخ العرب ، اسلوبهم في كتابة هذا التاريخ .. فقد درج العرب على كتابة حوادثهم من حوليات .. فيذكرون الاحداث في شتى نواحيها .. يختلط فيهـا الدين بالعلم ، والادب بالسياسة والشعر .. ولعلهم اعتبروا الإحاطة بكل هذه الجوانب ، دليل مقدرة . لذلك تصوروا الادب مثلا هو الاخذ من كل شيء بطرف ، فنرى الجاحظ يكتب في «البيان والتبيين» تفسير آية الى جانب حكاية الى جانب قصيدة الى جانب راي لصاحب المنطق .. وهكذا إستطرادات لا يجمعها خط واحد او تصنيف واحد .

لهذا كانت مهمة الباحث الحديث شاقة عسيرة ، تحتاج الى احاطة شاملة بكثير من العلوم ، من تفسير وحديث وتاريخ وفقه وادب وفلسفة وعلم كلام وتصوف .

واصعب من هذه المهمة .. مهمة القارىء لهذه المادة .. فقراءتهـا عسيرة وفهمها أعسر ، وتذوقها أشد عسرا .. فأين هذا القارىء الذي يطمئن الى قراءة الأسانيد المطولة ، والاخبار التي يلتوي بها الاستطراد ، وتجود بها لغتها على الفهم السهل ، والذوق الهين .. الذي لا يكلف الناس مشقة ولا عناء !؟

ثم اين هذا القارىء ــ وبخاصة في زماننا هذا الذي يحيط بكثير من العلوم من تفسير وحديث وتاريخ وتصوف الخ ــ لكي يقرأ خبرا من أخبار العرب الاقدمين ، او يقف على واقعة حدثت في الماضي البعيد ؟

وأين هذا القارىء النهم ، الذي يملك من الوقت ، ما يسمح لـــه بالبحث في المتون والأسانيد والحوليات ، عن قصة من القصص ، جـاء ذكرها في العصر القديم ، ويريد الاستمتاع بقراءتها او الرجوع اليها !؟

وأين هذا القارىء ، الذي يفضل قراءة التاريخ العربي ، بهـــذه الصورة ، التي بلغ فيها التعقيد شأنا عظيما ، على تواريخ الامم الاخرى، بصورة مبسطة غير مستغلقة على فهمه ، او حتى تاريخنا العربي نفسه بأقلام مستشرقين ومبشرين استطاعوا ان ينفذوا الى هذه المادة التاريخية ليأخذوا منها ما يريدون ، ثم يدسوا فيها ما يريدون ، بأسلوب مبسط بالنسبة للقارىء ؟

ومن هنا برزت الحاجة الى اعادة كتابة تاريخنا العربي .. ودور الفكر العربي في تكوين الفكر الاوربي ، لان هذا الدور واسع المدى عميق الاثر، شمل العلوم كما شمل الصناعات ، ولم يقتصر على الفلسفة والعلـــوم الطبيعية والفيزيائية والرياضيات بل امتد كذلك الى الادب : الشعر منه والقصص والى الفن المعماري والموسيقى منه بخاصة. وهكذا خرجت علينا أبحاث في تاريخ الادب والفكر العربي ، تجلو صفحات مجهولة من آدابنا وافكارنا العربية ، ووقعت بين يدي القارىء مجلدات هي رسالات جامعية عن هذا التاريخ والفكر تقدمه من زوايا مختلفة ، وبأساليب واضحة ، لا تجنح الى الغموض ، بل واكثر من هذا عبر الفنان سواء الشاعـــر او الروائي ، عن أحداث هذا التاريخ بأعمال فنية تشوق القارىء وتخطف انتباهـــه .

وهكذا استطاع القارىء الى حد كبير، التعرف على شخصيته العربية، من خلال هذه الكتابات ، ذات الالوان المتعددة ، واستطاع ايضا أن يجد بين الكتابات العربية ، ما يشبعه ويسد ما يوجد لديه من نقص ، بـــل وأكثر من ذلك ، استطاعت هذه الجهود المشكورة ، أن تعصم العقـــل العربي وتحميه ، من هذا الدس الذي يضعه المستشرقون بين كتاباتهم ، بقصد او عن غير قصد .

وبرزت الحاجة ايضا ـ وهذا هو الأهم ـ الى اعادة كتابة تاريخنـــا الاسلامي من جديد ، ورسم صور أعلامه كالنبي صلى الله عليه وسلم ، ورجال الصدر الاول من الاسلام ، من خلفاء وقادة وفلاسفة ، وكذلك كتابة دراسات وابحاث عن الدولة الاسلامية : نشأتها وتطورها ، ماضيها وحاضرها .. كل هذا على النحو الحديث ، في طريقة العرض والتحليل، ووضع الافكار غير ملفوفة برداء من الغموض ، يحجبها عـــن الباحث او

الدارس او حتى القارىء العادي .. فلا ينصرف احدهم عن هذه المادة الى غيرها ، مما يكتبه غير المسلمين من مبشرين ومستشرقين ، بل وتزيد هذه الكتابات بأسلوبها الجديد ، في التناول والعرض من تمسك المسلم بعقيدته ، الدينية ، تمسكا يحميه من مغريات العصر ومزالقه .

ولعل هذا ما تنبه اليه الاستاذ الإمام محمد عبده ، حين اخذ على عاتقه ، مهمة البعث الجديد لتاريخ الاسلام ، وجـلاء صورته . فكانت كتاباته بمثابة الصورة المثلى لما يكون عليه الاسلوب ، من الدقة والوضوح، كما كانت في نفس الوقت الرد المفحم على خصوم الاسلام ، هؤلاء الذين تفننوا في الهجوم على الاسلام ونبيه الكريم .

وكان أكبر ما استفاده العقل العربي المستنير ، من فكرة الامام في الاصلاح والحرية الانسانية انه اعاد اليه الثقة بعقيدته ، في هذا العصر الحديث ، ورفع من طريقه الى العمل ، عقبات الجمود والخرافـة والتقليد ، لانه زوده على قواعد دينه بفلسفة الحياة ، التي يقابل بها فلسفات الغرب المتسلطة عليه ، من جهة السطوة او من جهـة الايمان بالعقائد والآراء ، ولهذا كانت ردوده على فلاسفة الغرب ومفكريه أهم واجدى على المسلم العصري ، من ردود المدافعين عن الاسلام على جماعات المبشرين المحترفين ، اذ كانت شبهات المبشرين المحترفين لا تعدو أن تدور حول الشقائق اللفظية التي تمس الاديان الاخرى اشد مساسهـا بالاسلام في العصر الحاضر او العصور الماضية ولكن شبهات المفكرين على غرار الفيلسوف «ارنست رينان» و«جبرايل هانوتو» وغيرهما ، كانت بحاجة الى الفكر العصري ، المؤمن بالدين لمواجهة الافكار العصرية التي لا تؤمن بالاسلام ولا بغير الاسلام ، ولكنها تخامر فكرة المسلـم ، كما تخامر ضميره بالاسئلة المعلقة في انتظار الجواب بين ذي ثقة باعتقاده ، وذي ثقة بتفكيره ، وذي طوية لا ترتقي اليها الظنون ، وكان الاستاذ الإمام – كما يقول الاستاذ العقاد في كتابة عبقري الاصلاح والتعليم الامام محمد عبده – مليئا بكل ما يتطلبه المسلم المستنير في عصره من آيات الثقـة وحجج الاقناع .

كانت ردود الاستاذ الامام على «رينان» و«هانوتو» ردود ما قد علموه، عن تواريخ الحضارات وخصائص الشعوب ، وطبائع الاجناس والسلالات، ويزيد هو عليهم بالايمان الثابت والاريحية الانسانية والهمة التي ترفعه الى مقام الرسالة الروحية ، اذ لا رسالة لأمثال «رينان» و«هانوتو» في عالم العقيدة ولا في عالم الاصلاح . وقد كان اعلى طبقة من مناظريه ، في

مضمار المناظرة بين المعسكرين المتقاتلين فكان «رينان» و«هانوتو» يقابلان بين الاسلام والمسيحية ، ليقابـــلا بين المسلمين والمسيحيين الاوربيين خاصة ، ويقابلا بعد ذلك بين دعوى الغالب ودعوى المغلوب ، ولم ينزل الاستاذ الإمام الى مضمارهم ، الا ليدفع عن الاسلام في وجه الاوربيين المصطبغين بالصبغة المسيحية، وهم ابعد ما يكونون عن المسيحية السمحة، كما يعرفها الاستاذ الامام .. ولم يخرج مـــــن ردوده بتنزيه الاسلام وتشويه المسيحية ، بل خرج منها جميعا بتنزيه الديانتين وإثبات الحقيقة التي يدين بها من يدين بكتاب الاسلام : وهي أن المسيحية ديانة محبوبة لا عداوة بين من يدين بها على أصولها ، ومن يدين بالاسلام على أصوله ، ولا يحرم على المسلم يوما ان يصاحب اهل الكتاب على سنّة اهل الكتاب.

ولأن الاستاذ الإمام محمد عبده كان غير متعصب اولا ، وعالم ثانيا.. فقد كان خير منافح ومدافع عن الاسلام ونبيّه الكريم ، ليس هذا فقط وانما ايضا خير داعية للاسلام ، بأنه دين الله الذي لا يرفض الاديـــان الاخرى . ولم يكن غريبا والامام بهذا الفكر المستنير ، أن يلهم غـــير المسلمين ، من وحي فكره ووحي اعتقاده ووحي كلامه في تفسير القرآن وشرحه للدين في كل موطن اقام به او رحل اليه . فكان أدباء المسيحيين يتسابقون الى دروسه بمساجد بيروت ايام منفاه ، وكان القس الانجليزي تايلور يرى أن شرح المسيحية كما يبسطه الاستاذ الامام ، يوشك ان يعينه على اقناع الاوربيين ، بالتوحيد بين الديانتين على الجادة الوسطى ، التي يلتقي لديها المؤمن بالقرآن والمؤمن بالاناجيل ، وعبّر العلاّمة يعقـــوب صروف تعبيره الصادق ، عن شعور فضلاء المسيحيين يوم قال ـ ساعة دفن الاستاذ الامام لمن حوله من تلاميذه ـ : «اني أسمعكم تقولون فقيد الاسلام والمسلمين ، ولا تزيدون انهّ فقيد الفكر والعلم حيث كان ، انـــه فقيدنا أجمعين .. »

على أن الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده لم يكن هو اول من كتب في الاسلام وتناوله بأسلوب يقبله العصر ، وانما كان هناك استاذه الشيـــخ جمال الدين الافغاني الذي قال عنه الامام نفسه : «سليم القلب جديـــد المزاج شديد العزم شجاع مقدام كثير البذل ، قوي الاعتماد على الله لا يبالي بصروف الزمان قليل الحرص على الدنيا ، بعيد عن الغرور بمتاعها وزخرفها ، مؤثر لمتع الروح كلف بمباهج المعرفة ..» .

والذي قال عنه رينان : «كنت اتحدث الى الافغاني وكان يخيل الي من حرية فكره ، ونبالة طبعه وإخلاص قلبه ، انني أرى وجها لوجـــه

معارفي القدماء ، واني أشهد ابن سينا او ابن رشد ، او احد من أولئك الاحرار العظام الذين مثلوا خلال خمسة قرون تقاليد الفكر الانساني» .

كان الشيخ جمال الدين الافغاني ، رائدا لحركة اصلاح ديني .. فكان يرى أن أساس حركة الاصلاح الديني ، هو الاهتمام بقلع ما رسخ فيعقول العوام والخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقي مثل حملهم القضاء والقدر على معنى يوجب ، الا يتحركوا لطلب مجد ولا للتخلص من ذل ، ومثل فهمهم لبعض الاحاديث الشريفة ، الدالة على فساد آخر الزمان ، فهماً حملهم على عدم السعي وراء الاصلاح والنجاح ، فلا بد من بث العقائد الدينية الحقة ، بين أفراد الجمهور وشرحها لهم على وجهها الصحيح نفوذهم الى ما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة .

ولهذا دعا جمال الدين الافغاني في كتاباته المستنيرين من المسلمين ، الى النظر في حالهم لتحقيق نهضة دينية تجديدية ، تلائم مقتضيات العصر الحديث ، وتبين لهم أن الاسلام اذا فهم على وجهه الصحيح ، يستطيع ان ينمو نموا طبيعيا ، وأن يتقدم تقدما يجمع بين المصالح المتجددة للحياة العملية ، وبين المطالب العالية للنفس الانسانية .

على أن الشيخ جمال الدين الافغاني ، قد عرف بالدعوة الى الجامعة الاسلامية ، التي ترمي الى اتحاد جميع الشعوب ، تلك التي تعيش في كنف الاسلام ، لكي يتيسر لها التخلص من سيطرة الاجنبي ، وقد كان الشيخ جمال يقول بهذا الصدد ، ان الدول الغربية تنتحل الأعذار في هجومها وعدوانها على البلاد الاسلامية وإذلالها وإكراهها لهذه الدول .

وكذلك كان عبد الرحمن الكواكبي ، الذي ولد في حلب وانشأ فيها جريدة «الشهباء» ثم «الاعتدال» وقد عطلت الحكومة وقتئذ الواحدة بعد الاخرى ، فهاجر الى مصر ، واتصل بالشيخ جمال الدين الافغاني ، والاستاذ الامام محمد عبده .. ولم يكن غريبا أن يكون أسلوبه مكملا ومتمما لأسلوب الشيخ الافغاني وتلميذه الامام ، وقد اخذ الثلاثة على عاتقهم الدفاع عن الاسلام ثم اجلاء صوره .

وقد كتب الكواكبي في ذلك كتابين ، احدهما هو كتاب «أم القرى» نقد فيه أحوال العالم الأسلامي في الفترة التي صدر فيها الكتاب .. في قالب خيالي يصور مؤتمرا عقد في مكة ، وتكلم فيه ممثلون بشتى الاقطار الاسلامية ، كل يطرح المشكلة من وجهة نظره ، ويقدم لها على لسان الكواكبي حلولا .

والكتاب الآخر هو «طبائع الاستبداد» وعلى الرغم من انه سياسي ، الا انه لم يتغافل عن عرض ما في الاسلام من مبادىء وقيم .. في فصل بحث فيه عن علاقة الاستبداد بالدين . فدلل على ان الاسلام قد فرق بين شيئين جوهريين ، النظرة الى الله ، والنظرة الى الحاكم .. ان الحاكم فرد يخطىء ويصيب ، يظلم ويعدل .. انه في جميع الاحوال يلتزم ــ بحكم الدين ــ الا يستبد بالرأي ان الله تعالى يقول : «وشاورهم في الامر» اي في الشأن . ويقول عز وجلّ : «وامرهم شورى بينهم» أي شأنهم . ويقول سبحانه وتعالى : «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم» أي اصحاب الشأن منكم وهم العلماء والرؤساء على ما اتفق عليه اكثر المفسرين . وهنا نجد فارقا كبيرا بين الاسلام كنظام اجتماعي وغيره من الانظمة الاوربية .. تلك التي ترى أن الاستبداد متولد من الاستبداد في الدين نفسه ، او مسايرا له ، انهم يقولون ان الاديان تعلم الناس الخوف من قوة عظيمة لا تدرك العقول كنهها ، وتهددهم بالعذاب ان لم يطيعوها والمستبدون السياسيون يتبعون الاسلوب نفسه.. فيرهبون الناس ويذلوهم ــ بالقوة وسلب الاموال والارهاب . حتى لا يجدوا مفرا من التزلف اليهم وتملقهم .

الكواكبي يؤكد شارحا ذلك بالحجة والدليل والمنطق ، أن الاسلام يختلف شديد الاختلاف عن هذا الاسلوب . ويضرب مثلا بالصحابي الجليل عمر بن الخطاب رضي الله عنه واحد العشرة المبشرين بالجنة ، يعلن أخطاء عمر وأصابت امرأة فهل هناك عدالة بعد هذا ؟

ومن بعد هؤلاء جميعا جاء محمد رشيد رضا ، ومحمد فريد وجدي وغيرهما فأعطوا المادة الاسلامية شطرا من اهتماماتهم وتحدثوا عن الاسلام دينا ونظاما ورجالا على النحو الحديث .

أراد محمد رشيد رضا ــ حتى يتمكن من إلزام المسلمين بتجديد تعاليم القرآن والسنّة بإيفادة تأملها والتفكير فيها وحتى يزيد من حثهم على ان يظلوا مرتبطين بشريعة آبائهم ــ اراد ان يثبت بطريقة قاطعة أن دينهم لا يمكن ان يكون بأية حال من الاحوال ، مسؤولا عن ذلك التفكك البطيء الذي أصاب مجتمعهم ، وذلك بقيامه بدراسة سريعة ــ وجدانية اكثر منها نقدية لاسباب تدهور العالم الاسلامي ، ولتنفيذ كل الاتهامات الموجهة الى الاسلام وأخذ ، يطري بلا كلل الفضائل الاجتماعية والسياسية للشريعة الاسلامية وعبر مرات عديدة ، عن رأيه في أن هذه الشريعة «تستطيع وحدها أن تؤذن بالعثور على دواء لكل الامراض الاجتماعية ،

التي تلازم الانظمة والحكومات المادية والملحدة ، والتي اخذت بخانق كثير من المجتمعات حتى الجأتها الى البلشفية والفوضوية ، وعلى غرار ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة حين راوده الامل في كسب الجماعات اليهودية الى دينه ، فان محمد رشيد رضا لم يفقد الامل مطلقا، في أن يرى العرب ذات يوم ، وقد عدل عن ضلالاته ، وجاء لينضم الى الصف ، تحت راية الاسلام . من هنا كانت انتقاداته الحادة للمستشرقين الغربيين ، الذين اتهمهم بأنهم شوهوا في كتاباتهم المعنى الحقيقي لرسالة الله .

وسرعان ما تحتم أن يؤدي هذا الحماس ، في اثبات أن الاسلام هو آخر وافضل واكمل الاديان المعروفة ، الى ايقاظ أصداء عميقة في الراي العام الاسلامي بل لقد كان من اللازم أن يكون ثمة صدى مماثل لنداءات يوجهها الشيخ محمد رشيد رضا ، لنشر العربية لغة القرآن — على نطاق واسع ، وأن تقدم استجوابات عنيفة ضد «الاستعمار» وضد التعليم الذي تشرف عليه المدارس الاجنبية ، والبعثات التبشيرية المسيحية .

وكانت مقالاته العديدة التي تنشرها «المنار» تقرأ عن آخرها في كافة أنحاء العالم الاسلامي من الهند حتى مراكش ، بل لزم الامر أن تطبع بعض كتبه عدة مرات . واذا كان كتابه عن «الخلافة» لم يحظ بنجاح نسبي ، فان كتابه «الثورة المحمدية» قد نفد خلال أسابيع ، كما ترجم الى اللغتين الاوردية والصينية ، كما اعيد طبعه عدة مرات متتالية .

تشربت القومية المصرية — كما يقول مارسيل كولومب في كتابه «تطور مصر» الذي ترجمه الاستاذ زهير الشايب ، عند قراءتها لهذه المؤلفات المكتوبة بأسلوب فخم جذاب ، جرعة جديدة من الحماسة والقوة، وتكاتف المسلمون من كافة المذاهب للدفاع عن الاسلام ، وهو بما كانت تنصح به هذه المؤلفات .

وهكذا أدت هذه الافكار الى أن تضفي على الدين صبغة قومية ، كان لاندفاعها ولمبالغاتها أحيانا أثر على الحياة السياسية في مصر . كما أثر بالمثل في التكوين العقلي والنفسي والخلقي للشباب ، وجاءت أولى نتائجه في بدايات عام ١٩٢٧ متمثلة في نشأة العديد ، من الجمعيات الدينية بصورة غير طبيعية وكانت أهم هذه الجمعيات تلعب في أوساط الطبقات المتوسطة في المدن دورا يتزايد مع الايام وهو دور شبيه بالدور الذي تلعبه الطرق الصوفية ، وقد جاءت نهاية بعض هذه الجمعيات وهو البعض الذي نشأ لهدف محدد ، سريعة فلم يقدر لها أن تبقى بعد انتهاء

الظروف التي ادت الى وجودها ، اما بعضها الآخر ، فقد ظل ينمو خلال سنوات طويلة ، ليحرز فجأة صيتا ذائعا ثم لتتوارى بعد ذلك في ظلام النسيان . وسوف نقتصر هنا على ذكر أهم هذه الجمعيات وهي «جمعية الشبان المسلمين» و«جمعية مكارم الاخلاق الاسلامية» و«جمعية الهداية الاسلامية» و«جمعية الوعظ والدعوة الاسلامية» و«جمعية نشر الفضائل الاسلامية» و«جمعية إحياء السنّة» و«الجمعية السلفية» .

كانت كل هذه الجمعيات تنفي عن نفسها بقوة انها تتدخل في الحياة السياسية للبلاد ، ولكنها مع ذلك سرعان ما تحولت الى جمعيات يتعايش فيها كل من الدين والوطنية جنبا الى جنب ، ولم تلبث ان نشأت جمعيات اخرى لها طابع مزدوج : ديني وسياسي في الوقت نفسه ، وثمة اثنتان من هذه الجمعيات جديرتان بالذكر هما حسب تاريخ تأسيسهما : «جماعة الاخوان المسلمين» وجمعية «مصر الفتاة» وقد حازت أولاهما وهي التي تأسست عام ١٩٢٧ — ١٩٢٨ على يد مدرس خط بالمدارس الثانوية الحكومية ، شعبية مذهلة غداة الحرب العالمية الثانية ، أما الاخرى «مصر الفتاة» فقد انشأها في عام ١٩٣٣ المحامي أحمد حسين وكان جمهورها بالغ الضآلة يتكون من صغار تلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية في القاهرة والاسكندرية ، ويتميز أعضاؤها الذين يتجمعون في شراذم «القمصان الخضراء» ، بتلك المظاهرات الصاخبة غير المنظمة ، والتي تعبر عن وطنية متطرفة كما كانوا لا يخفون مطلقا اعجابهم بالنظامين الاستبداديين ، الهتلري والفاشستي. كما قاموا بحملات صاخبة تطالب بإغلاق حانات الشرب ، وبمنع البغاء وتحريم الاختلاط في الاماكن العامة، وظلت هذه الجماعة «مصر الفتاة» تواصل نشاطها الديني بعد ان اتخذت لنفسها عام ١٩٤٠ اسم «الحزب الوطني الاسلامي» ، وفي هذا الحين قدمت برنامجها الذي أفسحت فيه مكانا كبيرا لضرورة تجديد وتنقيح الشريعة الاسلامية ، وضرورة تطبيقها فنادت بإعادة نظام الزكاة ، وإلغاء الاقتراض بالربح والربا ، وسن القوانين عن طريق مجلس من العلماء والفقهاء وتنقيح الدستور بما يطابق مبادىء الشريعة .

وفي مواجهة الغرب والمعجبين به ، تصدت جمعيتا «مصر الفتاة» و«الاخوان المسلمين» للدفاع بحمية وجراة عن الاسلام والحضارة الاسلامية ، واشتدت كلتاهما في التنديد بالسياسة التي كانت تتبعها الدول الكبرى في البلدان الاسلامية الخاضعة لسلطانها ، كما تصدت بالمثل لفوضى العادات الشرقية الناتجة في معظم الاحيان عن «تأودب

متسرع» ، لكن شيئا لم يكن يثير سخطهم وسخط الرأي العام في مجموعة مثلما كانت تثيرم الاحكام التي كان يطلقها على الاسلام المستشرقـــون الغربيون ، وكذا التصريحات الرعناء والمحرفة الصادرة أحيانا عن المبشرين المسيحيين ، كانت الثورة ضد بعثات التبشير بالغة الحدة خصوصا فـي شهري مارس وأبريل عام ١٩٢٨ ، وهي الفترة التي عقد فيها المؤتمـر العالمي للاعمال التبشيرية غير الكاثوليكية جلساته في القدس ، ثم عادت الثورة مرة اخرى في صيف ١٩٣٣ عندما اتهمت مديرة معهد بور سعيد، بأنها ارادت ان ترغم بالقوة طفلة مسلمة على الارتداد عن دينها ، وأهاج الحادث الشعور العام ، واتهمت البعثات التبشيرية بأنها تلجأ الى اساليب تبعث على الحيرة ، بل والى ممارسة التنويم المغناطيسـي ، كما احاطت الريبة بكل المدارس الاجنبية العلمانية منها والتبشيرية . واتهمت بأنهـا تنشر تعليما معاديا ومضادا للاسلام ، وانها تجعـل الشبان المصريين يحيدون عن طريقهم . وتعالت النداءات تطالب بتطوير سريع للتعليـم المصري ، وعلى الفور افتتحت الاكتتابات التي خصصت لبناء الملاجىء ، ولفتح مدارس جديدة يمكن ان يكون فيها المسلمون بمنأى عن الدعايـات الخبيثة ، التي يبثها المدرسون الاجانب وقد أدت حملة الاثارة هذه فـي يولية ١٩٣٣ ، الى أحداث كفر الـدوار ، حيث اضطرت الاخـوات الفرنسيسكان ، بعد حصار الجمهور وتهديده لهن ـ أن يسلمن الاطفال الذين كانوا في رعايتهن .

وعلى امتداد السنوات كانت بعض الصحف المستريبة على الدوام والتي تثور لابسط الامور لا تفتأ توجه الاتهامات لمستشرقي أوربا وكانت أسماء مثل «مارجوليوت» و«برونو» و«سنوك» تذكر باعتبارها أسمـاء مخربين خطرين على الاسلام ، يتهجمون تحت ستار من ادعاء العالمية على القرآن ، وعلى حياة محمد صلى الله عليه وسلم ، بهـدف أن يهيئوا للمبشرين والاستعماريين حججا منطقية في مظهرها كي تزعزع ايمـان المسلمين ولكي تجعلهم يحيدون عن ارتباطهم بدينهم . ومن بين هـؤلاء المستشرقين جميعا ، إستأثر العالم الهولندي ولنسنك بأشد الانتقـاد والهجوم ، لانه كان قد كتب في دائرة المعارف الاسلامية مقالين عـد احدهما قذفا في حق النبي ابراهيم عليه السلام ، كما عد الآخر قذفـا في حق الكعبة .

وسرعان ما تولت الجامعة الازهرية ادارة دفة حركة الرأي العام هذه، واستطاع شيوخها بكل ما يمنحهم منصبهم من نفوذ ، أن يجعلوا مـن

انفسهم المعبرين عن هذا السخط العام ، وكثرت تدخلاتهم لدى السلطات العامة وحرصا من الجامعة الكبرى على الا تخيب الآمال التي عقدت عليها، فقد فكرت في القيام بدور تبشيري كان دعاة التجديد يراودهم الامل في ان تقوم به فأرسلت بعثات من العلماء الى السودان واليابان والهند ، مع اصرار من جانبهم على الا يثبط همتهم ما سوف يواجهونه من نوبات فشل متوالية ، ولأشهر طويلة كانت صحافة القاهرة لا تكف عن الحديث عن احتمال «المنبوذين» في الهند مع جزء كبير من الشعب الياباني الى الاسلام مما أحيا الآمال في رؤية العالم الاسلامي ، وقد ازدادت أعداده عدة ملايين من الانفس دفعة واحدة .

وقد ولّدت هذه الدعاية النشطة لدى ابسط طبقات الشعب ، وكذلك وسط طلاب المدارس والجامعات بالمدن الكبرى تيارا قويا معاديا للاجانب، ظل يتزايد من عام لعام حتى وصل مداه غداة الحرب العالمية الثانية . وهكذا عمل الكثيرون على ان يتبوأ الدين في حياة البلاد السياسية مكانة بارزة .

وفي عام ١٩٢٥ مكنت ادانة الشيخ علي عبد الرازق الملك فؤاد ، من اقالة وزير الحقانية لانه لم يبد حماسة كافية للتصديق على قرارات الازهر ، وبهذه الطريقة تخلص الملك من حكومة كان يعتبرها مصدر ضيق له ، ولكن ازمة ١٩٣٧ كانت حافلة بدروس اكبر ، فقد بدأت تعود للوجود بين الاقباط والمسلمين مشاحنات الامس . وبعد بضعة اشهر كانت تهمة «القبطية» كفيلة بتحطيم مكانة حزب الوفد ، وبدأ النحاس باشا ــ كما اشار اليه كل خصومه ــ باعتباره الكافر ، في الوقت الذي كان يطلق فيه على الملك فاروق اسم «الملك الصالح» .

ومع ذلك فلم يكن القصر ولا الحاشية ، هما وحدهما اللذان يستندان الى هذه المحافظة الاسلامية ، فقد كان التيار المنادي باستنهاض الدين من القوة بين الطبقات ، وصناع المدن الكبرى بحيث لم يفكر رجال السياسة في الصمود في طريقه ، ولما كانوا يفوقون غيرهم في ادراك قوة هذا التيار وقدراته المفاجئة ، فقد بذلوا كل ما في وسعهم وفق ما تقضي به الظروف ، للمداهنة وللتوافق . وكان على الحكومات التي تتولى السلطة أيا كان الحزب الذي تنتمي اليه ، أن تعمل حسابا لتلك التيارات الاسلامية التي لن يتوانى خصومها في المعارضة عن استغلالها . وقد ظهر هذا الميل الى وضع الدين في خدمة السياسة بوضوح اثناء الحملات الانتخابية واثناء فترات الازمات التي تبلغ فيها المعارك الحزبية حدا بالغ العنف، ومنذ ذلك

الحين كانت تتوارى في الظل مشروعات الاصلاح الديني ، ولن يكون في الدولة كلها شخص واحد يجرؤ على المضي في هذه المشروعات حتى آخر الشوط .

ومع ذلك فان الحدث البالغ الدلالة هو أن المسيحيين الداعين في الماضي الى علمانية الدولة ، قد قاموا بترضية أدبية وساهموا في الدفاع عن الاسلام ، ولهذا فقد رأينا سلامة موسى عام ١٩٣٥ يصرح بأن الاسلام هو دين بلادي ومن واجبي أن أدافع عنه ، وبالمثل سمعنا عام ١٩٣٦ وزير المالية الطبقي مكرم عبيد باشا ، يؤكد لبعض المشايخ الذين جاءوا ليشكروه على رصده مبالغ ضخمة لبناء مساجد جديدة قائلا «صحيح أنني مسيحي دينا لكني مسلم وطنا» .

وشعر دعاة التجديد بأن عليهم أن يقدموا براهين أكيدة على اخلاصهم لعقيدتهم ، لذا فسوف نلمس منذ عام ١٩٣٠ ظهور ادب يتخذ من الدين ملهما له ، فيخصص الدكتور طه حسين ابتداء من ١٩٣٣ ثلاثة مجلدات من الحكايات والاقاصيص عن حياة النبي تحت عنوان «على هامش السيرة» ، وساهم في هذا اللون الادبي الجديد كبار كتاب مصر الحديثة وفي مقدمتهم محمد حسين هيكل وعباس محمود العقاد وأحمد أمين وتوفيق الحكيم كل حسب مواهبه وثقافته الخاصة . ففي عام ١٩٣٥ نشر محمد حسين هيكل رئيس تحرير الصحيفة الليبرالية السياسية على الجمهور كتابه «حياة محمد» ثم أتبع هذا الكتاب بمؤلفات اخرى مثل الصديق أبو بكر الفاروق عمر وعثمان بن عفان بين الخلافة والملك . وابتداء من عام ١٩٤٠ بدأ عباس محمود العقاد بدوره يقدم كتابه «عبقرية محمد» وهو اول كتاب من سلسلة طويلة نشرت خلال السنوات التالية عبقرية الصديق عبقرية عمر وعبقرية خالد ثم قدم بعد ذلك سيرة : داعي السماء بلال بن رباح مؤذن الرسول الصديقة بنت الصديق عائشة بنت ابي بكر واحب زوجات النبي اليه ، أبو الشهداء الحسين بن علي وعمرو بن العاص . اما توفيق الحكيم فقد قدم أحداثا من حياة النبي على شكل حوار .

وقد استقبلت الجماهير هذه الكتب بترحيب خاص ونفد كتاب هيكل «حياة محمد» في نفس عام صدوره ونال شهرة لا مثيل لها في كل أنحاء العالم العربي سواء في أوساط المثقفين او في أوساط الجماهير العادية، كما لم يكن أقل من ذلك نجاح عبقريات العقاد والمجلدات الثلاث التي الفها طه حسين عن سيرة النبي ، فقد أعيد طبع هذه الكتب مرات عديدة، وأمام هذا الاقبال الشديد على التاريخ الاسلامي ، اخذت وزارة المعارف

العمومية على عاتقها عام ١٩٤٠ ، أن تنشر تحت أشرافها سلسلة «أعلام الاسلام» للناشئة في البلدان العربية ، وتناولت الكتب الاولى من هـــذه السلسلة التي عهد بتأليفها الى كبار الكتاب ــ حياة البارزين من رجـال القرن الاول الهجري ، والى جانب الخلفاء الاربعة كان صحابة الرســول يحتلون مكانة بارزة في قائمة الاسماء موضع الدراسة : سعد بن ابـــي وقاص أبو عبيدة عامر بن الجراح بالاضافة الى الخلفاء الامويين : معاوية وعبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز وكذلك القادة وحكام المقاطعات البارزون : خالد بن الوليد (سيف الله المسلول) وعمرو بن العاص (محرر مصر) موسى بن نصير (فاتح المغرب الاقصى) مسلمة بن عبد الملك (الـذي لمع في معارك آسيا الصغرى) قتيبة بن مسلم (حاكم وفاتح اقليم خراسان) واخيرا الحجاج بن يوسف الثقفي . ثم يأتي بعد ذلك في هذه السلسلـة أسماء القدامى من خيرة الشعراء والناشرين جرير الفـــرزدق ، قيس الرقيات الكميت عمر بن ابي ربيعة كثير الخطيب وبشار بن برد .

ان هذا الفكر الجديد الذي كان يركز على أحداث منتقاة من سيرة حياة النبي والخلفاء الراشدين لم يكن ليمر بينما هــو مكتوب بأقلام كتاب يدين كبارهم بشهرتهم لمناهجهم وبنفس القدر لعقليتهم الليبرالية الناقدة بل والثورية في بعض الاحيان دون ان يثير الكثير من الدهشة . حتى لقد وصف البعض ذلك بأنه «ردة رجعية الى التقاليد» وبأنه دعوة الى التفكير المحافظ الذي ينتمي الى الزمن الغابر وقد انبرى طه حسين بحدة لهـــذه الاتهامات .

والاهتمام بكتابة التاريخ الاسلامي قد توقف فترة الى ان بدا واضحا قويا في ثلاثينات هذا القرن ، فصدر في أقل من عام اكثر من عشرين كتابا في الاسلام وبالتحديد عام ١٩٣٥ . وهذه الكتب سلكت المنهـــج الحديث في كتابة التاريخ .. وفي مقدمتهــــا : «الاسلام والحضارة» للاستاذ محمد كرد علي ، «ضحى الاسلام» للدكتور أحمد أمين ، «على هامش السيرة» للدكتور طه حسين ، «حياة محمد» للدكتور محمد حسين هيكل ، وترجمة كتاب «الاسلام والتجديد» للاستاذ عباس محمود ، وهو بالطبع غير عملاق الفكر العربي عباس محمود العقاد الذي بدأ كتابـــــة موسوعته الاسلامية الضخمة في أربعينات هذا القرن . وغير هؤلاء ممن قدموا كتابات وصل تعدادها ــ كما قلنا ــ الى اكثر من عشرين كتابا .

وصدور هذا العدد من الكتب التي تعالج الاسلام نظاما ورجالا ودينا في أقل من عام .. يعتبر في حد ذاته ظاهرة اجتماعية تستحق البحث

والدراسة ، خاصة وانه لم يكن هناك قبلها اهتمام يذكر اللهم هذا النذر القليل الذي يخرج في صورة كلمة او مقالة او على أكثر تقدير بحث الى جانب ما يخرج بالطبع من كتب بالطريقة القديمة .

وما يزيد هذه الظاهرة استحقاقا للبحث والدراسة ان معظم مؤلفي هذه الكتب الحديثة لم يكونوا من رجال الدين المتفرغين للكتابة في المسائل الدينية ، والذين لا يستغرب منهم الكتابة في هذا الميدان . ولكن الغريب ان من أقبل على طرق هذه الموضوعات الدينية .. لم يكونوا من المتخصصين . وفي مقدمتهم الدكتور طه حسين ، والدكتور محمد حسنين هيكل ، والدكتور أحمد أمين ، والاستاذعباس محمود العقاد ، والأستاذ توفيق الحكيم، وهم الخمسة الذين نعرض لكتاباتهم هنا في الاسلام ، والتي عرفت فيما بعد بالإسلاميات .

وهذه الاسلاميات التي برزت في ثلاثينات هذا القرن نوع من الكتابات الاسلامية تجمعت لمفكر واحد كتبها وفق منهج علمي في البحث ... وذلك من حيث العرض والتحليل والاستقصاء . وفيها جلاء لصورة الاسلام نظاما ودينا ورجالا . وهي الى جانب هذا كله تقديم لحقائق الاسلام .. تلك التي تبطل افتراءات خصومه .

وانصرف هؤلاء الكتاب الخمسة غير المتخصصين في الكتابات الدينية الى هذا النوع من الكتابات لا بد أن يكون له أكثر من دلالة .

والحق انه كان هناك بالفعل اكثر من سبب وأكثر من عامل دفع هؤلاء الكتاب الخمسة للكتابة في الاسلام ومن هذه العوامل والاسباب :

أولا ــ ازدياد نشاط الحركة التبشيرية التي تناقلت الصحف يومئذ اخبارها في ثلاثينات هذا القرن ، وكانت الجامعة الامريكية بالقاهرة هي مصدر هذه الدعاية التبشيرية ، وكان غريبا حقا هذا النشاط الذي أبداه المبشرون والذي لم يسمع بمثله من عشرات السنين فقد امتد من القاهرة الى بور سعيد والى غيرها من المدن ، وقد أسهمت صحف ذلك الوقت في وصف وذكر الاغراءات المادية التي لجأ اليها المبشرون لحمل السذج على اعتناق غير الاسلام . ولقد كان الاربعة «طه حسين ، ومحمد حسين هيكل ، وعباس محمود العقاد ، واحمد أمين» من أشد الناس تحمسا لمقاومة هذا التبشير اقتناعا منهم بأن هذه الحركة يقصد بها إضعاف ما في النفوس من ثقة بدين الدولة الرسمي ، ولما تنطوي عليه من قصد سياسي هو إضعاف معنويات الشعب بإضعاف عقيدته بالاضافة الى انهم رأوا في هذه الحركة التبشيرية نفسها مقاومة لما يؤمنون به من «حرية

الراي» فإغراء السذج والاطفال من المسلمين بهذه الوسائل المادية لحملهم على تغيير دينهم او حتى حملهم على تغيير رأيهم في الحياة هو محاربة دنيئة لهذه الحرية ، وهو من ناحية اخرى استغلال للضعف الانساني كاستغلال المرابي حاجة مدينه ليقرضه بالربا الفاحش . والتبشير فضلا عن كل ذلك مناف لقواعد الاخلاق ما دام يتم في الظلام ولا يصارح القائم به الناس ليناقشوه فيما يقول ويدعو ، وليبينوا ما فيه من زيف وفساد.

وكان من اثر هذه الحركة التبشيرية ، وموقف هؤلاء الاربعة ومن يشايعهم أن اندفعوا في مقاومتها بالطريقة العلمية المثلى ، وفكروا وتدبروا فلم يجدوا خيرا من اعادة كتابة التاريخ الاسلامي بطريقة يقتنع بها المسلم وغير المسلم .

ولا شك ان الخمسة فكروا في مقاومة هذه الحركة بطريقة علمية واضحة فحكّموا العقل قبل العاطفة- ولا ادل على ذلك مما نقراه في كتاب احدهم «الاستاذ عباس محمود العقاد» الذي ننقل منه هذه العبارة للتدليل على هذا التفكير . يقول العقاد في كتابه «ما يقال عن الاسلام» في صدد الحديث عن المبشرين ما يلي .

((ولا يقل عن هؤلاء الكفرة في عداوتهم للاسلام ـ يقصد الماديين ـ جماعة المؤمنين المحترفين سماسرة التبشير الذين يتخذون تشويه الاسلام صناعة يستدرون بها الرزق ويتوسلون بها جاه الرئاسة وسمعة الصلاح والتقوى بين المتعصبين والجهلاء في البلاد الاوربية والامريكية . فهؤلاء اصحاب مصلحة في تشويه الدين الاسلامي وتمثيل المسلمين على الصورة التي تذكي عند القوم جذوة التعصب وغلي لهم في الجهالة والغفلة ، فلا يسرهم ان تظهر الخيانة لهم لمن يستاجرونهم ويرسلونهم للتبشير ولا يندر أن يكون المبشر ملحدا بالدين كله . ولكنه يعلم انه يقطع موارد رزقه اذا كشف عن إلحاده ، او قال عن الاسلام قولة حق وإنصاف بمحو عداوة الاعداء وتضعف غيرتهم وحمايتهم للحملات التبشيرية في بلاد المسلمين فهو كاذب متعمد منتفع بالكذب لا يزحزحه عنه علمه بالحقيقة ولا هو يسعى الى علمها برضاه)) .

ويفرق الاستاذ العقاد بين هؤلاء المؤمنين المحترفين وبين المصدقين برسالتهم عند النظر الى اقوال المبشرين فيقول في نفس المصدر :

((فالمبشر المؤمن بدينه ربما انحرفت المخالفة الدينية بعاطفته فنظر الى الاشياء على غير وجهتها واخطا احدكم عليها ، غير متعمد ان يخطىء او يصر على خطئه . وربما لاحت له فضيلة من فضائل الدين او من

فضائل أهله فلم ينكرها ولم يحاول أن يطمسها ويخفيها ولكنه يفسرهـا على سنة الاقدمين من المبشرين تفسيرا يوافق رايه في عقيدته وعقائـد المخالفين له من المستحقين لغضب الله في زعمه)) .

بهذا النمط من التفكير سلك الخمسة الكبار في مقاومتهم للتبشـير ورجاله .

ثانيا ـ دخول بعض الكتابات الاجنبية عن الاسلام الى البلاد . ونعني بهذه الكتابات تلك التي صاحبت حركة الاستشراق العالمية ، والتي بدأت في أوربا في أوائل القرن الثامن عشر او قبل ذلك ، يوم بدأت أوربـا تراجع معتقداتها وتتصل بالعالم الخارجي .. اتصال كشف وتقيس كل ما كانت تعرفه على الواقع والحقيقة .. وكان التراث الاسلامي هدفا من اهداف بحث المستشرقين . وهنا ظهرت بعض الكتابات التي تسيء الى الاسلام ونبي الاسلام صلى الله عليه وسلم . وهذه الكتابات ان سلمت من غرض تشويه الاسلام كهدف فلا بد ان تقع فريسة أخطاء أخرى ليكون من نتيجتها تشويه الاسلام ايضا مثل عدم توافر الامانة العلمية الواجبة ، او عدم الاحاطة بالاسلام دينا ونظاما وعقيدة ، او عدم التمكن من اللغـة العربية فضلا عن بعض التعصب الديني وكثير من التعصب القومي .

وعلى الرغم من ان هذه الكتابات مضى عليها زمن طويل الا انها وقعت في أيدي جيل الثلاثينات ، ذلك الذي أصبح يقرأ باللغات الاجنبية ولا يجد في نفس الوقت من المؤلفات العربية ما يستطيع الوقوف به أمـام هذه الكتابات المبنية في كثير من جوانبها على الحجة والمنطق . حقيقة كان هناك من الكتابات العربية ما يقدم نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم، ولكن بصورة تسيء الى الحقيقة ، بما تنسبه اليه من معجـزات وخوارق لا يصدقها عقل ولا هي تفيد في تأكيد رسالته النبوية . فكان هذا الجيل من المثقفين اميل الى تصديق كتب المستشرقين الذين يخاطبونه بما يتفق مع عقليته الجديدة واختلاف النتائج التـي كان يصل اليها هـؤلاء المستشرقون ما بين مقر بعظمة الاسلام ونبي الاسلام ، ومنكر لها .. مع زعم الفريقين بأن ما انتهى اليه بحثهما هو نتيجة للنظر العلمي المجرد .. هذا الاختلاف جعل الشك يتسرب في صحة هذه النتائج من ناحية ، ومن ناحية أخرى بدأ كتاب وادباء هذا الجيل يتعلمون منهجهم في الكتابة وفي نفس الوقت يتصدون للكتابة في الاسلام بهذا المنهج . وبذلك قضوا على زعم هؤلاء المستشرقين بأنهم هم وحدهم الذين يستخدمون المنهج العلمـي في كتابة التاريخ الاسلامي .

ثالثا ــ كتابات المتعصبين للغرب وطنيا وجنسيا التي يظهر التعصب فيها حين يكتبون عن المسلمين العرب لانهم اذا كتبوا عن المسلمين الهنود او الفرس استطاعوا ان يقولوا انهم من السلالة الآرية التي ينتمي اليهـا الاوربيون ، واستطاعوا ان يزعموا ــ مثلا ــ ان الاسلام قد اخذ التصوف عن الفرس ، واخذ الحكمة عن الهند ، والفلسفة عن اليونــان ، وأن المسلمين العرب كانوا يعولون في خدمة دينهم ــ بل في خدمة لغتهم ــ على المجتهدين من سلالة الآريين ، وقد يزيد الغلو بهذه الفئة حتى تنكر دينها لانه تبشير رسول «يهودي سامي» كما يقولون عن السيد المسيــح عليه السلام ، وبعضهم ينشىء لنفسه مراسم وشعائر كالمراسم والشعائر التي يتبعها اصحاب العبادات ويتذرعون بما يدّعونه من المزايا الجنسية لتسويغ سيادتهم على الغربيين أنفسهم ، لانهم لم يحرروا عقولهم عــن العبادات الشرقية او لانهم خالطوا الشعوب من غير السلالة الآرية الخالصة فلحقت بهم الهجنة في الانساب وفي الاخلاق .

هذه طائفة من ذوي النيات السيئة بين كتاب الغرب . يؤلفون عن المسلمين العرب على التخصيص ومعظمهم ممن يدينون بالمذاهب الفاشية او النازية في السياسة والاجتماع .

رابعا ــ كتابات طائفة يشوب كتابتها الغرض كلما تحدثت عن البلاد الاسلامية بالضبط كما يشوبها نفس الغرض كلما تحدثت عن بلد غريب يتطلع القراء الغربيون الى سماع اخباره ، ويحبون ان توافق هذه الاخبار والاحاديث ما تخيلوه من اطواره وأعاجيبه ، وهؤلاء الكتاب يسوقــون كتاباتهم الى قراء ألف ليلة وليلة ورباعيات عمر الخيام ، ورحلات الرواد عبر القرون الوسطى وهؤلاء يحبون ان يسمعوا خبرا غير الذي يألفونــه ويشبه ما تعودوه ، وهواهم كله الى الاحاديث الشرقية التي تعرض لهم شرقا في الواقع كالشرق الذي سبق أن قرأوا عنه في أساطير الخيال .
وقد رأينا بعض كتاب الغرائب في القرن العشرين يجول بين ربوع البادية العربية فيزعم انه نزل بضيافة شيخ في الستين له في مضارب الخيام حوله ثلاثون زوجة ، وله من الابناء والبنات ما ليس يحصيه ، ورأينــا غيره يزعم انه زار في العواصم الاسلامية بيوتا لا تفتح نوافذها وأبوابهــا بالنهار ولا بالليل وبين جدرانها خليط من الزوجات والسراري لا يهتدين في الطريق بغير دليل من الخصيان . ولكن هؤلاء المغربين المتخيلين بدأوا يشوبون شيئا فشيئا الى الاعتدال في رواية أخبارهم وأعاجيبهم هذه عن الاسلام ورجاله بعد شيوع الصور المتحركة وانتشار المناظر الشرقية على

حقيقتها فيما تعرضه الشاشة البيضاء او تعرضه الصحف السيارة . ولم تبق للمغربين المتخيلين غير زاوية واحدة يملأونها بالاعاجيب والمدهشات عن المسلمين الشرقيين وهي زاوية التاريخ والعصور التاريخية التي يعمرونها بأبطال العصور الغابرة فيما يؤلفونه عن المسلمين ، من قصص البيوت والخدور .

خامسا ـ خلو الميدان من الكتابات الاسلامية المقنعة لسببين :

الاول : عدم وجود مفكرين افذاذ مثل جمال الدين الافغاني باعث النهضة الفكرية في الشرق أو محمد عبده المجدد الاسلامي او غيرهما. ممن يستطيعون الصمود امام هذه الهجمة الضارية والدفاع عن الاسلام بالحجة والمنطق خاصة وان القائمين على امر الكتابات المغرضة كانوا في الاصل مفكرين يخدمون السياسة الغالبة على دولهم فيصطفون لغة الدعاية تارة ، ولغة الدبلوماسية تارة اخرى .

والسبب الثاني : هو في انصراف الادباء والمفكرين في ذلك الوقت الى الكتابات السياسية والادبية . فمن الناحية السياسية نجد ان هذه الفترة ـ عشرينات وثلاثينات هذا القرن ـ اجتاحتها ازمة سياسية شاملة اطاحت بالدستور وفرضت على الناس دكتاتورية الاقليات السياسية ، وعطلت الصحف ، وضيقت على الحريات . فضلا عما كانت تعانيه البلاد آنئذ من ازمة اقتصادية . فانصرف كتاب هذه الفترة الى السياسة . وها هو الاستاذ العقاد يصل به الامر الى ان يقف في مجلس النواب عام ١٩٢٨ ليهدد راس الملك بالسحق فيسجن تسعة اشهر ، مما يؤكد ان كتّاب هذه الفترة وادباءها شغلتهم السياسة واحداثها .

اما من الناحية الادبية فقد انصرف اغلب المفكرين والادباء الى النقد والادب وما يدور حولهما من معارك كثيرة .. فقد كانت هذه الفترة إحياء للآداب العربية اسوة بما حدث للاداب الاوربية وهو ما عبر عنه الدكتور طه حسين في تقديمه لكتاب «فجر الاسلام» وهو يبرر انصراف اغلب الادباء والكتّاب والمفكرين عن الكتابة في الاسلام .

سادسا ـ اللياذ بالعقيدة الدينية خوفا من المذاهب التي تعتبر في ذلك الوقت خطرة . وها هو الاستاذ العقاد يعبر عن ذلك في مقالة له في روز اليوسف عام ١٩٣٥ يقول فيها :

(ان السبب العالمي الاكبر لهذه الظاهرة ـ اللياذ بالعقيدة الدينية ـ هو فشل الفلسفة المادية في اقناع العقول وارضاء النفوس وطمأنة الضمائر بعد احتياجها العالم زهاء قرن كامل ، واعتزاز الناس بها في غير طائل

وانتظارهم منها التعليلات والتفسيرات التي تعبوا في البحث عنها والرجوع بها الى الجاهدين المتقنين وهم لا يفقهون بم يجيبون ولا يبيحون للناس أن يفقهوا ما يجهلون» .

«واما السبب الشرقي فهو اليقظة العربية واللياذ بالعقيدة التي تعيد ذكرى المجد القديم ، وتحمي اصحابها من غارات أعدائهـــــا في العصر الحديث ، ففي الحجاز وفي اليمن والعراق وسوريا وغيرها من البلدان الاسلامية كالهند والجزائر الأسيوية حديث عن الاسلام والعرب ، ورغبة دائمة في القراءة عن تاريخ المسلمين وزعماء الاسلام ومن كان قد اطلع على طرف من العلوم العصرية في ابناء هذه الاقطار المترامية فهو يشتاق أن يرى الاسلام على هدي هذه العلوم ، وأن يحكم الصلة بين زمانه وبين ما سلف من الازمنة» .

ويستمر الاستاذ العقاد في مقاله هذا الى أن يصل الى قوله: «يحيط بهذه الاسباب جميعا سبب شامل ذلك هو الفزع من الشيوعية والاعتصام منها بالعقائد الروحية التي لا تسيغ المذاهب المادية» .

سابعا ــ اجتذاب فريق من المسلمين المتعلمين الـــى قراءة الكتب العربية بعد انصرافهم الى الكتب الاوربية حيث يلتمسون فيها حقيقـــة الاسلام اقتناعا منهم بأنهم لن يجدوها في كتب المسلمين بالعربية ، بعد ان تبينوا ان الزندقة ــ في نظر جماعة من العلماء المسلمين ــ تقابل حكم العقل ونظام المنطق وان الالحاد عندهم قرين الاجتهاد ، كما ان الايمان قرين الجمود . فاتجهوا الى الفلسفة واهملوا التفكير في الاديان كلهـــا وفي الرسالة الاسلامية وصاحبها حرصا منهم على الا تثور بينهم وبين دعاة الجمود حرب لا ثقة لهم بالانتصار فيها . هذا من ناحية ، ومـــن ناحية ثانية لم يدرك بعض المتعلمين من المسلمين في ذلك الوقت ضرورة الاتصال الروحي بين الانسان وعوالم الكون اتصالا يرتفع بالانسان الـــى ارقى مراتب الكمال ، وتتضاعف به قوته المعنوية . فاقتحم ميدان الكتابة في الاسلام هؤلاء الخمسة مدركين أن عملهم هذا يفسد ما يبغيه الاستعمار من تأييد للطاعنين في الاسلام تحت اسم حرية الرأي ، وقصده في ذلك القضاء على الروح المعنوية بإضعاف الثقة في دين الامة مما يضر بها .. وأي ضرر يصيب الامة بعد انصراف متعلميها الى كتابات عن الاسلام بأقلام غير المسلمين ؟

ثامنا ــ تحدي الحركة المحافظة . تلك التي عادت كل ما هو جديد في الفكر في النصف الاخير من القرن التاسع عشر والسنوات الاولى مـــن

القرن العشرين .. حين كانت مصر تجتاز مرحلة المخاض العسير لولادة فكر مصري متميز .. وهنا تمثلت قلة من ابناء مصر الموجة الغربية وبدات تعمل على تطوير الحياة المصرية يدفعها الى ذلك .. التحدي للافاقة هذه الحركة المحافظة التي اسفرت عن وجهها وهي تجتاز صحوة الموت عـــن جمود اتسم بالعنف في مواجهة كتابات وأفكار الشيخ محمد عبده فـــي دفاعه عن الاسلام ، ودعوة قاسم امين لتحرير المرأة ، وفي موقفهـــا المتعصب في كتابي «الشعر الجاهلي» للدكتـــور طه حسين و«الاسلام وأصول الحكم» للشيخ علي عبد الرازق .

تاسعا ــ الاستقلال عن تركيا وبريطانيا كان تدعيما لاصحـاب الآراء المتحررة المعتدلة ، مثل طه حسين والعقاد وهيكل وأحمد امين وغيرهم ممن بدأوا يعملون على ايجاد فكر يحافظ على الاصيل من القديم الموروث، ويصل في نفس الوقت الى الجديد الاجنبي . وبمعنى آخر تناول تراثنا بأسلوب عصري جديد ولم يكن هناك أفضل من الاسلام من ناحية الاصالة لتناوله بأسلوب عصري جديد خاصة وان الدين اول ما يقصد بالحمايـة حين يخشى الناس عاقبة هذه الافكار الاوربية الوافدة التي ترى ان كل ما سبق من مسلمات وعقائد وأفكار يجب ان يعاد بحثه وتمحيصه علـى الطريقة العلمية . وتطبيق الطريقة العلمية على الدين ــ وهو امر له جلاله وقداسته ــ كان بعد مغامرة خطرة ؛ الا انها مغامرة كانت ضروريـــة وحتمية برغم خطورتها .. وما دامت هي ضرورية فالافضل ان يقوم بهذه المغامرة من يعنيهم امر هذا الدين وهم مفكرونا وكتّابنا من المسلمين قبل ان يقوم بها غيرهم ممن لا يمثل الدين عندهم أهمية في قليل او كثير .

عاشرا ــ رغبة الكتّاب والادباء في ايجاد وسيلة لربط حاضر الامـــة بماضيها .. وفكروا في ذلك كثيرا .. فاتجهوا الى الفرعونية يلتمسون فيها الامتداد الى الحاضر .. فلما لم يجدوا ذلك ممكنا .. اقتنعوا بان الاسلام هو الافضل من ناحية الامتداد الى الحاضر ومما يؤكد هذا الرأي قول الدكتور هيكل في مقدمة كتاب «حياة محمد» : «خيل الي كما خيل الى أصحابي ان نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا الى هـــذا النهوض ، ولكن ما في الغرب غير صالح لان ننقله فتاريخنا الروحي غير تاريخ الغرب ، وثقافتنا الروحية غير ثقافة الغرب» .

ويمضي الدكتور هيكل في سرد ما بين الحياتين المصرية والاوربية من فروق ثم يقول : «وانقلبت ألتمس في تاريخنا البعيد في عهد الفراعنة موئلا لوحي هذا العصر . ينشىء فيه نشأ جديدة فاذا الزمن ، واذا الركود

العقلي قد قطعا ، ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد لا يصلح بذرا لنهضة جديدة فرايت أن تاريخنا الاسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو ..» .

ولهذا كانت محاولات هيكل واصحابه في اعادة كتابة التاريخ الاسلامي حتى يتم ربط حاضر الامة بماضيها .

حادي عشر ــ يحيط بهذه الاسباب والعوامل .. عامل شخصي يتصل بالوراثة وظروف النشأة في اوساط اجتماعية تحترم الدين .. فالخمسة يهتمون عند كتابة مذكراتهم الخاصة بأن يشيروا في شيء من الاعتزاز بانهم حفظوا القرآن في طفولتهم .. كما حدثنا الدكتور طه في «الايام» والدكتور هيكل في كتابه «مذكرات في السياسة» والدكتور أحمد امين في «حياتي» والاستاذ العقاد في كتابه «أنا» والاستاذ توفيق الحكيم في كتابه «زهرة العمر» .

وهذا يعني أن للوراثة وظروف النشأة دخلا كبيرا في هذه الاهتمامات بعد ذلك . وهذا ما يجلوه ويعبر عنه صراحة الاستاذ العقاد في مقدمته لكتاب «فاطمة الزهراء» حيث يقول :

«ترد الاشارة الى الوراثة في مواضع شتى من هذه الصفحات التالية، ونعوّل عليها في مناسبات شتى لتفسير بعض الاطوار ومنها اطوار الجماعات او اطوار الحركات التاريخية .

وأراني أهم بأن أضرب المثل فابدأ بنفسي وباثر الوراثة في كتابة هذه الصفحات وكتابة كثير من الصفحات في الموضوعات الاسلامية ...»

ويمضي الاستاذ العقاد في مقدمته هذه موضحا ومؤكدا في نفس الوقت ان للوراثة وظروف النشأة اثرا فيما قدم بعد ذلك من الكتابة في الاسلام .

ثاني عشر ــ تصادف وجود هذا الجيل .. الذي يمثل بعض افراد معالم فكرنا العربي .. فقد وجد في وقت واحد الدكتور طه حسين والاستاذ عباس محمود العقاد والدكتور محمد حسين هيكل والدكتور احمد امين والاستاذ توفيق الحكيم وغيرهم ممن تشبعوا بالحضارة الغربية سواء في مهدها كما حدث للدكتور طه حسين والدكتور محمد حسين هيكل والاستاذ توفيق الحكيم حين سافروا الى باريس ، الاول لدراسة الفلسفة والثاني لدراسة الحقوق والثالث لدراسة الادب ، او بالاطلاع على هذه الحضارة من خلال الكتب الوافدة كالاستاذ العقاد والدكتور احمد امين .

ووجود الخمسة جنبا الى جنب في عصر واحد ضمن للتجزبة اكبر قدر من النجاح .. نعني بالتجربة اعادة كتابة التاريخ الاسلامي وفقا للمناهج العلمية الحديثة . فالخمسة كان يجمعهم — على الرغم من الخصومات التي كانت بينهم — اسلوب عمل واحد هو التجديد المبني على الاسلوب العلمي . وهذا في حد ذاته كان يعصمهم من هجمات دعاة الجمود وانصاره .

***

لهذه الاسباب وغيرها فكر الخمسة تفكيرا جديا في اعادة كتابة التاريخ الاسلامي مستخدمين الادوات الغربية في البحث .

وكانت الخطوة الاولى تقريبا في هذا المشروع عندما اتفق الدكتور طه حسين مع الدكتور أحمد امين والأستاذ عبد الحميد العبادي على كتابة التاريخ الاسلامي من فجر الاسلام حتى آخر عصر الدولة الاموية . بحيث يختص كل منهم بجانب من هذا البحث فاختص الدكتور طه حسين بالحياة الادبية في الاسلام والدكتور أحمد أمين بالحياة العقلية والاستاذ عبد الحميد العبادي بالحياة السياسية .

وفي نفس الفترة تقريبا بدأ تفكير الدكتور محمد حسين هيكل يتجه للكتابة في الاسلام وها هو يشير الى ذلك في كتابه «حياة محمد» فيقول: «كان من أثر هذه الحركة التبشيرية وموقفي منها أن دفعني للتفكير في مقاومتها بالطريقة المثلى التي توجب علي أن أبحث حياة صاحب الرسالة الاسلامية ومبادئه بحثا علميا ، وأن أعرضه على الناس عرضا يشترك في تقديره الجميع ..» .

ثم يقول انه سأل عن كتب اوربية كتبت عن حياة صاحب الرسالة فذكر أحدهم كتاب المفكر الفرنسي «أميل درمنجم» عن «حياة محمد» ولم البث أن اقتنيته وعكفت على مطالعته حتى فرغت منه ثم بدأت أنشر عنه بحثا في السياسة الاسبوعية . فلما ظهر العدد الاول عام ١٩٣٢ تخاطفه الناس تخاطفا حتى لقد طلب الباعة ضعف العدد الذي طبعناه فشجعني ذلك على المضي في بحثي وعلى الاستزادة منها ..

ويظل الدكتور هيكل في متابعته للبحث عن صاحب الرسالة ثلاث سنوات بعدها يصدر كتابه «حياة محمد» وتتوالى مؤلفاته الاسلامية .

والاستاذ الحكيم الذي بدأت اهتماماته بهذا الجانب حين كان بباريس

واطلع على العديد من كتب الاسلام بأقلام غير المسلمين . وكانت هـــذه الكتب كلها هجوم وافتراء على الاسلام ونبيه الكريم . وهنا فكر في الرد على هذه الكتابات وفي مقدمتها «محمد» لفولتير فكتب بحثا كبيرا في شكل تمثيلي في الرسالة بمناسبة ذكرى الهجرة . سرعان ما تحول الى كتاب «محمد الرسول البشر» .

وها هو عملاق الفكر العربي ، وصاحب العدد الاكبر مـــن الكتب الاسلامية الاستاذ عباس محمود العقاد يحدثنا عن اللحظة التي بدأ فيها في التفكير للاسلام .. فيذكر انه بعد وقعة حدثت أثناء مناقشة قامت بينه وبين عدد من اصدقائه لما كتبه «توماس كارليل» عن النبي فـــي كتابه «الابطال» وكيف ان أحدهم تطاول بالحديث على شخص النبي الكريم فأساء الى مشاعر الحاضرين الامر الذي جعلهم يجبرونه على الخروج من مجلسهم . اعقب ذلك حديث بين الاصدقاء ننقله من كتاب «عبقريـــة محمد» والحديث هو :

«ما بالنا نقنع بتمجيد كارليل للنبي وهو كاتب غربي لا يفهمه كمـــا نفهمه ، ولا يعرف الاسلام كما نعرفه . ثم سألنـــي ـ الحديث للعقاد ـ بعض الاخوان : ما بالك انت يا فلان لا تضع لقراء العربية كتابا عن محمد على النمط الحديث ؟» قلت أفعل وأرجو أن يتم ذلك في وقت قريب» .

وبالفعل بر الاستاذ العقاد بوعده .. فكانت بداية الاربعينات بدايـــة لهذا السيل ـ الذي لم ينقطع حتى وفاته ـ من الكتابات الاسلاميـــة الجادة .

***

وهكذا نرى انه كانت هناك دوافع وأسباب لاتجاه كتابنا الخمســـة (طه حسين ، ومحمد حسين هيكل ، وأحمد امين ، والاستاذ العقاد ، والاستاذ توفيق الحكيم) الى الكتابة عن الاسلام .

الفصل الثاني

اسلاميات طه حسين

بإسلامياته استطاع الدكتور طه حسين ان يقدم نفسه على انه هذا المزيج القوي بين حضارتين مختلفتين : ((حضارة الشرق)) و ((حضارة الغرب)) ، وانه العصارة الطيبة بين معهدين مختلفين ايضا : ((الازهر الشريف)) و ((جامعة باريس)) . واستطاع أن يؤكد للناس ان أصوله ما برحت راسخة في حضارة الاسلام تستخلص منها عناصر غذاء لا غنى للناس عنه .

لم يكن الدكتور طه حسين اول من قدم للمكتبة العربية كتابا في الاسلام فقد سبقه الى ذلك الدكتور احمد امين حين قدم كتابه الاول ((فجر الاسلام)) عام ١٩٢٨ بينما هو قدم كتابه الاول ((على هامش السيرة)) عام ١٩٣٣ ، ولم يكن الدكتور طه حسين صاحب العدد الضخم من المؤلفات الاسلامية بين اصحاب الاسلاميات فقد فاقه في ذلك الاستاذ عباس محمود العقاد الذي اقتربت مؤلفاته الاسلامية من الثلاثين مؤلفا بينما نجد عدد كتب الدكتور طه حسين في الفكر الاسلامي لا تزيد عن الثمانية ، كذلك لم يكن الدكتور طه حسين متميزا باستخدامه الادب في تناول التاريخ الاسلامي فالخمسة في الاصل كانوا ادباء وكان لذلك اثر في كتاباتهم للتاريخ .

وعلى الرغم من هذا كله .. الا انه حين يذكر من كتبوا في الاسلام ويؤرخ لهم نجد اسم الدكتور طه حسين في المقدمة . ولا عجب في ذلك فللدكتور طه حسين فضل كبير في مشروع اعادة كتابة التاريخ الاسلامي شبيه بفضله في بقية جوانب حياتنا الثقافية والاجتماعية .

وفضل الدكتور طه حسين في كتابة تاريخ الاسلام يرجع الى ذلك اليوم الذي دعا فيه صديقيه الدكتور أحمد أمين ، والاستاذ عبد الحميد العبادي الى ان يقوم الثلاثة بكتابة الحياة الاسلامية ، كل يتناول منها جانبا على ما رأينا فيما سبق من حديث .

ومن هنا .. فمن مبادرته هذه ، ومواصلته في الكتابة الاسلامية ذات

الطابع المميز .. كان اسم الدكتور طه حسين يقفز في المقدمة عند الحديث عن أصحاب الاسلاميات .

والدكتور طه حسين حين اراد الاسهام مع صاحبه الدكتور أحمد أمين وعبد الحميد العبادي في كتابة التاريخ الاسلامي اختار لنفسه جانبا يجيده ويتقنه وهو جانب الحياة الادبية في الاسلام .

واذا كان الدكتور طه حسين لم يحدد المنهج في تناوله للمادة التاريخية على عادة ما يفعل المؤرخون في كتاباتهم فلا بد من القيام بعملية استنباط لهذا المنهج من كتاباته ومما كتب عنه من دراسات .

كلنا نعرف ان شخصية الدكتور طه حسين تميزت منذ البداية بسمتين واضحتين ، فهو أديب فنان الى جانب انه ناقد حساس . ومعنى هذا ان شخصيته تجمع فنية الادب ، وحساسية النقد .

ولما كان التاريخ حسب التعريف القديم الصحيح هو في مجموعه علم من العلوم او بالاحرى نوع من النقد والفن . فمن الواضح ان جانبا كبيرا لا يستهان به من انتاج الدكتور طه حسين الادبي العظيم يدخل في نطاق التاريخ .

والحق ان ما كتبه الدكتور طه حسين ايام شبابه عن الشعر العربي الجاهلي او الاسلامي ، وعن بلاد اليونان القديمة في مظاهرها الاجتماعية والادبية والدينية ، او ما كتبه بعد ان بلغ سن النضوج وخصصه لأصول الادب العربي القديم وتطوره وما كتبه عن مشاكل التعليم والثقافة في العالم العربي المعاصر يعتبر في جوهره نوعا من التاريخ .

حتى ما جادت به قريحته من ابداع في ذكرياته الحميمة والتي تضمنتها اجزاء كتاب «الايام» تعتبر نوعا من التاريخ برغم أن ابداعه الفني في كتابتها يجعل القارىء ينسى انه يقرأ صفحات من التاريخ .

والدكتور طه حسين اختار جانب الحياة الادبية في الاسلام .. وهو الجانب الذي يجيده ويتقنه ، ولكنه برغم هذا كان مؤرخا حين تناول بالدراسة السيرة النبوية في كتاب **«على هامش السيرة»** وكان مؤرخا في ترجمته للخلفاء الراشدين الاربعة «ابو بكر وعمر وعثمان وعلي» ، وكان مؤرخا ايضا حين تناول بالدراسة المجتمع الاسلامي بعد الرسول في كل من «مرآة الاسلام» و«الوعد الحق» .

واذا توصلنا الى ان الدكتور طه حسين مؤرخ فلا يبقى امامنا الا البحث في تفاصيل أسلوبه ومنهجه كمؤرخ . فهو حين اختار الحياة الادبية في الاسلام فمعنى هذا انه يريد ان ينظر الى التاريخ الاسلامي

نظرة الاديب الفنان الذي تجذبه وتؤثر فيه الصورة الجميلة . ولعل هذا ما اراد قوله صراحة حين قدم الجزء الاول من هذه الاسلاميات وهو كتاب «على هامش السيرة» حيث يقول :

«الى هذا النحو من إحياء الادب القديم ، ومن إحياء ذكر العرب الاولين ، قصدت حين امليت فصول هذا الكتاب ولست أريد ان اخدع القراء عن نفسي ولاعن هذا الكتاب ! فاني لم أفكر فيه تفكيرا ، ولا قدّرته تقديرا ، ولا تعمدت تاليفه وتصنيفه كما يتعمد المؤلفون ، انما دفعت الى ذلك دفعا ، أكرهت عليه اكراها ، ورأيتني أقرأ السيرة فتمتلىء بها نفسي ويفيض بها قلبي ، وينطلق بها لساني ، واذا أنا أملي هذه الفصول وفصولا أخرى أرجو ان تنشر بعد حين .

فليس في هذا الكتاب اذاً تكلف ولا تصنع ، ولا محاولة للاجادة ولا اجتناب التعقيد ، وانما هو صورة لسيرة طبيعية صادقة لبعض ما أجد من الشعور حين أقرأ هذه الكتب التي لا أعدل بها كتبا أخرى مهما تكن، والتي لا أملّ قراءتها والأنس اليها ، والتي لا ينقضي حبي لها واعجابي بها ، وحرصي على أن يقرأها الناس ..» .

بهذه العبارة يحدد الدكتور طه حسين ـ ضمنيا منهجه في البحث التاريخي . فمن يقرأه يدرك على الفور انه امام اديب مؤرخ .. يحس فيتصور مما يحس صورة ، هي من جوهر التاريخ لا من تفصيله ، وهي لب ما في التاريخ الذي نحب ان نتمثله جميعا ليكون لنا فيه جميعا الصورة المشتركة ، اما ما بعد ذلك مما تزخر به كتب التاريخ العامة فهو للخاصة ولمن اراد مزيدا من علم ومزيدا من رأي .

والدكتور طه حسين كفنان مؤرخ لديه مقياس يقف بتاريخ الادب ودراساته بين العلم والفن ، بحيث لا يغرق مؤرخ الادب في العلم اغراقا من شأنه ان يصيب بحوثه التاريخية الادبية بالجفاف .

وبحيث لا يغرق في الفن اغراقا من شأنه ان يفني الشخصيات في ذاته وشخصيته . بل هو يتخذ في تناوله المادة الاسلامية طريقا وسطا بين العلم والفن ، بين التاريخ والادب .. طريقا تتفق فيه علوم اللغة والصرف والنحو والبيان والتاريخ ومناهج البحث الادبي في استكشاف الظواهر وحقائق النصوص الادبية . مع ما ينبغي له من الحس الدقيق المرهف ، والذوق المهذب المصفى ، بحيث تتجلى شخصيته فيما ينشر من أحكام وآراء ، وفيما يصور من مواطن الجمال الفني في الآثار الادبية والتاريخية المختلفة .

وعلى هذا الاساس وضع د. طه حسين لنفسه ، ولمدرسته التي اخذ طلابها ينشئون على مثاله ، الاصول التي ينبغي ان تبدو عليها دراساتهم وهي أصول ترد الى جانبين :

١ ــ جانب علمي يتصل بفحص المادة التاريخية وتحقيقها واستنباط دلالتها مع دقة التفسير والتعليل والتحليل ، ومعرفة الظروف التي احاطت بها والمؤثرات المختلفة التي أثرت في منشئها وبيان الصلات بينهم وبين محيطهم وبيئاتهم وعصورهم .

٢ ــ جانب فني يتصل بنقد هذه المادة التاريخية وتصوير شخصيات اصحابها ، وما تحدث في نفس قارئيها من لذة . وهو الجانب الذي يحيل التاريخ الى عمل أدبي ممتع يلذ العقل والشعور اذ نرى من خلاله خصائص المؤرخ التسجيلي فشخصيته كأديب تبدو من خلال كتاباته للتاريخ حين ينفث فيه من روحه ونظرته وفكرته ، ويجمله بأسلوبه ، ويلتقط جوانب يطويها سرد المؤرخ التسجيلي .

والى جانب فحص المادة التاريخية ثم نقدها تبدأ عملية صياغتها من جديد وهو حين يقوم بصياغة مادته يستخدم المنهج الاجتماعي ، وخاصة اذا كانت هذه المادة التاريخية حول اشخاص .

ونستطيع أن نستدل على منهج الدكتور طه حسين من عبارته هذه التي كانت ضمن ما كتبه لتقديم «قادة الفكر» فهو يقول : «الفرد ظاهرة اجتماعية ، وليس من البحث القيم العلمي في شيء أن تجعل الفرد كل شيء وتمحو الجماعة التي أنشأته وكونته محوا ، انما السبيل أن تقدر الجماعة ، وأن تقدر الفرد ، وأن تجتهد ما استطعت في تحديد الصلة بينهما وفي تعيين ما تطلبهما من أثر في الآداب والآراء الفلسفية والنظم الاجتماعية والسياسية المختلفة ..» .

بهذا المنهج الذي بشّر به الدكتور طه حسين عام ١٩٢٥ درس الادب العربي وأعاد تقييمه من جديد ، ثم درس المجتمع الاسلامي ورجاله . فقدم لنا «على هامش السيرة» في ثلاثة أجزاء ، «الفتنة الكبرى» في جزئين ، «الشيخان» و «الوعد الحق» و «مرآة الاسلام» .

على هامش السيرة

حين شرع الدكتور طه حسين في التاريخ لحياة الاسلام الادبية كان

هدفه الاول هو تنقية المادة الاسلامية مما يتداخل معها من المواد الاخرى من العلوم والفنون ، وتبسيط هذه المادة بالقدر الذي لا يفقدها معناها ، واخيرا تسهيل وصولها الى متناول الايدي بدلا من خزنها في المكتبات ، لذلك نراه يقدم كتابه الاول «على هامش السيرة» بقوله : «هذه صحف لم تكتب للعلماء ولا للمؤرخين . لاني لم ارد بها الى العلم ، ولم اقصد بها الى التاريخ . وانما هي صورة عرضت لي اثناء قراءتي السيرة فاثبتها مسرعا ، ثم لم ار بنشرها باسا . ولعلي رأيت في نشرها شيئا من الخير، فهي ترد على الناس اطرافا من الادب القديم قد افلتت منهم وامتنعت عليهم ، فليس يقرأها منهم الا اولئك الذين أتيحت لهم ثقافة عميقة في الادب العربي القديم وانك لتلتمس الذين يقرأون ما كتب القدماء في السيرة وحديث العرب قبل الاسلام فلا تكاد تظفر بهم» .

فالغرض اذن من كتابة الدكتور طه حسين للسيرة هو أن يقرب هذه السيرة من خلال الاسلوب المبسط من الناس بعد ان باعدت الاساليب المعقدة بين السيرة والناس . والدكتور طه حسين لا يشك لحظة في قيمة ما سيقدمه من عمل بعد ان اكتشف ان الذين يقرأون السيرة من القلة بحيث يعد الانسان نفسه ظافرا لو وجدهم في هذا الزمان الذي يقرأ فيه الناس لمعاصرين تشيع البساطة والسهولة في كتاباتهم . يقول الدكتور في نفس المصدر : «انما يقرأ الناس اليوم ما يكتب لهم المعاصرون في الادب الحديث بلغتهم او بلغة اجنبية من هذه اللغات المنتشرة في الشرق، يجدون في قراءة هذا الادب من اليسر والسهولة ، ومن اللذة والمتاع ، ما يغريهم به ويرغبهم فيه» .

وتلك رسالة الدكتور طه حسين وزملائه عندما شرعوا يكتبون الحياة الاسلامية في جوانبها الثلاثة .. أن يقدموا هذه الحياة الاسلامية بأسلوب جديد ، ونظرة عصرية تتفق مع سمات هذا النصر ، حتى يستطيعوا جذب اكبر عدد من المثقفين الى القراءة .. وخاصة تلك القراءة التي تهتم بالاسلام دينا ودولة ورجالا . كانت مهمته أن يغربل هذه المادة الموجودة في بطون الكتب والمتون والاسانيد وتقديمها بعد ذلك في أسلوب جديد يقرأه الجميع من الشباب وغير الشباب . وان كان الدكتور طه حسين قد خص بالاهتمام الشباب على اعتبار انهم الامل المرتقب للبلاد حيث قال في معرض الحديث عن كتاب «على هامش السيرة» : «فاذا استطاع هذا الكتاب أن يحيي الى الشباب قراءة كتب السيرة خاصة ، وكتب الادب العربي عامة ، والتماس المتاع الفني في صحفها الخصبة فانا سعيد حقا،

موفق حقا لأحب الاشياء الي ، وأثرها عندي ..» .

واذا استطاع هذا الكتاب ان يلقي في نفوس الشباب حب الحياة العربية الاولى ويلفتهم الى ان في سذاجتها ويسرها جمالا ليس أقل روعة ولا نفاذا الى القلوب من هذا الجمال الذي يجدونه في الحياة الحديثة فالدكتور طه حسين سعيد موفق لبعض ما اراد .

واذا استطاع هذا الكتاب ان يدفع الشباب الى استغلال الحياة العربية الاولى واتخاذها موضوعا قيما خصبا لا للانتاج العلمي في التاريخ والادب الوصفي وحدهما بل كذلك للانتاج في الادب الانشائي الخالص فهو سعيد موفق لبعض ما اراد .

واذا استطاع كتاب «على هامش السيرة» ان يلقي في نفوس الشباب ان القديم لا ينبغي أن يهجر لانه قديم ، وان الجديد لا ينبغي أن يطلب لانه جديد ، وانما يهجر القديم اذا بريء من النفع وخلا من الفائدة ، فان كان نافعا مفيدا فليس الناس اقل حاجة اليه منهم الى الجديد فالدكتور طه حسين سعيد ايضا وموفق ايضا لما اراد .

وفي اعتقاد الدكتور طه حسين انه لو قرب الى الناس فهم تاريخهم الاسلامي يكون قد أفاد وأثمر ويكون بالفعل قد أحيا الادب القديم .

وينوه الدكتور طه الى ان أدبنا القديم يكفل للناس قدرة على الوحي، وقدرة على الالهام . ونفس الشيء في السيرة فقد الهمت الكتاب والشعراء في أكثر العصور الاسلامية ، فصوروها صورا مختلفة متفاوتة. وهو لذلك يمهد لاستخدام الخيال في سرد بعض الاحداث راجيا الا يتضايق دعاة العقل .

ونمضي مع الاحداث على لسان الدكتور طه حسين التي يستند بعض احاديثه عنها على التاريخ وينسج الخيال اكثر ما فيها . فهي كما يقول الدكتور طه حسين ليست كتابا في السيرة وانما هي أثر من آثار قراءة السيرة كما تلقتها روح طه حسين المبدعة وتصورت في خياله الخصب المثقف .

وتدور أحداث «على هامش السيرة» ما بين اليونان والشام والعراق وفارس واليمن والجزيرة العربية ومصر والحبشة ومعها يمضي ميلاد عظيم يتأهب له العالم ويسعى لرؤيته واستقباله ونيل الخلاص على يديه . وسوف نرى شبانا يونانيين وثنيين ما زالوا يلفظون سرا بوثنيتهم الآفلة بعد ان انتشرت المسيحية في بلادهم وأصبحت دين القيصر والدولة وعامة الناس ، وسوف نرى شبانا مسيحيين يخرجون من بلادهم بحثا عن

الدين الجديد يلتمسونه فيما حولهم من بلاد وثقافات ومنها هذه البلاد الصحراوية البعيدة التي لا يعرف سلطان القيصر طريقه اليها ، فيصل بعضهم ويموت آخرون دون الغاية ، وسوف نجد مثلهم شبانا عربا وثنيين يخرجون من بلادهم الى الشام وبيزنطة من اجل هذه الغاية نفسها فيصبح بعضهم نصارى بيزنطيين ويعود بعضهم الى الوطن يبشرون بشيء من المسيحية حتى يقدر لهم ان يشهدوا الحق في ميلاده العظيم .

ربما التقينا مرة اخرى دون أن ندري ونحن نتجول في ربوع الشام والعراق بذلك الفتى الفارسي عبدا كهلا في يثرب ، وكان قبل استرقاقه شابا تقيا عرف النصرانية فتنصر وخرج من أصفهان الى العراق . والشام طلبا لليقين فاذا هو يتنقل بين الكنائس والاديرة والصوامع فيتتلمذ على ايدي قسس ورهبان يدلونه على مطلع النور في جزيرة العرب فيشد رحاله اليها مع تجار يغدرون به في الطريق ويبيعونه ليهودي من بني قريظة في يثرب فيستعبد بها ويظل حتى يأتي محمد مهاجرا فيصبح من اقرب صحابته . وسوف نرى تاجرا اسكندرانيا ينتهز فرصة غضب القيصر لما لقيه مسيحيو نجران في اليمن في اضطهاد الملك اليهودي «ذي نواس» فيجهز أسطولا ليبحر به جنود النجاشي المسيحي حليف القيصر البيزنطي الى اليمن حتى يثأروا لاخوانهم في الدين ويفتحوا الطريق لتجارة الروم الى قلب الجزيرة العربية ، ويصل الى اليمن ويصحب جيش ابرهة الى مكة ليهدم الكعبة وهناك يرى ما لم يكن يتصور ، يرى الطير الأبابيل وهي تمطر الجيش بحجارة من سجّيل فتجعله كعصف مأكول ، عندئذ يعلم ان لهذا البيت شأنا ويترك تجارته ويتخلى عن ثروته ويدخل ديرا في أطراف الشام على طريق مكة منتظرا ما سوف يكون من الامر العظيم في بلاد العرب ولم يكن يعلم بالطبع ان حدثا خطيرا قد وقع وهو في مكة يشهد اندحار جيش أبرهة وان صاحب الرسالة التي ينتظرها العالم قد ولد في نفس العام ، عام الفيل ، وسوف نستمع الى حديث «البناء» القبطي الذي شارك في بناء الكعبة حين أعيد بناؤها على عهد محمد كما شارك في البناء محمد نفسه حين وضع بيده الحجر الاسود في مكانه بالكعبة كما سنرى ونسمع كثيرين ممن عاصروا ميلاد الحق العظيم او جاءوا قبله بقليل او بعده بقليل ، وسنرى النبي الكريم منذ ان كان يتيما تعطف عليه أكرم الحواضن الى ان كان راعيا للغنم ، الى أن صدع بأمر الدعوة الاسلامية فلقي فيها عداوة المعادين وحسد الحاسدين ، وسنرى كيف ان النبي لا يلقي المعادين بما يكرهون ، ويدعوهم الى كلمة

الحق ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وحين يقدم المجتمع العربي القديم في الحجاز قبيل الدعوة المحمدية وفي اثنائها ، والصراع بين الحق والباطل ، والحرب بين الصلاح والفساد حتى يتم على يدي صاحب السيرة النصر ودخول الناس في دين الله أفواجا .

والدكتور طه حسين يروي لنا كل ذلك في أحاديث منفصلة بتباعد المدن والسنوات حتى تتجمع في النهاية خيوط أحاديثه وشخصياته في مكة او في يثرب او في غيرهما من المدن والبلاد التي شهدت ظهـــور الرسالة الجديدة او كان لها شأن في تاريخها .

الفتنة الكبرى

حين تصدى الدكتور طه حسين للكتابة عن الفتنة الكبرى .. اول فتنة في الاسلام تلك التي انقسمت الدولة الاسلامية بعدهـــا وظلت منقسمة حتى الان .. عندما تصدى للكتابة عنها كان يعلم جيدا ان أدق فترة في التاريخ الاسلامي هي تلك الفترة التي تلت مقتل عثمان ابـــن عفان . ففيها انتهكت الحرمات ، وقضي فيها على سنة الخلافة الراشدة.

والباحث في قصة الفتنة الكبرى يقابل الكثير من الصعوبات والعراقيل لاختلاف وجهات النظر التي تناولت هذا الموضوع بالذات .

فللمؤرخين القدامى والمعاصرين آراء متباينة في هذه الفتنة الكبرى .

منهم مثلا من يستبد به الهوى لآل البيت وللامـــام علي فيناصره ويتعاطف معه ويكون ذلك على حساب المنهج العلمي الذي يتطلب مـــن البحث دقة وموضوعية .

ومنهم من ينحاز الى معاوية فينحي باللائمة على الامام علي لتخليـــه عن سياسة الفتح وانشغاله بحروب داخلية في عضد المسلمين وفتحه الباب لكي تدخل الضغائن والاحقاد والثورات في قلب الدولة الاسلامية الفتية .

وولج الدكتور طه حسين هذا الميدان فكان المؤرخ المنصف الـــذي يعرض الاحداث مجردة عن كل عصبية او هوى فقدم للقارىء مادة وافية دقيقة موضوعية عن تاريخ هذه الفترة بشتى ملابساتها .. فهـــو حين يحدثنا عن شخصية عثمان رضي الله عنه او علي كرّم الله وجهه لا يكتفي بأن يقدمهما كخليفتين للمسلمين دون دراسة الوسط الاجتماعي الذي أدى

الى ما حدث في عهد كل منهما ، والذي انتهى بمقتلهما في النهاية .

ومنذ البداية نلاحظ ان الدكتور طه حسين لا يتقيد بالترتيب الزمني في تاريخه للاسلام ولهذا نجده يعقب السيرة بكتابه «الفتنة الكبرى» في عهد عثمان وعلي رضي الله عنهما . مع انه كان ينبغي أن يعقبها بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

ويحدثنا الدكتور طه حسين عن الخليفتين اللذين حدث في عهدهما انقسام الامبراطورية الاسلامية انقساما ما زال ماثلا حتى اليوم ، واللذين ورثا عن سلفيهما ابي بكر وعمر اكبر امبراطورية في التاريخ ويحدثنا عن أكبر موقف محرج واجهه خليفة لرسول الله وذلك حين قتل ابن عمر ثلاثة انتقاما لمقتل ابيه عمر بن الخطاب . والموقف المحرج هو هل يقر الخليفة عثمان بن عفان هذا التصرف فيبيح دم المسلم ام لا يقره فيقتص من ابن امير المؤمنين المقتول ؟ ولا يجد عثمان خيرا من دفع دية من ماله الخاص حقنا للدماء :

ثم يحدثنا حديثا مستفيضا عن نظام الحكم في الدولة الاسلامية والذي أسماه «بالنظام العربي المبتكر» وهو لم يكن بحال من الاحوال «تيوقراطيا» ولا «ديمقراطيا» ولا «فرديا» ولا «ملكيا» او قيصريا . ..

كذلك يحدثنا عن اول فتنة في الاسلام وأول معارضة ، وعن مقتل عثمان رضي الله عنه ، ويقرر ان مقتل عثمان كان جريمة ، وكان فتنة كبرى بين المسلمين اختصم لها فريق وانتصر لها فريق ونتج عن هذه الخصومة ما لا يزال يفرق شمل المسلمين الى يومنا هذا .

وكانت هذه الفتنة الكبرى في رأي الدكتور طه حسين امرا لا مفر منه سواء أكان الخليفة عثمان او غير عثمان . لانها لم تكن مسألة عثمان رضي الله عنه ، وانما كانت مسألة العدل الاجتماعي بين الرعية التي يتولى الرعاة أمرها .

ان الجزء الاول من الفتنة الكبرى وهو الخاص بعثمان بن عفان ليس تاريخا لولاية عثمان او مقتله بقدر ما هو دراسة لنظام الحكم الاسلامي وعناصره وبيان لاستغلال النفوذ الذي حاربه الخليفة عمر ابن الخطاب . فهي اذن ليست صورة لفرد وانما هي صورة متكاملة للعوامل والتيارات التي كان يموج بها عصر الخليفة الشهيد . وهذا هو ما يعنيه الدكتور طه حسين من تطبيقه منهجه الاجتماعي في الكتابة الاسلامية .

ويعقب مقتل عثمان والمصحف بين يديه والثوار في داخل الدار وخارجها صورة رائعة .. والصورة لا تحفل كثيرا بعلي كرّم الله وجهه .

لا تحفل به كرجل الساعة .. وانما تهتم هذه الصورة بأمر المسلمين بعد هذه المحنة .

وكيف ان هؤلاء المسلمين يواجهون مشكلة الخلافة من ناحية، ومشكلة استقرار نظام الحكم من ناحية اخرى وهو حين يحدثنـــا عن هاتين المشكلتين يقول : «واجه المسلمون إثر قتل عثمان رحمه الله مشكلتين من اخطر ما عرض لهم من المشكلات منذ خلافة ابي بكر ، احداهما تتصل بالخلافة نفسها والثانية تتصل بإقرار نظام الحكم فقد امسى المسلمون يوم قتل عثمان وليس لهم إمام يدبر لهم امورهم ويحفظ عليهم نظامهم وينفذ فيهم سلطانهم ويقيم فيهم حدود الله ويرعى بعد هذا كله أمور هذه الدولة الضخمة التي اقامها ابو بكر وعمر ، وزادها عثمان سعـــة في الشرق والغرب . فهذه البلاد التي فتحت عليهم ولم يستقر فيها سلطانهم بعد ان كانت في حاجة الى من يضبط امرها ويحكم نظامها ويبعد حدودها التي لم تكن تثبت الا لتتغير لاتصال الفتح منذ نهض ابو بكر بالامر الى ان كانت الفتنة وشغل المسلمون بها او شغل فريق من المسلمين بها عن الفتوح» .

ولا شك ان مقتل عثمان بن عفان قد اعتبر صدعا في جسم الامـــة الاسلامية والمشكلة هي كيف يراب هذا الصدع بما يحقـــق للمسلمين وحدتهم واتفاق كلمتهم ؟ هذه هي المشكلة الحقة . وهي اول ما يقابل علي بن ابي طالب كرّم الله وجهه بعد توليه الخلافة حتى ان المسلمين لـــم يستقبلوا خلافة علي بمثل ما استقبلوا به خلافة عثمان من رضى النفوس وابتهاج القلوب واطمئنان الضمائر واتساع الامل وانبساط الرجاء وانما استقبلوا خلافته في كثير من الوجوم والقلق والاشفاق واضطراب النفوس واختلاط الامور ، لا لان عليا كرّم الله وجهه كان خليقا ان يثير فـــي نفوسهم وقلوبهم شيئا من هذا بل لان ظروف حياتهم قد اضطرتهم الى هذا كله اضطرارا .

وعميد الادب العربي يصور لنا موقف المسلمين غداة تولية علي بن ابي طالب الخلافة تصويرا جميلا مدعما بالاسباب المقنعة فيقول :

«ليس غريبا اذن ان يستقبل المسلمون خلافة علي ووجوههم عابســـة وقلوبهم خائفة ونفوسهم قلقة ، ويزيد في هذا العبوس والخوف والقلق ان الثائرين الذين قتلوا عثمان كانوا ما يزالون مقيمين بالمدينة متسلطين عليها ، حتى كان الخليفة الجديد ومن بايعه من المهاجرين والانصار لم يكونوا في ايديهم الا اسارى وآية ذلك ان الخليفة لم يستطع ان يمضي في

تحقيق ما أصاب عثمان وما اصاب المسلمين من كارثة الفتنة لانه لم يجد القدرة على هذا التحقيق وكان المسلمون من اهل المدينة يعرفون مكان العمال الذين امرهم عثمان على الامصار ، ويقدرون انهم جميعا او ان بعضهم على الاقل سينكرون الخلافة الجديدة ويجادلون الخليفة في سلطانه .. غضبا لعثمان الذي ولاهم ، وكانوا يخافون من هؤلاء العمال بنوع خاص معاوية بن ابي سفيان عامل عثمان على الشام» .

وتمر الاحداث حادة مثيرة ، فالخلافات مستمرة بين علي وخصومه وأولهم معاوية بن ابي سفيان ذلك الذي قدر الناس انه لن تستقيم بينهما الامور في يسر ولين وتكون النهاية الحزينة بمقتل رابع الخلفاء الراشدين كما قتل ثالثهم من قبل وتنتهي الخلافة الراشدة وتنتهي هذه الفتنة التي شبت نارها في المدينة سنة خمس وثلاثين بقتل عثمان بن عفان الى هذه المرحلة من مراحلها بعد ان اتصلت ثلاثين عاما وبعد ان اثارت من الخطوب الجسام وبعد أن سفك فيها ما سفك من الدماء وأزهق فيها ما ازهق من النفوس وانتهك فيها ما انتهك من الحرمات وقضي فيها على سنة الخلافة الراشدة ، وتفرق فيها المسلمون شيعا وأحزابا، وأسس فيها ملك عنيف لا يقوم على الدين وانما يقوم على السياسة والمنفعة ، وكان يظن حين استقام امر هذا الملك لمؤسسه عشرين عاما انه سيمضي في طريقه وادعا مطمئنا مستقرا في بني سفيان دهرا على أقل تقدير ولكنه لم يستقر فيه الا ريثما تحول عنه .

ثم لم يتحول عنهم في يسر ولين لان الفتنة لم تنقض بموت يزيد وانما قطعت مرحلة من مراحلها ثم استأنفت عنفها وشدتها بعد موت يزيد ، فعرضت المسلمين ودولتهم لخطوب ليست أقل جسامة من الخطوب التي حدثت قبل ذلك .

وقد أصبح للمسلمين مثل بعينه من هذه المثل العليا الكثيرة التي دعا اليها الاسلام وجعلت الفتنة تدور حول هذا المثل الاعلى لتبلغه فلا تظفر بشيء مما تريد . وانما تسفك الدماء وتزهق النفوس وتنتهك المحارم وتفسد على الناس امور دينهم ودنياهم وهذا المثل الاعلى هو العدل الذي يملأ الارض وينشر فيها السلام والعافية ، والذي تقطعه من اجله أعناق المسلمين قرونا متصلة دون ان يبلغوا منه شيئا حتى استيأس من قربه بعض الشيعة ولم يستيئسوا من وقوعه فاعتقدوا ان إماما من أئمتهم سيأتي في يوم من الايام يملأ الارض عدلا كما ملئت جورا .

الشيخان

منذ البداية وضح للدكتور طه حسين ان في الحديث عن الشيخين ((ابو بكر)) و ((عمر)) رضي الله عنهما لن يكون فيه جديد يسبق اليه ، فما اكثر ما كتب القدماء والمحدثون عنهما ، وما اكثر ما كتب المستشرقون منهما ايضا .

كذلك الدكتور طه حسين ، كتب عن الشيخين جريا وراء تفصيل تاريخ الفتوح في عصرهما ، ولا عن معجزة انتصار المسلمين على الروم وقضائهم على الفرس واقامة اكبر امبراطورية .. لم يقصد الى هذا ايضا. ان الذي يقصده الدكتور طه حسين في تقديمه للشيخين هو ان يعرف شخصية كل منهما كما تصورها الاحداث التي كانت في عصرهما .وكما يصورها هذا الطابع الذي طبعت به حياة المسلمين من بعدهما ، والذي كان له اعظم الاثر فيما خضعت له الامة العربية من اطوار وما نجم فيها من فتن .

والدكتور طه حسين يصور لنا شخصية ابي بكر كما تصورها الاحداث ويقدمه امام اعظم محنة تقابل انسان . وهل هناك محنة اكبر من ان يموت محمد صلى الله عليه وسلم ، ويكون ابو بكر هو المسؤول بعده صلى الله عليه وسلم عن امر المسلمين . لقد خرج ابو بكر من هذه المحنة دون ان تضطرب لها نفسه ودون أن يجد الضعف او الريب الى نفسه سبيلا ، وعرف كيف يرد الصادقين من المؤمنين الى انفسهم او يرد انفسهم اليهم . حين تلا عليهم هاتين الآيتين الكريمتين وهما قول الله عز وجل في سورة آل عمران :

((وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين)) .

وقوله سبحانه وتعالى في سورة الزمر :

((انك ميت وانهم ميتون)) .

فأي كارثة ومحنة يصادفها انسان بعد موت رسول الله واضطراب الاحوال بعده !! ولا أدل على ذلك من ان عمر رضي الله عنه شك في ذلك .. ولم يصدق بأن محمدا صلى الله عليه وسلم مات ، وان بقية الصادقين شكوا ايضا ، وأن من كان يعبد الله كفر . وارتد عن دين الله . كل هذا وابو بكر ثابت الجنان قوي الارادة فكيف استطاعت طبيعته

ان تثبت امام هذه الكارثة ؟

ويجيبنا الدكتور طه حسين في كتابه «الشيخان» ، بقوله : « لا جواب على هذه الاسئلة الا ما ذكرته آنفا من انه كان الصديق ، فهو اول من اسلم من الرجال ، وكان اسلامه صفوا خالصا قوامه التصديق العميق والايمان الخالص من كل شائبة والاطمئنان الصادق السمح الى كل ما يحدث به النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم ايثاره النبي على نفسه في كل موطن ثم البلاء الحسن كلما جد الجد واحتاج النبي او المسلمون الى هذا البلاء ..» ..

ويحدثنا الدكتور طه حسين عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيقدمه لنا في اسلامه وكيف ان هذا الاسلام كان كسب للمسلمين ، ويقدمه لنا في جاهليته وكم كان النبي صلى الله عليه وسلم يتمنى ان يدخل الى حظيرة الاسلام احد العمرين: عمر بن الخطاب او عمر بن هشام، ويقدمه لنا في جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف ابلى بلاء حسنا ، ثم يقدمه لنا يوم مات ابو بكر وتولى الخلافة من بعده ومواجهته لاولى المشكلات وهي مشكلة الفتوحات . ويقدمه لنا في عدله وفي ايمانه ثم مقتله على يد هذا الاعجمي .

ويرسم لنا الدكتور طه حسين صورة للخليفة عمر بن الخطاب فيقول: «لم يعرف المسلمون خليفة او ملكا بعد عمر جعل بيت المال ملكا للمسلمين ينفق منه على الجيوش المحاربة ، ويعين منه من احتاج الى المعونة ويوفر ما يبقى منه ليشيعه بين المسلمين ، رجالهم ونساءهم وأطفالهم ، يأخذون منه أعطياتهم في كل عام ، تسعى اليهم هذه الاعطيات دون ان يتكلفوا مشقة في طلبها سواء في ذلك منهم القريب او البعيد . وقد رأيت انه كان يحمل بنفسه المال الى البادية الغربية من المدينة فيعطيه للناس في أيديهم وقد رايت كذلك انه في عام الرمادة كان يحمل الطعام على ظهره ويسعى به الى الاعراب النازلين حول المدينة وربما طبخه لهم بنفسه ، ولم يعرف المسلمون ملكا او خليفة بعده .. عني بحماية الذميين والرفق بهم في امرهم كله كما عني بهم عمر .

ثم لم يعرف المسلمون خليفة او ملكا بعده .. عني بأمر الدين واقامة الحدود وتأديب الناس في الصغير والكبير من أعمالهم وعلم المسلمين دينهم رفيقا بهم حريصا على أن تستقيم لهم امور دنياهم وعلى أن يجنبهم ما يؤخذون به في آخرتهم ما استطاع الى ذلك سبيلا فعل هذا كله حتى بلغ منه ما لم يبلغ الخلفاء والملوك في الاسلام وفي الارض التي

لم تسلم فلسنا نعرف اليوم بلدا يوفر فيه الرزق على الناس من بيت المال او من خزائن الدولة دون ان يمنعهم ذلك من العمل لانفسهم وللناس ، ومن التزيد في الكسب والتوسع في الغنى ..» .

والدكتور طه حسين في تقديمه للشيخين شاء ان يقدم للقراء شيئا جديدا لم يسبقه اليه احد وهو بيان الجوانب والميزات لهاتين الشخصيتين كما تصور سيرتهما والاحداث التي وقعت في ايامهما ويجلو لنا ايضا الاسلوب الذي اتبعه كل من الخليفتين في سياسة الحكم وتدبير شؤون الدولة واقامة العدل والمساواة والحرية الامر الذي يجعل هناك صعوبة لمن يجيء بعدهما في الخلافة ، ثم يستخلص من هذا الاسلوب معالم شخصيته كل منهما على ما رأينا واضحة قوية تدعو الى الاعجاب .

مرآة الاسلام

وفي كتابه «مرآة الاسلام» يقدم لنا صورة اخرى مؤداها ان الاسلام كان ولا يزال دين الحنيفة السمحة والفطرة السليمة ، اتى به الرسول الكريم من عند الله عز وجل ليخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحكيم . ولقد بهر العربي ما يشيع في هذا الدين من روح العدالة والتسامح وما يمتاز به من بساطة المنطق السليم وروعة الحق الواضح ، وما يفسر به الحوادث والامور الكونية من صدق ووضوح ثم ما يرشد به الناس فيما يتعلق بحياتهم وطرق معيشتهم من هدي وعلم وما يصنع بهذه الامور من ملوك تبعث في النفس الرضى وتدفعها الى العمل المنتج . هذا هو مصدر عظمة الاسلام وسر ما يكمن فيه من قوة .

ولهذا الدين أصول . وأولى هذه الاصول القرآن والثاني الحديث . وهناك علاقة بين الاصلين يمكن أن تحدد في هذه العبارة التي يقولها الدكتور طه حسين في كتابه «مرآة الاسلام» وهي أن القرآن يذكر الركوع والسجود ولكنه لا يحدد الركوع والسجود في القرآن تحديدا دقيقا فليس بد للنبي من بيان ذلك كله بالعمل والقول جميعا ، فهو يقيم الصلاة للمسلمين ويأمرهم ان يصنعوا صنيعه وان يقوموا حين يقوم ويركعوا ويسجدوا ويجلسوا حين يركع ويسجد ويجلس . وهو علمهم ما يقرأون في صلاتهم وما يقولون في السجون والركوع والجلوس وقل مثل

ذلك في مجملات القرآن كلها ، وهي كثيرة. وكان النبي اذن مفسرا للقرآن بقوله وعمله وكان منبئا للناس بما يلقي الله في قلبه من العلم بما ينبغي لهم وما يجب عليهم وما يجب أن ينتهوا عنه» .

وعلى هذا الاساس الذي وضعه الدكتور طه حسين وجبت دراسة القرآن والسنّة على اعتبار انهما مصدران من مصادر الدين الاسلامي .

والكتاب يحدثنا عن القرآن وإعجازه وعن ان القرآن كلام لم تسمع العرب مثله قبل ان يتلوه النبي فهو في صورته ليس شعرا لانه لم يجر في الاوزان والقوافي والخيال على ما جرى عليه الشعر ، انه يتحـدث الى الناس عن أشياء لم يتحدث اليهم بها احد من قبله . يتحدث عـن التوحيد فيحمده ، وعن الشكر فيقدسه ، ويتحدث عن الله فيعظمـه ويصف قدرته التي لا حد لها وعلمه الذي لا غاية له وإرادته التي لا ترد وخلقه للسموات والارض وما فيهن من يسير الاشيـاء وخطرها ، ويدعو الناس الى عبادة الله الواحد القهار .

والاصل الثاني هو السنة وهي كل ما ثبت من سنّة محمد صلى الله عليه وسلم قولا وعملا يعتبر خلاصة تبشيره وإنذاره وشهادته ودعوتـه الى الله .

والدكتور طه حسين يوضح الفرق بين أحكام القرآن وأحكام السنّة فلكل قواعده وتشريعاته . على ان القرآن في نصه باق على الدهر لا يضره ان يختلف المسلمون في فهم نصوصه او في تأويلها ، وأما الحديث فكان اصحاب النبي يتشددون في رواية الحديث عن النبي بل كانوا لا يقبلون حديثا عن النبي الا بعد ان يشهد اثنان من المسلمين بانهمـا سمعاه او شاهداه .

الوعد الحق

ويحدثنا الدكتور طه حسين عن بعض المتقدمين في الاسلام .. مـن هذه الصفوة الممتازة التي قامت على أكتافها الدعوة الاسلامية ، وهؤلاء المستضعفون في الارض الذين جاء الاسلام فنفخ فيهم من روحه وأشعرهم بكيانهم الانساني الكريم الذي لا يتأثر ببياض وجه او سواده ، ولا يخضع لنظام جائر.. الاسلام الذي وعد بان يقيم السدود بين الاحرار والعبيد .. نعم العبيد الذين علمهم الاسلام معنى الحرية ومعنى الكرامة الانسانيـة فلم يفرق بين الناس لشرف مولد ولا جاه منبت وانما ميز بين النفوس بما

قدمت من خير او عملت من شر ، ومن هؤلاء الرجال الذين وعدهم الله ذلك الوعد الحق «عمّار بن ياسر» و«بلال بن رباح» و«صهيب بن سنان».

وفي هذا الكتاب يقدم الدكتور طه حسين تحليلا لهذه الشخصيات ، وجهادهم في سبيل اقامة دعائم الحق ، واعمالهم من اجل نشر الدعوة .. واتصالهم بالرسول وبالخلفاء الراشدين من بعده ، وعدائهم للاسلام في أعوامه الاولى . فضلا عن جوانب كثيرة من أخلاقهم وعلاقاتهم بالآخرين ومواقع كل واحد منهم وهل هو حقا في مكانه السليم ام لا .

والكتاب يعرض لنا بشيء من الاعتزاز كيف ان الاسلام يقدر رجاله.. يتساوى في هذا التقدير العربي وغير العربي .. لا فرق بين هذا وذاك الا بالتقوى .

فها هو صهيب الرومي يصبح اماما للمسلمين يصلّي وراءه الجميع ممن كانوا أرقاء وسادة قدماء بعد أن سوّى الاسلام بين الجميع .

ويصبح عبد الله بن مسعود اميرا لبيت مال المسلمين في الكوفة .

ويخرج بلال الى الجهاد في عهد أبي بكر ويقيم في دمشق حتى يلقى ربه .

ويصبح عمار بن ياسر اميرا للكوفة ، ثم يعود الى المدينة حتى تقتله الفئة الباغية .

الفصل الثالث

اسلاميات .. احمد امين

حين اختــــار احمـــد أمين لإسلامياته.. دراسة الحياة العقلية في الاسلام .. كان يعلم مقدما انه سوف يكتب للنـــــاس فلسفة ، فالنظرة بالعقل الى العقل هـــي الفلسفة بعينها .

لكن اسلامياتـــه حين انتشرت اثبتت ان الفكرة العميقة لا يتعين أن تكون ملفوفة في رداء مـــن الغموض، وان دقة التفكير تتعارض مع رفاهة النفس وعمق الشعور .

اسلاميات احمد امين

في تقديمه للجزء الاول من كتاب «ضحى الاسلام» قال الدكتور احمد امين (لعل أصعب ما يواجهه الباحث في تاريخ امة هو تاريخ غفلها في نشوئه وارتقائه ، وتاريخ عينها وما دخله من آراء ومذاهب ، ذلك ان مدار البحث في المسائل المادية وما يشبهها واضح محدود وما يطرأ عليها من تغيير ظاهر جلي . اما الفكرة اذا حاولت أن تعرف كيف نبتت ، وكيف نمت وما العوامل في ايجادها ، وما العناصر التي غذتها وما الطوارىء التي طرأت عليها فعدلتها او صقلتها أعياك ذلك ، وبلغ منك في استخراجه الجهد ..) .

بهذه الكلمات السريعة يحدد لنا أحمد أمين منهجه في دراسة الحياة العقلية عند المسلمين منذ نشأتها حتى القرن الرابع الهجري وهو الجانب الذي اختاره للدراسة .

وعلى هذا فالدكتور احمد أمين يحلل بعقله العقلية الاسلامية في نشوئها وتطورها .

وهذا التحليل اقتضى منه الرجوع الى العوامل الدينية المستمدة من الاسلام ، والعناصر الدخيلة على المسلمين من الحضارة الفارسية والهندية ، ومن الفلسفة اليونانية وكيف تفاعلت هذه العوامل كلها في بوتقة واحدة .. هي الحضارة الاسلامية .

أساس الفكرة اذن عند أحمد أمين هي أن الشرق يمتاز بظاهرة قوية اثرت تأثيرا قويا في حياته ، وصبغت تفكيره بصبغة غلبت على جميع

انظمته .. ذلك هو الاسلام الذي انتشر من أقصى الشرق في الهند الى اقصى الغرب في الاندلس ، فاذا شئنا أن نعرف ما كان لنا ، وما ينبغي لنا ان يكون .. فعلينا أن نرجع الى تلك الاصول الاسلامية لنتبين الاسس التي قامت عليها والعوامل التي أدت الى قيامها .

ولما تيسرت للدكتور احمد أمين هذه المادة الاسلامية التزم في بحثها بثلاثة ابواب كان يفصلها عندما يتناول هذه المادة وما وراءها من عقلية ، وهذه الابواب الثلاثة هي : الناحية الاجتماعية ، ثم العلمية ، ثم الدينية.

والقارىء لكتب أحمد أمين في الاسلام لا يجد عناء في البحث عن هذه الابواب الثلاثة ممتزجة في كل جزء من اجزاء إسلامياته .

فاذا شئنا ان نعرف العقلية — على طريقة أحمد أمين — فلا بد أن نعرف تاج هذه العقلية وهو الدين وأدواتها التي تبرز بها وتحقق وهي العلوم المختلفة ، وحياتها وروحها وهي المراكز الاجتماعية التي نمت فيها وترعرعت .

وبمعنى آخر فان العقلية الاسلامية في نظر أحمد أمين أشبه ما تكون بالنهر الجاري المتدفق .. الحياة الاجتماعية روافده ، والحركة العلمية مجراه ، والدين مصبه وغايته . وتجد تطبيق هذه الفكرة بوضوح في «فجر الاسلام» ، ومفصلة في «ضحى الاسلام» ، وأشد تفصيلا في «ظهر الاسلام» .

وعلى هذا النحو يكشف لنا أحمد أمين الحياة العقلية في الاسلام من جميع أنحائها ، ويفتح للباحث ابوابها على مصاريعها كي يغدو ويروح الى كنوزها التي كانت تتوارى عن الانظار بل التي كانت تمتنع عليه اقتناعا . وكل ذلك بفضل ملكاته العقلية التي ائتلفت منها شخصيته العلمية بخصالها الفذة . وأولى هذه الخصال تعمقه للثقافة القديمة والحديثة تعمقا أتاح له كلما درس فكرة اتقنها فهما وفقها ونقدا دقيقا ، وكأنه لا يريد ان يترك فيها بقية .

وخصلة ثانية هي خصلة التعميم والتنظيم فقد كانت لديه قدرة غريبة على استخلاص الافكار الكلية التي تجمع الجزء الى الجزء وتضم العنصر الى العنصر فاذا الكل يستوي قائما ، واذا الفكرة تتمثل واضحة . وهو لذلك دائم التحول من الجزئيات الى الكليات . ولا يزال يلائم بين ما يصل اليه من الكليات في الموضوع الواحد حتى يتكون له فصل ، وما يزال يلائم بين الفصول حتى يتكون له باب ، وما يزال يلائم بين الابواب حتى يتكون له كتاب . ومن ثم يبدو التناسق واضحا فيما يؤلفه . اذ

يحسن تصنيف الافكار كما يحسن ترتيب الفصول والموضوعات ترتيبا دقيقا بحيث يعمها الاستواء .والتناسق فلا نشاز ولا اضطراب ولا طغيان لفصل على فصل او لفكرة على فكرة مع الوضوح التام ، ومع ضرب من المنطق الحاد الذي يشفع بالقدرة على التعليل ، وهي قدرة بدأها في الازهر والقضاء الشرعي ونماها في الجامعة وعلى ضوء ثقافته الحديثة.

وخصلة ثالثة هي خصلة الحرية العقلية فهو يجهر بالحق في صراحة وبدون مواربة وبدون اي تكلف ، يجهر به في كل ما يمس الحياة دنيا ودينا . ومن خير ما يصور ذلك عنده موقفه من المعتزلة . فقد كان ينصرهم دائما ويشيد بهم دائما ، ولكن ذلك لم يستتر عنه معايبهم ، فمضى يشرحها شرحا واسعا ، شرح العالم المستبصر ، بل شرح العالم الحر الفكر الذي لا يحفل الا بالحق وحده فهو يعيش له ويعيش به ويعلنه اعلانا صريحا لا غموض فيه ولا خفاء. وكذلك كان شأنه مع الشيعة. فقد اجهد نفسه في تصوير عقيدتهم بكتابه «فجر الاسلام» وراحوا يعلنون عليه حربا شعواء ولكن هذه الحرب لم تصرفه في كتابه الجديد «ضحى الاسلام» عن آرائه القديمة ، بل لقد مضى يثبتها ويثبت معها نقدا جريئا اذ إعتقد انه حينما يقول الحق ، لا يخشى فيه لومة لائم .

وثمة خصلة اخرى تتصل بهذه الخصلة ، هي عدالته في الحكم على الاشخاص والآراء عدالة ملؤها النزاهة ، وهي عدالة اكتسبها نظريا في مدرسة القضاء الشرعي وفي اثناء درسه للإخلاق ، وعمليا حين اشتغل قاضيا ، وتولى الحكم في القضايا الشخصية ، ونحن لا نقرؤه في «ضحى الاسلام» وفي غيره من مصنفاته حتى نحس كأنما نصب بين يديه موازين عادلة لا تحيد يمينا ولا شمالا بتأثير هوى او عصبية ، وهي موازين شديدة الحساسية ، تزن كل راي مهما دق وكل فكرة مهما صغرت ، وهي لذلك تتيح له سلامة الحكم وصواب النقد ، فأحكامه ونقده جميعا لا تشوبهما شائبة من ضعف أو عوج او نقص بل هو دائما رائده التحري والدقة والاحتياط والإنصاف والاعتدال الى أقصى حدود الاعتدال . .

وخصلة خامسة في أحمد أمين تضم الى الخصال السابقة ، هي الطموح الى تحقيق المثل الاعلى في البحث والدراسة ، وهي خصلة دفعته دفعا الى كفاح علمي عنيف استهله بتثقيف نفسه ثقافة عميقة بالمعرفة القديمة والحديثة والفقه بمناهج القدماء والمحدثين جميعا . ثم مضى ينفق ايامه في دراسة الحياة العقلية الاسلامية باذلا كل ما يملك من قوة وجهد متذرعا بكل ما يستطيع من صبر وجلد ، محتملا من ضروب

المشقات ما تنوء به العصبة او اولو القوة . اذ كان الطريق العلمي الى تلك الحياة مليئا بالعقبات والصعاب ، فما زال يقهر كل عقبة ويذلل كـل صعوبة ، حتى استقام له الطريق ممهدا واضح المعالم .

وبهذه الخصال جميعا استطاع احمد امين ان يقدم كتبه في الاسلام على كل من يعنون بدراسة الفكر العربي الاسلامي في قرونه الاربعة الاولى سواء في بيئات العرب او بيئات المستشرقين وان يملأ قلوبهم اعجابا به اذ جلا ذخائر هذا الفكر وكنوزه تجلية دقيقة ، تجلية تشهد له بالبصيرة النافذة والاداة العلمية الكاملة في جمع المواد واستقصائهـا واستخلاص معانيها ، مع طول النظر ودوام التنقيب ، فضلا عن التحليل الدقيـق والنقد النزيه .

***

بهذه الروح العلمية كتب احمد امين كتبه في الاسلام وهي : «فجر الاسلام» و «ضحى الاسلام» في ثلاثة أجزاء و «ظهر الاسلام» في أربعة اجزاء و «يوم الاسلام» و «الفتوة والصعلكـة في الاسلام» و «هارون الرشيد» واصبحت من المصادر الاساسية التي لا يستطيـع اي باحث الاستغناء عنها وخاصة فيما يختص بالحياة العقلية او الفكرية في الاسلام.

والآن وبعد أن تعرضنا لمنهج احمد امين في البحث الاسلامي يحسن بنا المرور ولو سريعا على ما كتبه .

فجر الاسلام

يحدثنا الدكتور احمد امين في كتابه «حياتي» عن تجربته في اول كتاب في اسلامياته وهو في نفس الوقت اول كتاب صدر بعد الاتفاق على اعادة كتابة التاريخ الاسلامي وبعد ان يذكر اتفاقه مع الدكتور طه حسين والاستاذ عبد الحميد العبادي على دراسة الحياة الاسلامية من نواحيهـا الثلاث يقول : «فأخذت احضر الجزء الاول الـذي سمي بعد ذلـك — فجر الاسلام — وصفت فيه ما يقرب من سنتين فرسمت منهجـه ورتبت موضوعاته ، وكنت اذا وصلت الى موضوع أجمع مظانه فـي الكتب ، واقرأ فيها ما كتب عن الموضوع وامعن النظر ، ثم اكتبه مستدلا

بالنصوص التي عثرت عليها حتىّ افرغ منه وانتقل الى الموضوع الـذي بعده وهكذا . وكانت اكثر الاوقات فائدة الاجازة الطويلة التي تبلغ اكثر من خمسة اشهر ، اذ كنت اجمع الكتب التي يظن انها تبحث في الموضوع واحملها على دفعتين او ثلاث الى مائدة وضعتها في حديقتي خلف بيتي في مصر الجديدة وأبدأ العمل في الساعة الثامنة صباحا وأجلس علـى كرسي امام الكتب اقلبها وأستخرج نصوصها واستخلص من كل ذلك ما اكتبه الى ما بعد الساعة الواحدة في جلسة واحدة انسى فيها نفسـي وانسى كل شيء حولي ، وهكذا افعل في ايام العمل التي لا يكون فيها دروسي في الجامعة حتى ينتهي الجزء ، وقد تم هذا الجزء الاول مـن «فجر الاسلام» في آخر عام ١٩٢٨ ، ولقد لقيت من حسن استقبـال الناس لهذا الجزء ، وتقديرهم له واهتمامهم به نقدا وتقريظا ما شجعني على المضي في هذه السلسلة» .

بهذا الاسلوب من العمل الجـاد المضني كتب **احمد امين** كتابـه **«فجر الاسلام»** الذي يعتبر نقطة البداية فيمشروع كتابة الحياة الاسلامية وقد قصدت ان انقل تجربة المؤلف بلسانه حين كان يقوم بكتابة هذا العمل العظيم . وقد حدثنا الدكتور طه حسين عن هذا العمل بالذات وعـن صاحبه وعن المجهود الشاق الذيّ بذل في تاليفه فقال وكأنه يعترف بما لهذا المفكر العظيم من دور في بناء هذا المشروع :

«اشهد بأن زميلي — احمد امين — قد ينهض بهذا العبء في درس الحياة العقلية العربية كأحسن ما ينهض الرجل ذو الضمير العلمي الحـي بعبء من الاعباء ...» .

وكتاب «فجر الاسلام» يتناول مرحلة العصر الاسلامي الاول وفيـه تذليل لكل ما يعترض الباحث في التاريخ الإسلامي من صعاب تصـور الجوانب المختلفة للحياة العقلية في عصر صدر الاسلام والعصر الامـوي سواء الدينية او العلمية او الاجتماعية وهو نفس الاسلوب الذي اخـذ احمد امين نفسه به في دراسة الاسلاميات .

والحق ان الدكتور طه حسين قد لخص اسلوب الدكتور احمد امين في تقديمه لكتاب «فجر الاسلام» بقوله :

«اخذ احمد امين نفسه بمناهج البحث في درس الحياة العقلية للأمة العربية ابان القرن الاول للهجرة فانتهى الى نتيجتين كلتاهما قيمة حقا : الاولى انه اظهر هذه الحياة كما كانت معقدة ملتوية ولكنها قوية اشد قوة ممكنة ، خصبة اشد خصب ممكن ، بعيدة كل البعد عما يظن الناس من

هذه السذاجة الفليظة الجافة ، والثانية انه وصل بين الثقافة الادبية والفلسفة وصلا لن يتعرض منذ الان لضعف او وهن .. فقد استطاع احمد امين أن يضع أيدينا على هذه الآثار القوية الخالدة التي يتركها الدين والفلسفة في الادب ، وأصبح كتابه وسيلة قيمة الى أن تصل الحياة الدينية الاسلامية في وضوح وجلاء الى نفوس الذين يدرسون الادب العربي في الجامعة أو في غيرها من معاهد العلم العالي» .

وبعد ان تعرفنا على الظروف التي كتب فيها الكتاب ومنهجه يجدر بنا الان ان نتعرف على الجوانب التي اهتم بها الكتاب وهي ثلاثة :

١ أثر الفرس في العرب فقد اوضحه احمد امين توضيحا كبيرا . فبعد ان يقدم هذه الامبراطورية ذات الحضارة التي استطاعت ان تقف امام الاسكندر الاكبر وكان لها دياناتها الخاصة وتعرف قبل ان يدخلها الاسلام بالديانة الزرادشتية» .. بعد كل هذا يبين لنا احمد امين التاثير الديني في حياة العرب الجديدة وكيف بدا منعكسا فاذا الفارسيون انفسهم قد اندمجوا في صميم الحياة العربية ولكنه انعكاس ظاهري ظل مقصورا على السياسة والحالة الاجتماعية . واما اعتقادهم الديني فقد بقي كامنا في نفوسهم وقد حملوه الى دنيا الاسلام في ضمائرهم ولم يتنازلوا عنه في سرهم ، ويذكر احمد امين ان هذا الشعور ظهر بصورة مقنعة في نزعاتهم الشعوبية اذ كانوا يجدون المسلمين قد اخذوا بلادهم عنوة واصبح عامل من عمال المسلمين يدير هذه البلاد على انهم — الفرس — حين ذابوا في المجتمع العربي استطاعوا ان يلونوه ويؤثروا فيه .

كذلك يذكر احمد امين ان الفرق الشيعية التي لها تاريخها في الاسلام كانت معتقداتها في الاصل فارسية . وللفرس غير هذا الاثر العقائدي على العرب اثر في الادب العربي . وساق امثلة من الشعراء والادباء من ذوي الاصول الفارسية وقد قالوا الشعر وشاركوا في الادب بعقول فارسية والسنة عربية .

الاثر الثاني بعد الفرس الذي يذكره احمد امين في كتابه هو اثر الخوارج . فهم أصحاب الفكرة الاولى في نقد الخلافة والجدارة بها . وقد كان الخوارج من اجل آرائهم السياسية الحرة أشد المخاطر ، حتى سالت على آرائهم دماؤهم وقد ميزهم الاعتقاد الجازم والعبادة الخالصة وتقديس النبي الكريم ، ولكنهم لم يتورعوا عن أن يسفكوا دماء بعض الصحابة اذا وجدوهم مخالفين لآرائهم ، وكان الحجاج العقائدي ديدنهم قبل ان يرفعوا السيوف .

والحق ان احمد أمين كان موضوعيا حين عرض لهؤلاء الخوارج في كتابه . فلم يكل لهم المديح والاعجاب ، كما انه لم ينقص من قدرهم شان غيره من الكتاب الذين كانوا دائما يلعنونهم .

وأثر الخوارج في العقلية الاسلامية وجده احمد امين في الجدل السياسي بتقديم خليفة على آخر ، ورأى ان مرد ذلك هو يوم التحكيم حين رفضوا الحكومة وقالوا لا حكم الا لله ، بعد أن رأوا فريقا مخالفا لهم — وهم اصحاب معاوية وعمرو بن العاص — قد رفعوا المصاحف على رؤوس الرماح رمزا لتحكيم كتاب الله في القتال ، وقد وقعت اذ ذاك الخديعة الكبرى حين اقترح عمرو بن العاص تنحية علي ، وسعى لتنصيب معاوية بن أبي سفيان خليفة واميرا للمؤمنين ، فنشب قتال من اجل ذلك بين العرب في مستهل عهدهم بالاسلام ، وكانت تلك هي الحرب الاهلية الاولى ، وعاش بعدها الخوارج مطاردين حتى ضاعت فلولهم في العصور العباسية .

.. الاثر الثالث كما يرى احمد امين في كتابه هذا كان للمعتزلة .. وهو حين يتكلم عنهم لا يبين الاسباب الاولى التي نشأ عليها تفكيرهم وإيثارهم للعقل المحض . وفي راي احمد امين انه لولا الخوارج لما كانت المعتزلة . فالخوارج كما عرفنا كان اسلوبهم الصراحة . وهم الذين قالوا لعلي بن ابي طالب : «اخطأت ، ومن اخطأ من ائمة المسلمين وجب رجوعه الى الصواب ، واذا لم يرجع وجب حربه وزجره ولو آل الامر الى قتله» وكل هذا يوضح عقليتهم حتى يمكن فهم المعتزلة بعد ذلك .

واحمد امين حين عرض لنمط تفكير المعتزلة في كتابه هذا وخاصة في الجدل حول القضاء والقدر انما اراد الكلام عن طبائع الفكر والاعتقاد عندهم ومن حلقات المعتزلة خرجت افكار الجبر والاختيار ودارت عليها عقول اهل الكلام سنين طوالا ولم يستطع فريق ان يقنع الفريق الآخر او ينتهي الى نتيجة حاسمة حتى يئست منهم الهيئة الاجتماعية العربية والاسلامية .

ويرى احمد امين ان هذه الحلقات الخاصة والعامة التي كان يدور فيها الجدل الديني والسياسي هي التي رمت على العصور العباسية كلها قوة الفكر والحجج وطبائع الجدل والكلام ، وهذه هي الظواهر الفكرية التي جعلت للأمة العربية وجودا فكريا ، فحركت المبادىء الاولى عن أمكنتها التي كانت لا تريم عنها الى مجال واسع وآفاق بعيدة ، انبسط فيهما الفكر العربي ، والراي الاسلامي واتخذ له حياة جديدة

ذات صيغة خاصة دون ان يكون فارسيا او غير ذلك .

هذه تقريبا هي الجوانب الاساسية التي يقوم عليها الكتاب الاول في الاسلاميات ويعني به كتاب «فجر الاسلام» الذي تجعلنا قراءته نزداد يقينا بما قاله الدكتور طه حسين في تقديمه ، وبأن صاحبه يتصرف في المسائل الادبية والفلسفية واللغوية بعقل يعرف كيف ينتقل من قضية الى قضية ، ومن مقدمة الى نتيجة ، وكيف يضع الاشياء بعد ذلك كله في نصابها معتدلا احسن الاعتدال لا يعرف التهويل او التهوين اليه سبيلا .

ضحى الاسلام

هذا الكتاب يتناول بالبحث العصر العباسي الاول وهو عصر اتسم بالتقدم والحضارة . لذلك وضع احمد امين عنوانا له هو «ضحى الاسلام» ولهذا العنوان دلالته بالطبع فقد كان العصر الاموي وما قبله من عهد الخلفاء الراشدين يعتبر «فجرا» لانبثاق نور الظلام ، ثم اشرقت بعد ذلك شمس النهار الاسلامي في «الضحى» متمثلة فيما احرزه العرب من تقدم وحضارة .

واحمد امين يحدثنا في كتابه «**حياتي**» عن تجربته مع هذا الكتاب الذي نال اعجاب واستحسان الكثيرين فيقول : «استمررت في اخراج «ضحى الاسلام» في ثلاثة اجزاء وترقيت في منهج التأليف في «ضحى الاسلام» فقد رتبت موضوعاته التي تستغرق ثلاثة اجزاء واحضرت ملفات كتبت على كل ملف اسم الموضوع . ملف عليه اسم المعتزلة وآخر هو الخوارج ، وثالث اثر الجواري في الادب ، ورابع الثقافة الهندية .. ثم احضرت امهات الكتب التي تبحث في هذه الموضوعات كالاغاني والحيوان للجاحظ وكتب ابن قتيبة ورسائل الجاحظ وكتب ابن المقفع ونحو ذلك أقرؤها كلها ..» .

ويستمر احمد امين ثماني سنوات في تأليف هذا الكتاب الذي خرج في ثلاثة اجزاء ..

يبحث الجزء الاول منها الحياتين الاجتماعية والثقافية ، ولم يكد يترك ظاهرة من وظاهر الحياة الاولى الا جلاها كاروع ما تكون التجلية . وقد بدأ بسكان الدولة الاسلامية فتحدث عن اجناسهم واختلافهم في الخصال والاهواء ، وانصهارهم بعضهم في بعض مما اتاح توليد عقل

واسع . ومن ثمة تحدث عن الامتزاج بين العرب والموالي دما وعقيدة وفكرا ، وما نشب بينهما من صراع أدى في بعض الجوانب الى ظهور نزعة الشعوبية وما خلفته من آثار مختلفة في الحياتين العقلية والادبية ، ودعاه ذلك الى ان يتحدث عن الرقيق واثره في الثقافة وفي الشعر وفي الغناء . وما كان للجواري في هذا العصر العباسي الاول من عمل واسع، واخذ ينظر في حياة الخلفاء العباسيين وحياة الناس وماذا كانوا يلبسون ويطعمون وما توزع حياتهم من ترف مادي ومن فقر وبؤس او بعبارة اخرى من لهو وبؤس حتى اذا فرغ من تصوير الحياة الاجتماعية وظواهرها المختلفة المادية والمعنوية انتقل يصور الحياة الثقافية بكل جداولها الاجنبية والعربية كاشفا عما اخذه العرب من الفرس والهند واليونان وكيف اخذوه ترجمة او شفاها ، وكيف ساغوه وتمثلوه واذاعوه في حياتهم العلمية والادبية واللغوية ، واهم من نهضوا بهذا الصنيع وهو في كل ذلك يستنطق الكتب والنصوص ويقف طويلا عند الثقافة الدينية وما سقط الى المسلمين من اهل الكتب السماوية كما يقف عند الاسلام وانتشاره ونشوء فرقة المتكلمين فيه ، ومدى تأثير الفلسفة في نظرهم وجدالهم الديني بخاصة ، وفي تنظيم العالم العربي بعامة ، وكيف يسيطر الاسلام على حياة المسلمين الاجتماعية .

ويمضي الى الجزء الثاني فيصف الحركة العلمية في العصر العباسي الاول مستهلا حديثه بقوانين الرقي للعقل البشري نافذا الى تطبيقها على العقل العربي ، ويتحول الى قوانين العلم وتطوره متجليا لها في العالم العربي الذي انقسمت شجرته الى فروع نقلية واخرى عقلية لكل منهما منهجه الخاص في البحث والتاليف . فبينما تعتمد الاولى على الرواية وصحة السند تعتمد الثانية على معقولية الحقائق وامتحانها . ويقف عند اتساع صناعة الورق واثرها في تدوين العلم واثر الخلفاء العباسيين واثرهم في العلوم المتصلة بالسياسة وشؤون الدولة ، وينتقل الى معاهد العلم ومجالسه ودور الكتب ومناهج التعليم ويصور كل ذلك تصويرا دقيقا كما يصور مراكز الحياة العقلية في الحجاز والعراق ومصر .

وينتقل الى الجزء الثالث الخاص بالفرق الدينية وهو يستهله بالحديث عن نشأة علم الكلام واسبابها ، ويقف عند منهج القرآن ومنهج المتكلمين ومنهج الفلاسفة في الالهيات وتقرير الحقائق وما بين المنهجين من خلافات ويتحدث عن المعتزلة وتعاليمهم التي اقاموها على خمسة أسس واصول هي :

«القول بالوعد والوعيد ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ووضع الفاسق في منزلة وسطى بين منزلتي المؤمن والكافر ، والقول بالتوحيد وما يتصل بذلك من تنزيه الذات العلية عن التجسيم والايمان بان القرآن مخلوق ، ثم القول بالعدل وما يتصل بذلك من وجوب العدل على الله ومن ان الانسان حر الارادة» .

ونراه يشيد بمذهب المعتزلة لاعلائهم شأن العقل وتحكيمه في النقل ولأخذهم بقانون حرية الارادة ، بل حرية الراي العامة حتى في الدين وفي فهم القرآن الكريم . ومع هذه الاشادة ينقدهم نقدا منصفا اذ توسعوا في قياس الله على الانسان ، وفي تحويل الدين الى مجموعة من القضايا العقلية غير حاسبين حساب الشعور وحرارة العاطفة . وبذلك أضعفوا الروح وغالوا في تقدير العقل ، كما غالوا في مبدأ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لو اقتضى الامر استخدام السيف ، وهو مبدأ خطر ، انه يجعل في الامة حكومة داخل حكومة ويهدد الحرية العامة في الـــراي والعقيدة وهو ما حدث فعلا حين دفع المعتزلة المأمون والمعتصم والواثق لمحاكمة من خالفوهم في القول ، بخلق القرآن ، وجعلوا البلاد كلهـــا موضوع هذه المحاكمة الظالمة ، وعذبوا فيها الناس . وكان حريا بهم وهم الداعون الى حرية الفكر والخضوع الى سلطان العقل أن يتسامحوا مـــع مخالفيهم في العقيدة ما دام رأيهم يضر بمصلحة عامة . وقـــد مضى الدكتور احمد أمين يتحدث عن تاريخ الاعتزال واشهر رجاله في البصرة وبغداد كما تحدث بالتفصيل عن محنة خلق القرآن وتاريخها السياسي ونتائجها على المعتزلة مما أدى الى افول نجمهم وبزوغ نجم المحدثين .

ويتحدث الدكتور احمد امين عن الشيعة فيسهب في الحديث عن فرقهم وائمتهم واسس عقائدهم في الإمامة والتشريع واصـــول الدين ، وهو في كل ذلك يحلل وينقد لا يخشى لومة لائم . فقد نصب نفسه للحق والدفاع عنه . ويعرض لخصومتهم مع العباسيين ويعنـــف بالطرفين جميعا ، فقد أقحموا الامة في صراع حزبي ودموي لم تجن منه سوى الفرقة والفوضى ، ولو انها اتجهت به الى الغزو لفتحت اكثر العالم ، ولو ان الامة راجعت نفسها لانصرفت عنهم وازورت مؤمنة بان احق المسلمين بالخلافة اصلحهم للحكم سواء أكان شريف النسب او كـــان وضيعه ، وسواء أكان من البيت الهاشمي او من بيت نجار او حطاب ، ويخرج من ذلك الى بيان آراء المرجئة والخوارج وتعاليمها . وينظر نظرة عامة في الفرق التي انتشرت في هذا العصر وفي كل جانب يتحدث عن اثر

هذه المذاهب في الادب شعره ونثره .

والحق أن عناية أحمد امين واهتمامه بأدب الشيعة والخوارج جديران بالتسجيل والرصد .

فأدب الشيعة هو ادب حزين ، فيه دموع وحسرات ، وعليه أردية سود من طول الحداد على مصرع الحسين بن علي رضي الله عنه ، وقد كان لحركة التشيع اثر بعيد في اعطاء نواح الادب العربي حياة جديدة . فالخلاف السياسي والتشاحن المذهبي كان الادب يخدمهما ويسجل حركاتهما وسكناتهما .

كذلك يميز ادب الشيعة عنصران كبيران تنبه اليهما احمد أمين فهما عنده يظهران في عاطفة الغضب وعاطفة الحزن . وقد قال في الغضب : «انهم اعتقدوا أنهم سلبوا حقهم وغصبوه ، وأخذ منهم ظلما وعدوانا فغضبوا لذلك ودعتهم ثورة الغضب ان يقولوا وان يقولوا كثيرا في هجاء غاصبهم وفي بيان حقهم وفي شرح مظالمهم وفي اظهار حججهم ..» .

أما حين يحدثنا عن عاطفة الحزن فيقول : «ان الدولتين الاموية والعباسية اخذتا بالعنف وعاملتاهما بأقصى مما يعامل الكفرة الملحدون . فمن حين الى حين تحدث مجزرة ، ولا يكاد يجف منهم دم حتى يسيل دم ، وتفننتا في ذلك فقتل وصلب وإحراق وتذرية وإماتة بطيئة في السجون بحرمانهم من النور والهواء والاكل والماء وكل هذا وأقل منه يستنزف الدمع ويذيب القلب» .

اما ادب الخوارج فقد نظر اليه أحمد امين نظرة منصفة ، رآه أدب القوة وادب الاستماتة في طلب الحق ونشره وأدب التضحية . وهو يرى تعبيرهم في ادبهم ادب التعبير البدوي الذي لا يتفلسف ولا يشتق المعاني ويولدها كما يفعل المعتزلة . ويرى هذا الادب الخارجي ايضا أدبا غاضبا لكنه ليس كغضب ادب الشيعة .

وكان ادب الخوارج ادب الجماعة المتقشفة حقا التي نذرت أرواحها للمنافحة عن العرب والمسلمين . فلم يعرفوا مجونا ، ولا خمرا وانما القوا بانفسهم جميعا الى القتال وحومات الوغى . فكان أدبهم دليلا عليهم وعلى أخلاقهم هذه .

وقد وازن أحمد امين بين ما بقي من ادب الشيعة وبين ما اثر من ادب الخوارج . فوجد ان أدب الشيعة احتضنه سادتهم في العصر العباسي ودوّنوه ، وكان لهؤلاء السادة الصدارة في البحث والدرس والتاليف كالشريف المرتضى صاحب الأمالي المعروفة بإسمه . ولذا حفظ

أدبهم من الضياع ، وجاءنا منه الكثير . اما ادب الخوارج فانهم وان يكونوا قد عاشوا فيه لكن ما اثر عنهم كان قليلا لان الامويين كانوا حربا عليهم والعباسيين لاحقوا فلولهم ولعنوهم وما وصل الينا من اخبارهم الا النذر اليسير الذي جمعه ورواه ابو العباس المبرد صاحب كتاب الكامل .

ظهر الاسلام

والكتاب الثالث من اسلاميات احمد امين هو «ظهر الاسلام» الذي صدر في اربعة اجزاء يعتبر مقدمة لدراسة واسعة للحركة العقلية في النصف الاخير من القرن الثالث والرابع الهجريين وهي أوسع حركة واخصبها واعمقها في تاريخ المسلمين الى اليوم . لهذا عني أحمد أمين في الجزء الاول بناحيتين :

الاولى : وصف الحياة الاجتماعية في هذا العصر فليس من الممكن فهم الحياة العقلية الا بفهم بيئتها التي نشأت فيها ، والعوامل التي ساعدت عليها ، وطبيعة الناس الذين انتجوها ونحو ذلك .

والثانية وصف مراكز الحياة العقلية ونوع الحركات العلمية والادبية التي ظهرت في كل اقليم وخصائصها واشهر رجالها وهو وصف موجز اراد به احمد امين ان يكون نقطة ارتكاز يتبعها لتفصيلها فيما بعد ذلك من اجزاء .

وفي الجزء الثاني من «ظهر الاسلام» يسلك احمد أمين نمط «ضحى الاسلام» حيث يبحث في تاريخ العلوم والآداب والفنون في القرن الرابع الهجري .

والقارىء يلمس مدى الجهد الذي بذله في تحقيق بعض المسائل وذلك بالرجوع الى مصادرها الاولى . وقد يكون للمسالة الواحدة اكثر من اربعة مصادر كل له رايه الخاص : فمثلا يرى البعض ان اخوان الصفا من الشيعة ، وبعضهم يرى انهم ليسوا بشيعة . وهنا كان لا بد على الدكتور احمد امين من مراجعة هؤلاء وأولئك ليقف على موضوعات الكتاب اولا ، ومعرفة منحى المؤلفين : هل هم شيعة او غير شيعة حتى يستطيع استخلاص الرأي الصحيح .

والجزء الثالث من كتاب «ظهر الاسلام» خصصه لتأريخ الحياة العقلية في الاندلس ولم يكتف بتأريخها في القرن الرابع الهجري وحده

بل رأى ان حضارتها وحياتها العقلية تكاد تكون وحدة ، ففضل ان ينهج منهجا جديدا مؤداه الا يلتزم بالقرن الرابع الهجري ، بل يؤرخ حياة الاندلس العقلية متسلسلة من وقت خروجهم منها اي نحو ثمانية قرون حتى تكون كلها مربوطة برباط واحد ومعروضة عرضا واحدا .

وكان أمام الدكتور أحمد أمين أسلوبان للتأريخ ، فإما ان يؤرخ تأريخا أفقيا بمعنى أن يؤرخ الحياة العقلية في كل عصر ثم يتبع ذلك بالعصر الذي بعده ، او تأريخا رأسيا بمعنى أن يؤرخ كل علم من مبدأ ظهوره في الاندلس وكيف تدرج .

ويقرر الدكتور أحمد امين انه فضل الاسلوب الثاني .

ويستمر الدكتور أحمد أمين في جزئه الثالث من أجزاء «ظهر الاسلام» بنفس الاسلوب الذي اتبعه في بقية السلسلة الاسلامية من حيث انه يؤرخ للحياة العقلية . فلم يتعرض في هذا الجزء لشرح الحياة السياسية والاجتماعية الا بالقدر الذي يلقي ضوءا على الحياة العقلية ، خصوصا وأن أكثر ما كتب عن الاندلس كان يدور حول السياسة وأقل القليل كان عن الحياة الفكرية فيها .

لهذا رأى أحمد أمين ان رصد الحياة العقلية في الاندلس في هذا الجزء مفيد وضروري .

وفي الجزء الرابع والاخير من الكتاب يؤرخ الدكتور أحمد أمين للمذاهب الدينية وتطورها ، وقد نهج في ذلك نفس المنهج الذي اتبعه في الجزء الثالث . فلم يقف عند القرن الرابع الهجري لان العقائد والمذاهب ليست كالآداب والعلوم والفنون سريعة التغير والتطور . وتكلم في هذا الجزء عن المذاهب الرئيسية من معتزلة وأشاعرة وشيعة وسنّة ومتصوفة .

وللمتصوفة افرد بابا خاصا مع أنهم ليسوا فرقة اسلامية لاشتهار امورهم وقوة اثرهم في العقيدة الاسلامية وبخاصة بعد القرن الرابع .

وهذا الجزء الرابع في مجمله عرض عام للعقيدة الدينية في شتى صورها عند المسلمين منذ ظهور الاسلام حتى العصور المتأخرة .

وبعد هذا العرض السريع للاجزاء الاربعة لكتاب «ظهر الاسلام» تستوقفنا بعض الجوانب في الكتاب . فها هو يحدثنا عن المعتزلة التي سبق أن حدثنا عنها في «فجر الاسلام» و«ضحاه» وكيف كان لهم دور في تاريخ الفكر الاسلامي ، وطبيعة العقل الواعي الذي ظهر في العرب وهم يناقشون أمور الدين والدنيا بحرية وتحرر . حتى ان أحمد أمين

كان يرى أن نضج الفكر في العصر العباسي الاول والثاني كان الفضل فيه للمعتزلة ومثل المعتزلة بالمدافعين عن حوذة الفكر الاسلامي أمام التيارات الجارفة التي جاءت من الفكر الآري والسامي فقد حمل الفرس منـــذ دخلوا في الاسلام افكارهم وذكريات اعتقادهم الديني ، وكذلك كان شأن الروم كما كان العراق محاطا بالثقافات المختلفة والديانات المتباينة . وكان السريان واليهود قد ايقظوا اذهانهم ناحية المسلمين ، وحين دخل هؤلاء في الدين الاسلامي ، بدات معتقداتهم القديمة ترفع الرؤوس فـــي معتقداتهم الجديدة فحدث الخلاف والشقاق في الآراء والنزعات ووقف في وجه هذا التيار الطاحن كله جماعة المعتزلة يدافعـــون عن الاسلام ويصدون عنه البوادر الهدامة .

والفرق الدينية المنبعثة من الشقاق الفكري الاسلامي تتماثل وتتوالد ويشق بعضها دربه من بعض آخر حتى اصبحت خضما زاخرا كاد الفكر الاسلامي ان يغرق في امواجه ، بعد ان سبح وغاص ؛ حتى قال احمد امين في هذه الفرق والتيارات ان كل هذه المذاهب صبت فـــي العراق ودعا اليها الداعون وتشكلت بأشكال مختلفة وإصطبغ بعضها بصبغـــة اسلامية . وتقرأ المذاهب المختلفة في ذلك العصر فيأخذك العجب مـــن كثرتها وتنوعها ، وكان كثير من اصحاب المذاهب قد تثقفوا بالثقافـــة اليونانية فأخذ كل فريق يستخدم هذه الفلسفة في تدعيم ديانته فلما جاء المعتزلة يردون على هذه المذاهب وينتصرون للاسلام اضطروا أن يتفلسفوا هم ايضا ليتسلحوا بما تسلح به خصومهم . لذلك اتسع علم الكـــلام اتساعا عجيبا . ومما زاد في سعته إنه شمل اشياء كثيرة لا تتعلـــق بالعقائد حسبما كان يظن بل نرى انه اشتمل على اربعة أقسام كبار :

قسم الإلهيات مثل البحث في الله وذاته وصفاته وأفعاله وانبيائـه ورسله ونحو ذلك وهذا معقول ان يكون في صميم علم الكلام .

اما القسم الثاني فهو في الطبيعة والكيمياء ، ادخل مثل الجوهـــر والعرض والجزء الذي لا يتجزأ والحركة والسكون ، والطفرة والتداخل والالوان والطعوم والروائح ونحو ذلك .

والقسم الثالث قسم سياسي محض صبغه علم الكلام بصبغة دينية كالكلام في أيهما افضل واحق بالخلافة : عليّ أم أبو بكر وعمر ؟ وكلامهم في العلويين والعباسيين والفاضل والمفضول وشروط الامامة ونحو ذلك.

والقسم الرابع عقلي وخلقي كالبحث في الخير والشر والاستطاعـة والاختيار وإعجاز القرآن والإجماع والقيـــاس . فاذا انت قرات كتابا

كالمواقف او كالفرق بين الفرق او كالملل والنحل رأيت مناحي مختلفة واتجاهات مختلفة مع كثرتها وتشعبها .

ثم رأى احمد امين ان هذه الامور مع كثرتها وتشعبها يمكن ان تقسم الفرق الرئيسية الى خمسة اقسام .

١ ــ المعتزلة .
٢ ــ اهل السنة .
٣ ــ الشيعة .
٤ ــ الخوارج .
٥ ــ المرجئة .

ويختم الدكتور احمد امين كتابه ((ظهر الاسلام)) بقوله : ((لقد كانت هذه الحركات قوية عنيفة تتدافع ولا تتهاون وتتقاتل ولا تتسالم . فمؤرخو الاسلام لا يقتصرون على تسجيل الوقائع الحربية وانما يضيفون اليها الوقائع الاعتقادية والطائفية واذا نحن صفينا الحساب كما يفعل التجار عند انتهاء مرحلة كبيرة من مراحل تجارتهم ليعرفوا ماذا كسبوا وماذا خسروا ، رأينا اننا كسبنا حركة العقول وتمرينها على البحث وكثيرا من المران على الجدل كما كسبنا من وراء هذا الجدل وضوح المسائل المتجادل فيها . وكسبنا تربية كثير من العلماء في هذه الاجواء من النشاط . ولكننا خسرنا الحب والالفة بما ذاع من الاحن والبغضاء بين الطوائف المختلفة حتى بلغت حدا فقتل الكثير ، وخسرنا قوى كانت تنفع لو تجمعت فلما تفرقت فنيت ..

وهذه القوى لو كانت وجهت وجهة خير لانتجت نتاجا باهرا ، فلما وجهت وجهة شر ضاعت ، واظن ان ما خسرناه اكثر مما كسبناه . وليس ادل على ذلك من حال المسلمين اليوم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم)) .

يوم الاسلام

يختلف كتاب ((يوم الاسلام)) عن بقية كتب احمد امين في شكله ومضمونه .. فمن النظرة الاولى ندرك انه لم يعتن كغيره من الكتب بالتنسيق والتنظيم الذي يعتبر من اساسيات منهج احمد امين في التاليف ، ويبدو ان احمد امين استثنى آخر كتبه ــ فقد توفي بعد

صدوره بعامين – من تلك التكاليف التي كادت ان تكون مربكة للتاليف الذي تعود ان يجريه على نسق محكم ، فاطلق مؤلفه من أوله الى آخره في غير قيد .

فهو – من الصفحة الاولى الى الصفحة الاخيرة – في سرد مستمر لا يقطعه عنوان ، ولا باب ولا فصل ، وانما استعيض عن كل ذلك بنجوم ثلاثة بين بعض الكلام تشعر بانتهاء ما قبلها وابتداء ما بعدها .

ولهذا الكتاب قصة .. فقد كان فجر الاسلام وضحاه وظهره سلسلة لا يريد صاحبها لها الانقطاع . وكان تقديره أن يكون ظهر الاسلام كما يقرر في «حياتي» حول خمسة اجزاء . ولكن شاء القدر أن يحول بينه وبين هذه النية ضعف بصره . وهنا توقف عن العمل في تلك السلسلة ، وجعل يؤلف نوعين من الكتب : نوع من الكتب تكون قد الفت من قبل ولا تحتاج الى اي صقل وترتيب وأخرى مبنية على مطالعات سابقة مما كان يدخره في الذهن على توالي الايام .

ويبدو ان كتاب «يوم الاسلام» كان ضمن هذه الكتب التي كان يدخر مادتها في الذهن ، حيث اراد فيه ان يبين أصول الاسلام وما حدث له من أحداث أفادته أحيانا واضرته أحيانا اخرى . وسنبين فيه كيف كان يعامل غيره من اهل الاديان ايام عزه وسطوته وكيف يعامله غيره ايام ضعفه ومحنته . وهذه تقريبا هي مادتها «يوم الاسلام» .

وكما قلنا فقد اعتمد فيه الدكتور احمد أمين على معلوماته المختزنة وقليل من قراءاته المعاصرة .

اما لماذا كان عنوانه «يوم الاسلام» فكما يذكر الدكتور أحمد أمين ان ذلك لاشتماله على الاسلام في أصوله وعوارضه ، في عصوره المختلفة الى اليوم ، وهم غرض منه شيئان :

الاول : ان نتبين منه الاسلام في جوهره واصوله وكيف كان .

والثاني : أن كثيرا من زعماء المسلمين اتعبوا انفسهم في بيان اسباب ضعف المسلمين . وهنا رأى أحمد امين ان خير وسيلة لمعرفة اسباب هذا الضعف هو الرجوع الى التاريخ .. فهو الذي يبين ما حدث مما سبب ضعفه تنضح الاسباب الحقيقية حتى يتمكن من يريد الاصلاح أن يعرف كيف يصلح .

ويوم الاسلام يحمل العديد من الافكار والآراء التي ان دلت على شيء فانما تدل على ثقافة قائلها وها هو مثلا يحدثنا عن معنى الجهاد فيقول «وشرع الاسلام الجهاد ، والجهاد كلمة اسلامية تستعمل بمعنى الحرب

وهي مصدر جاهد يجاهد مجاهدة جهادا ، ماخوذة من الجهد وهـو الطاقة والمشقة » .

وقد شرع الجهاد في الاسلام في ثلاثة مواضع :

الاول : اذا التقى الزحفان وتقابل الصفان .

الثاني : اذا نزل الكفار ببلد تعين على أهله قتالهم ودفعهم .

الثالث : اذا استنفر الإمام قوما لزمهم النفير معه بدون ذكر الادلة .

ذلك ما يمكن ان يجيء به الوعي والحفظ من ذهن المؤلف ، وكـان بمقدور أحمد امين لو أطاعه النظر أن يرجع الى ابواب الجهاد فـي الصحيحين لدى مسلم والبخاري فانهما استنفذا بالاحاديث المرفوعة والسماع الثابت جملة كبيرة من آراء الرسول صلى الله عليه وسلم ومن اقوال الصحابة والتابعين وكلهم قد شارك في الجهاد مع رسول الله او بعده وجرى على سنّته في الحرب والدفاع .

كذلك قال احمد امين كلمة في الحرب والسلام على نحو ما قالها في الجهاد : «وقد أثبتت التجارب ان الحـرب سنّة من سنن الاجتماع البشري وأثر بسنّة تنازع البقاء . وتعارض المصالح والمنافع والاهواء ، ل هي سنّة من سنن بعض الحشرات التـي تعيش عيشة التعاون والاجتماع كالنمل . فهو يغزو ويبيد ويسترق ويستخدم رقيقه فـي خدمته وترفيه معيشته ، ويدل التاريخ ايضا على ان شعوب أوربا أشد البشر ضراوة وقوة في الحرب في أطوار حياتهم كلها من همجية ووثنية ونصرانية وصليبية ومدنية مادية. ومن علمائهم وفلاسفتهم من يرى منافع الحرب أكبر من مضارها ولا تزال جميع دولهم تنفق على الاستعداد لها فوق ما تنفق على غيرها من مصالح الدولة والامور ، وترهق شعوبهـا بالضرائب الكثيرة فاذا لم تجد استدانت وقد كان من تعاليم الاسلام منع جعل الحرب للاكراه على الدين والتمتع بالشهوات ومنع استعمال القسوة في الحروب كالتمثيل بالاعداء ومنع قتل من لا يقاتل كالنساء والاطفال والعباد ، ومنع التخريب والتدمير وما لا ضرورة له ..» .

ويعقب احمد امين بأقوال معاصرة وأفكار راهنة حول الموضـوع ومفاهيمه ، ثم يخرج فجأة الى كلام حول ما سخّره الله للانسان من عون في الحياة بادئا من الآية الكريمة «هو الذي خلق لكم مـا في الارض جميعا» ثم يمضي به الاستشهاد بالقرآن الى هذه الآية الكريمة : «وان لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ، ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون » .

وهكذا نجد اختلافا واضحا بين أحمد أمين في كتبه الاولى «فجر الاسلام» و«ضحى الاسلام» و«ظهر الاسلام» وكتابه هذا «يوم الاسلام» على الاقل في طريقة التناول ومنهج البحث . ولكننا برغم هذا نجد في الكتاب روح أحمد امين وثقافته .

الفصل الرابع

اسلاميات هيكل

لم يكن عسيرا على الدكتور محمد حسين هيكل .. ان يقتحم ميدان السيرة التاريخية مدافعا عن نبي الاسلام وخلفائه ، وأن يضفي على آثارهم التاريخية مسحة فنية تحيلها الى صور أدبية رائعة .. بعد ان استهل حياته (محاميا) يدافع عن حق يراه مشروعا ، وحياته الفكرية (قصاصا) يعرض للمشكلة في حياة الانسان .

اسلاميات هيكل

بدا الدكتور محمد حسين هيكل حياته الفكرية كاتب قصة ، وختمها كاتب قصة ايضا .. فاول كتبه كانت قصته (زينب) ، وآخرها قصته (هكذا خلقت) .

وفنه القصصي بين البداية والختام تمثيل حق لحياته في مرحلتيها الطبيعيتين ، واستجابة صادقة لعصرين .. عصر الشباب حيث النمو وعصر المشيب حيث النضج .

كانت باكورته القصصية مظهرا لنزعة التجديد ، ورغبة الخلق ، فيها انتفاضته الوجدانية نحو وطنه ، وفيها معالجته تصوير الحياة في قطعة عزيزة هي الريف .. فتوهجت في القصة مشاعر وعواطف ، وتعاقبت صور ومشاهد ، وتجلت فيها شخصيات شعبية ، أريد بها جميعا ان تحقق غرضا هفت اليه نفوس الداعين الى تجديد الادب في مستهل القرن العشرين .. ذلك الغرض هو انشاء أدب مصري السمات والروح يتأكد فيه طابع المصرية في التعبير والتصوير .

وكانت اعماله القصصية تحل تلك النزعة .. بعد ان اصبح الدكتور هيكل رجلا خبر الحياة ومارس التجارب ، وتعمقت فكرته في الادب ، وآمن بان الادب الحق هو الذي يتجاوز الحدود ويستعلي على القوميات ولا يستند الى الطابع المحلي .. ومن ثم اخرج لنا فنا قصصيا في اطار مصري ، عميق التغلغل في دخائل النفس البشرية وثيق الصلة بالغرائز الانسانية الثابتة ، تتجلى فيه عبرة الحياة وحقائقها في منحى حـــق

التعبير الهادىء الطبع وفي نفس الوقت القوي النفاذ .

والدكتور هيكل الذي بدا حياته هكذا قصاصا وختمها ايضا قصاصا لم يكن عسيرا عليه ان يقتحم ميدان السيرة التاريخية ويقدم امثلة عظيمة ما زالت تعيش في وجداننا حتى الان .

لم يكن من الصعب عليه أن يقتحم ميدان السيرة وهو في الاصل قصاص .. والسيرة قصة حياة انسان فرد ترك من الاثر في الحياة ما جذب اليه التاريخ . وهي أقرب الى القصة من التاريخ بمعناه العام حيث تحفل بالعواطف الجياشة ، والاحاسيس النابضة لانها تعرض من سيرة الفرد جوانب مختلفة من حياته ، حتى تتجلى مقومات شخصيته ، وتبرز معالم حياته ، وتفصح عن سر نبوغه وتفرده. فالسير لا تحفل الا بكل نابغة فريد .

والسيرة بعد كل هذا اقرب للقصة اكثر من قرابتها للتاريخ حيث تلمس الانسان مباشرة ، بينما في التاريخ نلمس هذا الانسان عن طريق الاحداث التاريخية التي أحاطت به فمنها ما قيل ان الانسان هو المؤثر الحقيقي في مجرى التاريخ فان المجتمع هو الذي يبرز التأثير التاريخي للفرد ويتفاعل معه ، وهنا نتخذ من الاحداث محورا للتاريخ . بينما يكون هذا المحور في السيرة هو الانسان نفسه .

فالسيرة كالقصة .. تعرض للمشكلة في حياة الانسان او للصورة في مجتمع يعيشه .

ومن هنا يبدو يسيرا على الاديب القصاص أن يكتب سيرة تاريخية ، ولا أدل على ذلك من أن أعظم مؤرخي السير .. هم الذين يملكون في الاصل موهبة الاديب الفنان ، فما زالت السيرة قصة انسانية تعج بالاحاسيس والانفعالات والمواقف والاحداث التي يقتنصها كاتب السيرة ليضفي عليها الحيوية ويبعث فيها النشاط .

تبقى بعد ذلك مسألة هامة وهي «الموهبة القصصية» والى اي حد تتحكم في المؤرخ او في القصاص ، فتسوق كلا منهما الى المنهج الذي يرتضيه ويتفرد به ـ «مؤرخا» او «قصاصا» ـ او يجمع بين الاثنين معا فيكون مؤرخ سيرة وكاتب قصة .. وهي قدرة لا ينفرد بها الا من أوتي موهبة الفنان ولمسة العالم .

وقد كان الدكتور هيكل يجمع بين الميزتين معا .. ميزة المؤرخ العالم ، وميزة الاديب الفنان ولا أدل على ذلك من ان الدكتور حسين فوزي النجار يقول في هذا الصدد : «كانت سيرة جان جاك روسو التي

كتبها الدكتور محمد حسين هيكل في مطلع حياته بعد أن كتب «زينب» بسبع سنوات خليطا ولا اقول مزيجا من التاريخ والادب يقف فيها الاثر الفني لروسو في ناحية وسيرته في ناحية اخرى ...» .

والسؤال الان حول هذا الحافز النفسي الذي كان يجذب الدكتور هيكل الى التاريخ هاويا في البداية حيث كان يحاول ان يضفي على الادب روعة التاريخ ، ثم باحثا في التاريخ يعتلي قمته بين مؤرخي التراجم والسير في العصر الحديث ؟

لعل الحافز النفسي الذي كان يسير به في ركاب التاريخ هو الجاذبية للعمل العظيم وليس لعبادة البطل ، عبادة العمل العظيم الذي يضفي على الحياة كل خير وبهاء ، ويتوج الفكر الانساني بجلال الحق وروعته ، يحل عند الدكتور هيكل محل عبادة البطل .

جاذبية التاريخ لدى الدكتور هيكل هي في عمل عظيم يعود على الانسانية بالخير ، ويدنو بها من الكمال .

وتكون جاذبية التاريخ اشد ما تكون قوة اذا ما اتصلت اسبابها بنفوسنا اكمل اتصال ، فكلما ازداد الانسان بما حوله من صور الحياة امتزاجا ، ازداد بهذا الامتزاج حياة وازداد بذلك تجددا ، واذا كان حسنا وواجبا أن يمتزج الانسان بالماضي وان يجد هذا الماضي طي الكتب ، فاحسن منه أن يمتزج بالحاضر في كل مظاهر هذا الحاضر ليجمع بين الماضي والحاضر كاملين ، وليجدد بذلك للمستقبل صورا اقوى ما فيها من المظاهر الجديدة شخصيته هو الدائمة التجدد . وانت اكثر ما تكون قوة على الامتزاج بالحاضر والماضي وعلى التجديد فيهما تجديدا تبرز فيه شخصيتك قوية ظاهرة اذا كان هذا الماضي هو ماضي بلادك ، وكان هذا هو حاضر بلادك نفسها بما فيها من حياة وجدة وجمال ، فاذا استطعت بعد ذلك ان تتصل بغير بلادك لتتمثل ما فيها من جمال وتجليه على غيرك ، او استطعت ان تكون أوسع مدى ، فاختلطت نفسك بنفس الانسانية كلها وترنمت عن ايمان صادق باناشيد الخلد في وحدة الوجود ، فقد بلغت الذروة من مراتب الالهام .

هذا المنهج الذي ارساه الدكتور هيكل لابدع ادب قومي يلهمه التاريخ وتلهمه البيئة ويمتزج فيه الحاضر بالماضي لا يختلف كثيرا عن التاريخ في مناهجه وغاياته . فالتاريخ ـ كما يقول بندتو كروتشي ـ هو تاريخ الحاضر ، فنحن لا نبغي حقا من دراسة التاريخ غير التعرف على الاطار الذي نعيش فيه ومعرفة اصوله .

ولا يتسنى لنا معرفة الحاضر وتفسيره ما لم ندرك الماضي بالبحث في حقيقة وجوده . والواقع ان كل ما يتناوله التاريخ بالبحث حاضر موجود أما ما مضى وانقطع وجوده فلا سلطان للتاريخ عليه ، واقدر الناس اذن على كتابة التاريخ واجدرهم به هم صانعوه وأصحابه . اذ ان الشعور والاحساس يمتدان بهم الى ابعد اغوار تاريخهم من القدم ، فما زال الانسان يحمل في أعماقه تراث ماضيه مهما بعد هذا الماضي او عفت آثاره وفي هذا المعنى يقول الدكتور هيكل :

«ان المصريين الذين يتقدمون الى ميدان البحث في الشؤون المصرية القديمة ، اوفى الى التوفيق به من ابناء اية أمة اخرى يتقدمون اليه ، ذلك ان غير المصريين انما يترجمون ما لا يتصل بحياتهم ، وبما لا تسري روحه في قلوبهم وافئدتهم فلهم أن اخطأوا عذر المترجم الذي ينقل من لغة الى لغة . اما المصريون الذين يوفقون لمثل ما وفق اليه اولئك الغربيون العظماء من براعة في الوقوف على أسرار المصريين القدماء فانهم حين يترجمون آثار هذه الصور القديمة يشعرون في غور وجودهم بما يتفق وهذه الصور والأخيلة والمعاني فيؤدونها الاداء الاوفى ..» وما يجري على التاريخ القديم هذا الذي حدثنا عنه **الدكتور هيكل** يجري ايضا على تاريخ غيره من العصور ، واقدر الناس على كتابة تاريخ أمة من الامم هم ابناء تلك الامة مع ملاحظة ان يسمو المؤرخ بحوافزه ومشاعره عن الاطار الاقليمي الضيق الى ما تسع الانسانية من آفاق الوعي والاحساس الكلي الجامع .

وبناء على هذا الاساس كانت **للدكتور هيكل** محاولات في عالم التاريخ هي في واقع الامر محاولات اديب يرى في أحداث التاريخ ما يلهم ادبه أجمل الصور والمعاني .

وها هو يضع لكتابة السير منهجا يعتبر اقرب المناهج الى الطريقة العلمية في كتابة السير . وكان ذلك حين كان يظن انه أبعد الناس عن اقتحام ميدان البحث التاريخي ففي عام ١٩١٦ نشر بضع مقالات في مجلة «السفور» عن قاسم أمين ، عرض فيها لغاية التاريخ وللمنهج العلمي الذي تقوم عليه كتابة السير ، فلم تعد غاية التاريخ ان يلم بمواليد الملوك ووفياتهم وما يقومون به من الغزو والفتح فليس هو وحده الذي يقوم بتقييم حياة الامم فقد ثبت للمؤرخين ان قيام الملوك ونزولهم عن عروشهم وما يتخلل ذلك من الحروب ليس الا مظهرا من مظاهر هذه الحياة . خصوصا بعد أن دك عرش الاستبداد . وقامت الديمقراطية

حاكمة آخذة بيدها النهي والامر ، وأنما قوام حياة الامم مميزاتها من اخلاق وعادات وتقاليد وعقائد وآمال ، تلك مجموعة المظاهر التي تصدر عن الامة والتي تقوم عليها الحكومات والملوك والحروب ، من يوم أن ثبت ذلك لعلماء التاريخ في اوربا وجهوا عنايتهم الخاصة لبحث كافة المظاهر التي كانت تصدر عن المجموع الذين يريدون تعرف ماضيه ، فلم يتركوا اثرا يهدي لبعض هذه المظاهر الا قفوه ، وبذلك أمكن لهم أن يرسموا في التواريخ التي وصفوها صورا مضبوطة من تلك الامم واستطاعوا من بعد ذلك أن يربطوا الحاضر بالماضي وأن يقدموا بذلك لانفسهم ولغيرهم من المفكرين وعلماء الاجتماع مادة جيدة غزيرة يمكن معها رسم اقوم الطرق للوصول الى احسن ما يرجى في المستقبل ..» .

وبعد ان يحدد **الدكتور هيكل** غاية التاريخ على ما يجمع عليها فلاسفة التاريخ في القرن الاخير . نراه يضع لنا منهجا علميا لكتابة السير يقول فيه : «من اجل درس رجل من الرجال فيلسوفا كان او كاتبا ، او شاعرا يجب قبل كل شيء تعرف الوسط الذي عاش فيه ، والحال النفسية الخاصة به ، حتى نعلم تاثير هذه البيئة المعينة على هاته النفس المعينة فاذا تم ذلك تفسر الفيلسوف او الكاتب او الشاعر الى حد كبير ..» ويحدد **الدكتور هيكل** هذه البيئة بما دعاه «الوسط الاجتماعي» او «الوسط الطبيعي» .

ويمضي **الدكتور هيكل** على هذا المنهج في رسم الصورة التي يراها وافية **لقاسم امين** ، ولكنه بعد ذلك بأكثر من عشر سنوات يعود الى ترجمة قاسم أمين ويكون قد استوفى من القدرة على البحث والتحليل والعمق ما يرتفع به الى القمة بين كتاب السير .

والدكتور هيكل كأديب فنان . ليست كل صور التاريخ مما يجذبه ويستثير وجدانه ، ان الذي يجذبه تلك الصور التي تتصل بفكره عن الوجود ، وهي الصور التي تحفل بمعاني الحق والخير والجمال . فالفكرة التاريخية هي التي تلهمه على أن تكون صدى لأحاسيس وجدانه ومشاعره ، او تتصل بنفسه بصورة من صور الوفاء ، الوفاء للوجود التاريخي ، او الوفاء لمن مست حياته حياتهم ، فان جلال الفكرة التي تتضمنها صورة التاريخ لا تقيم في ذهنه ولا تغيب عن وجدانه ، بل انها لتفور جميعا من نبع واحد هو تلمس الحق او الخير او الجمال في كل صورة من صور التاريخ تجذبه اليها .

وتحمل هذه الجاذبية التاريخية الدكتور هيكل الى ميدان اكثر جمالا

ونورا وجلالا .. اجتمع اليه فيه «عبادة البطل» في التاريخ لكارليل ، و«عبادة العمل العظيم» كما يرى التاريخ الحديث .. فكانت «حياة محمد».

وبكتابه «حياة محمد» اقتحم الدكتور هيكل ميدان يتصل بقلبه وإحساسه ومشاعره اتصالا يتجاوز العاطفة الدينية الى آفاق رائعة من عبادة الخير والحق والجمال، ويوم ان اقتحم هذا الميدان اتهم بالرجعية، فقد حسب من اتهموه كما يقول في مقدمة كتاب **«في منزل الوحي»** انه انقلب بكتابة السيرة رجعيا : «وكنت عندهم قبلها في طليعة المجددين وكيف لا انقلب عندهم رجعيا وقد جعلت القرآن حجتي وما جاء فيه عن السيرة سندي ، ولم اضعه كما يقولون موضع النقد العلمي ، وكيف لا انقلب عندهم رجعيا وقد دفعت بالحجة ما طعن به على النبي الكريم جماعة من المبشرين واخرى من المستشرقين ومن تابعهم من شباب المسلمين . وكيف ساغ لي بعد ذلك أن أزعم أمامهم في **حياة محمد** ، وان أزعم اليوم هاهنا انني طليق من القيود عدو للجمود ، تفسير للبحث العلمي الحر ، وانني أومن بحرية الراي ، واعتبرها الاساس . لا اساس غيره ، لمن يريد معرفة الحقيقة هم يرون ذلك خداعا يأباه العلم والبحث الحر ، وأنا بعد ، عندهم رجعي انقلبت الى الجمهور أتابعه ابتغاء رضاه، وكنت قبل ذلك اتقدمه أريد توجيهه وهدايته ..» .

ويتحدث الدكتور هيكل عن منهجه العلمي الذي اقتفاه في «حياة محمد» وسار عليه في «الصديق أبو بكر» و«الفاروق عمر» فيقول: «لست مع ذلك احسبني أوفيت على الغاية من البحث في حياة محمد ـ بل لعلي أكون أدنى الى الحق اذا ذكرت لني بدات هذا البحث في العربية على الطريقة العلمية الحديثة ، وتقتضيك هذه الطريقة العلمية الحديثة ، **وتقتضيك هذه الطريقة العلمية** اذا اردت بحثا أن تمحو من نفسك كل راي وكل عقيدة سابقة في هذا البحث ، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة ثم بالموازنة والترتيب ثم بالاستنباط القائم على هذه المقومات العلمية ، فاذا وصلت الى نتيجة من ذلك كله كانت نتيجة علمية ، لم يثبت البحث العلمي تسرب الخطأ الى ناحية من نواحيها ، وهذه الطريقة العلمية هي أسمى ما وصلت اليه الانسانية في سبيل تحرير الفكر» .

وهذه الطريقة العلمية التي يخبرنا بها الدكتور هيكل بانها احدث ما وصلت اليه الاوساط العلمية في اوربا هي في واقع الامر طريقة القرآن حين جعل العقل حكما والبرهان اساس العلم ، وعاب التقليد ، وذم المقلدين وانب من يتبع الظن حين قال سبحانه وتعالى ـ ان الظن لا يغني

من الحق شيئا ــ وعاب تقديس ما عليه الآباء ، وفرض الدعوة بالحكمة لمن يفقهها . وهي ايضا طريقة محمد صلى الله عليه وسلم وأساس دعوته لو رجعنا اليها ..

الى جانب انها كانت طريقة القرآن والدعوة الاسلامية فهي طريقة سلف المسلمين . فها هو الامام الغزالي يقرر في احد كتبه : «انه جرد نفسه من جميع الآراء ، ثم فكر وقدر ورتب ووازن ، وقرب وباعد وعرض الادلة وهذبها وحللها ، ثم اهتدى بعد ذلك كله . فهي طريقة قديمة في الشرق الاسلامي .. نسيها المسلمون بعد ان فشا التقليد واهدر العقل ، فأبرزها الغربيون في ثوب ناصع وافادوا منها في العلم والعمل ــ على نحو ما يعرفه جيدا طلاب الفلسفة من تأثير ديكارت وغيره من المفكرين الذين يعتبرون آباء للنهضة الاوربية المبنية اساسا على العلم بالمفكرين الاسلاميين وعلى الاخص الامام الغزالي ــ هكذا بعد ان كانت هذه الطريقة طريقتنا في البحث العلمي رجعنا لنأخذها من غيرنا ، ونراها طريقة في العلم جد حديثة كما يقول الدكتور هيكل .

وبهذا المنهج الاسلامي قديما ، الاوربي حديثا والقائم على الاستقراء والتحليل والموازنة استطاع هيكل أن ينقي السيرة من الشوائب التي دخلت عليها لعقم المنهج التاريخي القديم الذي يقوم على الرواية والتواتر دون ان يعنى بالفحص والتمحيض وهو ما حمل عليه «ابن خلدون» في مقدمته وضرب امثلة له مما حفلت بها كتب التاريخ من تهاويل لا يقبلها العقل او مبالغات لا يسيغها .. وأن يمضي بعدها مؤرخا للاسلام فكتب «في منزل الوحي» و«الصديق أو بكر» و«الفاروق عمر» و«الامبراطورية الاسلامية والاماكن المقدسة في الشرق» و«عثمان ابن عفان» وأغلب الظن انه كان سيمضي في التاريخ الاسلامي ومن ثم قصة الحضارة العربية في ملحمتها المأثورة الا ان الزمن لم يطل به حتى يتمم هذه الامنية العزيزة.

الصفحات التالية تناقش هذه الاعمال الاسلامية التي تركها الدكتور هيكل وهي «حياة محمد» و«في منزل الوحي» و«الصديق أبو بكر» و«الفاروق عمر» و«عثمان بن عفان» و«الامبراطورية الاسلامية» .

حياة محمد

يبدأ **الدكتور هيكل** كتابه بالحديث عن المطارات القديمة التي نشأت

في الشرق وكانت ذات طابع ديني مما أهل هذه المنطقة من العالم لتكون مهد الرسالات السماوية والديانات الوضعية كالمجوسية وغيرها ثم يشرح كيف انحلت هذه الديانات وتحولت الى فرق متناحرة ودول متطاحنة تقف بينها جزيرة العرب محصنة بصحرائها وان كانت اليهودية والمسيحية والمجوسية قد عرفت الطريق الى اطرافها في الشمال والشرق والجنوب. وتجتمع كل هذه الظروف في النهاية لتمهد لدين جديد يخرج من بلاد العرب يعيد اكتشاف الحقيقة التي طمرتها النصوص والشكليات والمجادلات والحروب الطاحنة . وليمزق العزلة عن جزيرة العرب التي ظلت بمنأى عن الامبراطوريتين المتحاربتين امبراطورية الروم وامبراطورية الفرس كأنما كانت السماء تعدها لترثهما برسالة جديدة تحل فيها محل المذاهب المنهارة ولتعيد الحقيقة والسلام الى الاقطار الداخلة فيهما .

ولد **محمد** في فترة من تاريخ جزيرة العرب اخذت فيها القوى المحيطة بها تعمل على اختراق عزلتها وتمزيق سكينتها . ففي عام مولده ٥٧٠ م حاول الاحباش المسيحيون اصحاب الفيل بمساندة الروم البيزنطيين ان يدمروا الكعبة ويستذلوا العرب ، وفي شبابه وقعت معركة «ذي قار» بين عرب وائل في الشرق وبين الفرس في أوائل القرن السابع الميلادي .

والآراء تختلف في تاريخ ميلاده . فاكثر المؤرخين يقولون انه ولد عام الفيل ٥٧٠ م ويقول آخرون انه ولد قبل الفيل بخمس عشرة سنة ويذهب غير هؤلاء الى انه ولد بعد الفيل بأيام او بأشهر او بسنين يقدرها قوم بثلاثين ويقدرها قوم بسبعين ، ويرجع كرسان وبرسفال في كتابه عن العرب ان محمدا ولد في اغسطس سنة ٥٧٠ م وكان أبوه عبد الله قد توفي وهو جنين في بطن أمه آمنة بنت وهب التي دفعته بعد ولادته الى حليمة السعدية لينشأ في البادية على عادة أشراف مكة اذ يبعثون ابناءهم الى البادية في اليوم الثامن من مولدهم ثم لا يعودون الى الحضر حتى يبلغوا الثامنة او العاشرة ، لكن محمدا بقي في بادية بني سعد الى الخامسة فحسب ثم عاد الى أمه لتحتضنه عاما ثم تلحق أباه فينتقل الصبي اليتيم الى كفالة جده عبد المطلب ، حتى اذا صار في الثامنة رحل جده هو الآخر عن الدنيا فانتقل محمد الى كفالة عمه ابي طالب ولا يزال معه الى ان يبلغ الثالثة والعشرين ويتزوج خديجة ويستقل بيته معها .

والدكتور هيكل يهتم كثيرا بتصوير ما تلقاه النبي عن البادية التي لا

يعرف جوها الصحو «قيدا من قيود الروح ولا من قيود المادة» . وكيف كان ينهل في جو الصحراء الطلق روح الحرية والاستقلال النفسي ويتعلم من هذه القبيلة لغة العرب مصفاة احسن التصفية حتى لقد كان يقول من بعد لاصحابه «أنا أعربكم ، أنا قرشي واسترضعت في بني سعد بن بكر» وتركت هذه السنوات الخمس في نفسه اجمل الاثر وأبقاه» .

ويظل **محمد** يتعلم من الصحراء ويتأملها كلما خلا اليها في رحلة او غدوه ، فعندما كان في الثانية عشرة خرج مع عمه الى الشام «في هذه الرحلة وقعت عينا محمد الجميلتان على فسحة الصحراء وتعلقت بالنجوم اللامعة في سمائها الصافية البديعة وجعل يمر بمدين ووادي القـــرى وديار ثمود وتستمع اذناه المرهفتان الى حديث العرب واهل البادية عن هذه المنازل وأخبارها وماضي نبئها . وفي هذه الرحلة وقف في بـــلاد الشام عند الحدائق الغناء اليانعة التي انسته حدائق الطائف وما يروى عنها والتي تبدت له جنات الى جانب جدب الصحراء المقفرة والجبـــال الجرداء فيما حول مكة . وفي الشام كذلك عرف محمد أخبار الـــروم ونصرانيتهم ، وسمع عن كتابهم وعن مناواة الفرس من عبار النار لهـــم وانتظارهم الوقيعة بهم . ولئن كان بعد في الثانية عشرة من سنه فلقد كان له من عظمة الروح وذكاء القلب ورجحان العقل ودقة الملاحظة وقوة الذاكرة وما إلى ذلك من صفات حباه القدر بها تمهيدا للرسالة العظيمة التي أعده لها ما جعله ينظر الى ما حوله ومن حوله نظرة الفاحـــــص المحقق . فلا يستريح الى كل ما يسمع ويرى . فيرجع الى نفسه يسائلها: اين الحق من ذلك كله ؟» .

ثم يعود الى الصحراء وهو يرعى الغنم «وراعي الغنم الذكي القلب يجد في فسحة الجو الطلق اثناء النهار وفي تلألؤ النجوم اذا جن الليل موضعا لتفكيره وتأمله يسبح منه في هذه العوالم ، يبتغي ان يرى مـــا وراءها ، ويلتمس في مختلف مظاهر الطبيعة تفسيرا لهذا الكون وخلقه وهو يرى نفسه ما دام ذكي الفؤاد عليم القلب بعض هذا الكون غير منفصل عنه. اليس هو يتنفس هواءه ولو لم يتنفسه قضي ! أليست تحييه أشعة الشمس ويغمره ضياء القمر يتصل وجوده بالافلاك والعوالم جميعا ، هذه الافلاك والعوالم التي يرى في فسحة الكون أمامه ، متصلا بعضها ببعض في نظام محكم ، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابـــق النهار !! وإذا كان نظام هذا القطيع من الغنم أمام محمد يقتضي انتباهه ويقظته حتى لا يعدو الذئب على شاة منها ، وحتى لا تضل احداها في

مهامه البادية ، فاي أنتباه واية قوة تحفظ على نظام العالم كله أحكامه .

ثم ها هو ذا يبلغ سن الشباب فيشتغل بالتجارة ويتزوج خديجة ويشارك اهل مكة في حياتهم العامة ويصبح من عادته ـ كما من عادتهم ـ ان ينقطع للتأمل والتماس الحكمة زمنا من كل عام يقضيه بعيدا عن الناس فكان يذهب الى غار في جبل حراء بالقرب من مكة ليقيم فيه شهر رمضان من كل سنة مكتفيا بالقليل من الزاد يحمل اليه ممعنا في التأمل والعبادة وهو لم يكن يطمع في ان يجد في قصص الاخبار وفي كتب الرهبان الحق الذي ينشد بل في هذا الكون المحيط به : «في السماء ونجومها وقمرها وشمسها وفي الصحراء ساعات لهيبها المحرق تحت ضوء الشمس الباهرة اللألاء ، وساعات صفوها البديع اذ تكسوها اشعة القمر او أضواء النجوم بلباسها الرطب الندي . وفي البحر وموجه وفي كل ما وراء ذلك مما يتصل بالوجود وتشمله وحدة الوجود . في هذا الكون كان يلتمس الحقيقة العليا ... فما هذه الاصنام التي لا تضر ولا تنفع ، ولا تخلق ولا ترزق ؟ وأين الحق ؟ اهو في الكواكب المضيئة ؟ اهو فيما وراءها من أثير ؟ ولكن ما الاثير ؟ وهذه الحياة التي نحيا اليوم فتنقضي غدا .. ما أصلها وما مصدرها ؟ أمصادفة تلك التي أوجدت الارض وأوجدتنا عليها ، لكن للمياه وللارض سننا ثابتة لا تبديل لها ولا يمكن ان تكون المصادفة اساسها ، وما يأتي الناس من خير او شر فيأتونه طواعية واختيارا ، ام هو بعض سليقتهم فلا سلطان لاختيارهم عليه ؟ في هذه الامور النفسية والروحية كان محمد يفكر اثناء انقطاعه وتعبده بغار حراء ، وكان يريد ان يرى الحق فيها وفي الحياة جميعا» .

ويأتيه الوحي وهو في الاربعين .

هنا نرى أثر نظرية «الرجل الطبيعي» وتربية جان جاك روسو واضحة كل الوضوح في تفسير النبوة وتهيؤ محمد لحمل الرسالة التي اختاره الله لها .

واذا كان محمد يمثل الحق الذي يأتي عن طريق الاتصال المباشر بالكون والطبيعة فان اهل مكة يمثلون المجتمع بما فيه من فساد واستبداد وبعد عن الحقيقة واستغراق في الجمود والبلادة !

وها هو محمد يدعو عشيرته وأصدقاءه الاقربين الى عبادة الله الواحد الأحد ويظل ثلاث سنوات يدعو سرا فلا يستجيب له الا ثلاثة عشر نفرا من اهله وأصحابه ثم يأتيه الوحي أن يجهر بالدعوة فيصدع بما يؤمر داعيا للوحدانية والحرية والمساواة بين البشر والمسؤولية الفردية والعمل الذي

هو شفيع الانسان امام الله ، مبشرا بالبعث والحساب والحياة الآخـــرة والجنة والنار .

ولكن أشراف مكة يعرضون عنه .ويستنكرون تعرضه لآلهتهم ويعذبون أتباعه ويغرون به سفهاءهم وشعراءهم وغلمانهم ، ويطالبـــون بمعجزات كمعجزات موسى وعيسى ، أن يحيل جبل الصفا وجبل المروة الى ذهب، او ينزل عليه الكتاب الذي يتحدث عنه مخطوطا من السماء ، او يظهر لهم جبريل كما يظهر له ، او يحيي الموتى ، او يسير الجبال حتى لا تظل مكة حبيسة بينها ، او يفجر ينبوعا أعذب من ماء زمزم ، او يتنبأ بأثمان السلع حتى يضاربوا على المستقبل ، ويرد الوحي بما أنزل على محمد : «قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ، ولو كنت اعلم الغيب، لاستكثرت هن الخير وما مسني السوء انأنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون» .

نعم ! ما محمد الا نذير وبشير . فكيف يطالبونه بما لا يقبله العقل وهو لا يطلب اليهم الا ما يقبله العقل بل ما يمليه ويحتمه ؟ وكيـــف يطلبون اليه ما تأنف منه النفس الفاضلة وهو لا يطالبهم الا ان يستجيبوا لوحي النفس الفاضلة ؟ وكيف يطلبون اليه المعجزات وهذا الكتاب الذي يوحي اليه والذي يهدي الى الحق معجزة المعجزات ؟! وما لهم يطلبون اليه اثبات رسالته بالخوارق ليترددوا من بعد ذلك أيتبعونه ام لا يتبعونه، وهذه التي يزعمونها آلهتهم ليست الا حجارة او خشبا مسندة او أنصابا قائمة في عرض الفلاة لا تملك لهم نفعا ولا ضرا ، وهم مع ذلك يعبدونها دون ان يطلبوا اليها ما يثبت الوهيتها !؟» .

ان الدكتور هيكل يحقق ما رواه بعض المؤرخين وخاصة المتأخريـــن منهم عن معجزات وفوارق اتى بها النبي العربي كقصة شق الصدر وفيها ان ملكين اتياه وهو لم يبلغ الثالثة من عمره في بادية بني سعد فأضجعاه وشقا صدره وأخرجا قلبه فطهراه من علقة سوداء كانت به وأعاداه مكانه فعاد الصدر كما كان .. ورحلا .

يقول الدكتور هيكل ان المؤرخين يختلفون حول هذه القصة اختلافا شديدا فبعضهم يروي القصة على لسان طفل لحليمة السعدية كان أخا لمحمد في الرضاعة وكان عمره اذ ذاك من عمر محمد لا يزيد عن السنتين الا قليلا فروايته يجب أن تؤخذ بحذر . والرواية تقول ان حليمة عادت بمحمد اثر ذلك لأمه رغم ان كتب السيرة تجمع على انها عادت به الى أمه وهو في الخامسة وهذا تناقض غير مقبول . وابن اسحاق يروي في هذه الواقعة حديثا عن النبي بعد بعثه ، لكنه يحتاط ويقول ان السبب في

رده الى أمه لم يكن حكاية الملكين وانما كان على ما روته حليمة أن بعض نصارى الحبشة رأوه وتنبأوا له بشأن كبير وأرادوا ان يأخذوه معهم الى النجاشي في الحبشة . والطبري يروي القصة لكنه يقول مرة انها وقعت لمحمد وهو في تلك السن المبكرة ثم يعود فيذكر انها وقعت قبيل البعث وسنه اربعون سنة .

وينتهي **الدكتور هيكل** من بحث قصة الملكين الى انها ضعيفة السند وان المستشرقين وجماعة من المسلمين لا يطمئنون اليها .

وهكذا يفعل **الدكتور هيكل** في باقي الخوارق والمعجزات التي تستحق التشكيك والرفض والتي رفضها القرآن كما رفضها **محمد** نفسه ففي السيرة انه وقع كسوف للشمس يوم مات **ابراهيم بن النبي** فقال بعض الصحابة انها انكسفت لموت ابراهيم وأنها معجزة . لكن النبي الكريم رسول العقل والحقيقة رد عليهم قائلا : «ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله فلا تنكسفان لأحد» .

حتى اذا وصل **الدكتور هيكل** الى قصة الإسراء والمعراج التي وردت في القرآن قال ان في العلم الحديث ما يقر الاسراء والمعراج بالروح كانتقال الاصوات عبر الاثير ونظريات قراءة الافكار مما كان يعتبر فيما مضى بعض افانين الخيال ، ولم يكن العرب من اهل مكة ليستطيعوا ادراك هذه المعاني لذلك ما لبث محمد حين حدثهم بأمر اسرائه أن وقفوا عند الصورة المادية من أمر هذا الاسراء وامكانه وعدم امكانه ، وحتى ساور أتباعه الذين صدقوه انفسهم بعض الريب فيما يقول» . فالدكتور هيكل يتفق مع جماعة من المسلمين يقولون ان الاسراء والمعراج بالروح لا بالجسد .

هكذا يغلق الكاتب الباب على بعض المستشرقين الذين وجدوا في قصص الخوارق والمعجزات مادة للطعن في **محمد** وفي الاسلام معلنا ان معجزة الرسول الحقيقية هي القرآن ليواجههم بعد ذلك فيما زعموه للنبي من اخطاء في حياته العامة او في حياته الخاصة كما قالوا بالنسبة لحديث «الغرانيق» المزعوم ، ومسألة القتال في الاسلام وزعمهم ان الاسلام انتشر بالسيف ، ومسألة تعدد زوجات النبي وقولهم ان محمدا كان مسرفا في المتعة الجسدية .

ومن عجب ان بعض المؤرخين القدامى الذين لم يترددوا في نسبة الخوارق للنبي وتصديقها ظانين ان النبوة لا تكتمل الا بها ، هم انفسهم الذين أثبتوا روايات عن خطأ فادح زعموا ان النبي قد وقع فيه حين

أوردوا حديث «الغرانيق» الذي اخذ به جماعة المستشرقين واستغلوه أسوأ استغلال في الطعن على النبي واتهامه بالتراجع امام قريش ، معتمدين في ذلك على ما رواه ابن سعد والطبري وآخرون من المؤرخين والمفسرين المسلمين .

ومجمل هذا الحديث ان **محمدا** لما راى ضراوة قريش في حربه وحرب من تبعه من المسلمين مال الى مهادنتهم بأن يذكر آلهتهم بخير ، فجلس يوما في مجلس حول الكعبة وقرأ على القرشيين سورة «النجم» حتى اذا بلغ الآية «أفرأيتم اللات والعزي ومناة الثالثة الاخرى» أضاف من غنده مجاملة لقريش آيتين فقال : «تلك الغرانيق العلي ، وأن شفاعتهن لترتجى» وسجد فسجد معه القرشيون .

والدكتور هيكل يدخل في جدل رائع مع هؤلاء المؤرخين والمفسرين المسلمين ومع المستشرقين الذين اخذوا بهذه القصة ليثبت في النهاية تفاهتها وكذبها .

ان القدماء الذين اثبتوها يروونها روايات متعددة . **وابن اسحاق صاحب اقدم كتاب في السيرة لا يتردد حين يسال عنها** في القول بأنها من وضع الزنادقة . الا انها لا تستقيم مع ما عرف عن محمد من الصدق والامانة ومع ما يجب للرسل من عصمة . وحجة اخرى ساقها من قبل الامام محمد عبده تعتمد على التحليل اللغوي ، فالغرانيق اسم طائر مائي اسود او ابيض او هي صفة الشباب الجميل ، ولم يحدث ابدا ان العرب القدماء وصفوا آلهتهم بها ، فلا شيء من صفتها يلائم معنى الآلهة أو وصفها عند العرب .

وكما يفند الدكتور هيكل هذه القصة يفند غيرها من القصص والاحكام الجائرة التي طعن بها المستشرقون في محمد وخاصة في تلك المرحلة من حياته التي تبدأ بعد الهجرة الى المدينة حين لم يقتصر على أن يكون داعيا ومبشرا فحسب، بل صار الى جانب هذا قائدا وصاحبدولة.

لقد أخذ هؤلاء المستشرقون على محمد انه اخذ يفرض الاسلام فرضا بالسيف وأنه كان عنيفا الى حد القسوة مع اليهود وهذا لا يتفق مع ما يجب في الدعوة الى الله من مخاطبة القلوب والعقول .

ويرد الدكتور هيكل على هذا بانه ليس من المتصور أن يقوم دين بالسيف . لانه ليس من المتصور أن يحمل صاحب هذا الدين سيفا ثم يسوق امامه امة الى الايمان به مرغمة ! ولا بد ان هذا السيف استطاع قبل ذلك أن ينجح في الدعوة اليه بالراي والحجة حتى صار المؤمنون

قوة تستطيع أن تحمل السيف بعد ذلك وتنتصر به . هذا اولا . ثم ان المسلمين بعد ذلك لم يحملوا السيف الا بعد ان اضطروا للهجـــرة مرتين فرارا بدينهم تاركين أهلهم ووطنهم وأموالهم متوقعين مهاجمة القرشيين لهم وتآمر المنافقين من اهل يثرب عليهم شاعرين بالظلم الذي أصابهـــم بالطرد واغتصاب المال واقامتهم في يثرب عالة على الانصار بينما قوافل قريش تروح وتجيء ما بين مكة والشام وفيها اموال مغتصبي أموالهم ، فلم لا يستردون شيئا من اموالهم ردا للعدوان وتأهبا لما قد تفعله قريش او يفعله المنافقون وحلفاؤهم في يثرب ؟

هذه هي اهم الاسباب التي دفعت المسلمين الى خوض غزوة بدر . وبين بدر وفتح مكة عدة غزوات كان القرشيون وحلفاؤهم هم البادئون بالحرب في معظمها كما في غزوة احد وغزوة الخندق .

واذن فالاسلام لم يرفع السيف الا دفاعا عن النفس «والاسلام ليس دين وهم وخيال ، ولا هو دين يقف عند دعوة الفرد وحده الى الكمال ، انما الاسلام دين الفطرة التي فطر الناس جميعا عليها أفرادا وجماعات . وهو دين الحق والحرية والنظام . وما دامت الحرب في فطرة الناس فتهذيب فكرتها في النفوس وحصرها في أدق الحدود الانسانية هو غاية ما تحتمل فطرة البشر وما يحقق للانسانية اتصال تطورها في سبيـــل الخير والكمال ، وخير تهذيب لفكرة الحرب الا تكون الا للدفاع عن النفس وعن العقيدة وعن حرية الرأي والدعوة اليه ، وان ترعى فيها الحرمات الانسانية » .

وأما موقف النبي من اليهود فهو يشهد بحلمه وسعة صدره واحترامه ومودته لكل صاحب دين وها هو يحالفهم ويعقد معهم معاهدة صداقـــة وتحالف وتقرير لحرية الاعتقاد ولكنهم رغم هذا كادوا للنبي بعد أن أسلم بعض زعمائهم وألبوا عليه قريشا .

وحين نصل الى اتهام النبي بحب النساء اعتمادا على انه تزوج تسع زوجات ما فسره بعض المؤرخين المسلمين على انه فحولة جسدية ظانين ان ذلك نوع من الكمال وتبعهم المستشرقون في هذا التفسير فقالوا انه اسراف في المتعة الجسدية . هنا يرد الدكتور هيكل ردودا ناصعـــة يبدؤها بالتساؤل هل يمكن أن نتهم محمد بالاسراف في المتعة الجسدية وقد عاش منذ أن كان في الثالثة والعشرين الى أن بلغ الخمسين مـــع أمرأة تكبره بخمسة عشر عاما على حين كان تعدد الزواج امرا شائعا بين العرب في ذلك الحين. ثم يمضي مفندا المزاعم والاباطيل في حجة ومنطق.

في منزل الوحي

بعد ان انتهى **الدكتور هيكل** من كتابه **((حياة محمد))** قال لنفسه سأظل ينقصني جوهر ما ابحث عنه اذا انا لم اذهب الى بلاد النبي العربي بنفسي واقف حيث وقف واحيط في حدود الطاقة بالبيئة العامة التي نشأ فيها النبي صلى الله عليه وسلم .. فلما ذهب الى الحجاز وشاهد ما اراد ذكر «رأيت من الخير أن أطالع القراء بكتاب مستقل يتناول ما رأيت ويتناول ما احسست به حين كررت بالزمن راجعا الى عهد الرسول وما كان بعد ذلك من حياة المسلمين في عهدهم الاول ، ثم ما اصاب البلاد الاسلامية المقدسة بعد ذلك الى وقتنا الحاضر ، مع الاشارة الموجزة الى ما أرجو أن يكون القدر قد خطه في لوحة لهذه البلاد يوم ينصر الله دينه على الدين كله» .

وهكذا رحل الدكتور هيكل ليرى آثار الرسول الكريم ، ويسير حيث سار ملتمسا ما في حياته من اسوة وعبرة ويعود ويسجلها في كتابه الضخم «في منزل الوحي» وها هو يشير في مقدمته الى ملاحظة هامة وهي الخاصة بقلة ما كتب عن بلاد النبي عليه السلام على الرغم مما لذلك من قيمة علمية .. تكشف الغطاء عن حقيقة هذه البلاد التي شاهدت الرسالة المحمدية والتي اختارها القدر لتكون منزلا للوحي والرسالة ، على نحو يقنع تفكير العصر الذي نزلت فيه هذه الرسالة .

ولهذا بدأ الدكتور هيكل يقرأ كل ما كتبه من سبقه الى زيارة هذه البلاد خاصة الرحالة ومنهم المستشرقون ، وما كتبه السلف عن المسلمين الاوائل .

وكان نتيجة قراءات هذا الكتاب الضخم الذي يصور فيه رحلته تصويرا دقيقا متناولا الجزئيات والتفصيلات والوقفات التي وقفها في بلاد الوحي ومنزله مستوحيا فيها مواقف الرسول بعد أن تجرد من نفسه وكر العصور يطويها متمثلا الهادي الكريم والمسلمين من حوله . فكأنما الكتاب رحلة روحية لا يكتفي المؤلف فيها بالوصف الحي بل نجد نوعا آخر من الوصف الادبي يمكن ان نسميه بالوصف الروحي ، وهو قريب من أوصاف الصوفية وتخيلاتهم لمنازل الوحي وأماكن النبوة ، وذلك حين يستعيد في ذهنه وعلى الصفحات صورة الرسول في غدوه ورواحه بين قومه وعشيرته او موقفه في غار حراء يتلقى أوامر ربه يناجي خالقه سبحانه وتعالى .

وتحس بالصفاء والروعة - حين تقرا هذا الوصـــف - كأنما انت المشاهد والرائي حين تطوي صفحات الكتاب العديدة التـــي تبين كثرة الاستطرادات والمجادلات التي يلجأ اليها الدكتور هيكل في كتابه هذا الذي يجمع بين جمال الاسلوب ودقة البحث الديني والتاريخي .

والكتاب مقسم الى ستة اجزاء كبيرة . في جزئه الاول يحدثنـــا الدكتور هيكل عن السفر ويستهله بهـــذه الآية الكريمة : **«وما تدري نفس مــاذا تكسب غدا ، ومـــا تدري نفس بأي ارض تمـــوت »** وكيف ان اسفار الكثيرين من اصدقائه تمثلها منذ أعلن عزمه الرحلة الى الحجاز حاجا حتى ودعوه مسافرا . ثم يحدثنا عن وسيلة السفر وكانت وقتها بالبواخر الى ان يصل الى ميناء جدة ومن بعد ذلك دخوله مكة في منتصف الليل ليؤدي العمرة . ويجيء يوم عرفات والتفكير فيما يجب قضاؤه من شعائر الحج بعد ذلك يصف لنا ايام التشريق على مـــا كان يسميها العرب في القديم والتي نعرفها نحن بأيام النحر الان .

وفي الجزء الثاني من الكتاب يحدثنا **الدكتور هيكل** عن البلد الحرام ويبدأ بمكة الحديثة فيقول : «أشرت لماماً الى ما رأيت بمكة او نزولي بها وذكرت دار مضيفي ودار وزير المالية ، وقصر الملك وصورة عمارتها . ولقد حاولت أن أجد فيها وفي المنازل التي دعيت اثناء مقامي بمكـــة لزيارتها والمنازل التي نزلت بها بضواحي مكة ما أستشف منـــه روح العصر في العمارة او في نظام الحياة فعدت من محاولتي مقتنعا بأن مكة القديمة الخالدة ما تزال بريئة من هذا الروح وان لم يبق فيها كذلك شيء من الروح العربي القديم مما تحدثنا به تواريخ مكة من عدة قرون، وغاية ما يستشفه الانسان من خلال الجياة في أم القرى اليوم فذلك ان شبابها يصبو بكل وجدانه الى الحياة الحديثة ، وان هذه الصبوة لـــم تقمه بنفيسه الا بعد ان انفصل الحجاز عن دولة الخلافة بالثورة التـــي أعلنها الحسين بن علي والتي يسمونها عهد النهضة» .

وكل الذين يفدون الى مكة هذه في اشهر الحج يفدون للصلاة فـــي المسجد الحرام .. حتى انه في يوم الجمعة يندر ان تجد هناك مسلما في مكة ويصلي في مسجد آخر غير المسجد الحرام فمن يقتنع بأن هناك مسجد أفضل من المسجد الحرام لحرام ؟ وصلاة الجمعة بالمسجد الحرام من أروع مظاهر الايمان في الجماعة الاسلامية ، هذا الايمان القوي فـــي بساطته ، البالغ في قوته ، الذي يجمع بين الحرية والنظام جمعا لم أقف على ما يقرب من رفعته في اي من المذاهب والنظم الحديثة او القديمة

التي اطلعت عليها ، ولقد رأيت في أسفاري الكثيرة ببلاد يدين اهلها بغير الاسلام من شعائر العبادة ونظم الجماعة ما فيه مهابة ورهبة ونظام . ولقد حضرت صلاة الجمعة في بلاد اسلامية شتى . ولكني لم أر في شيء من ذلك ما قد يقرب مظهره وقوة روعته ، وفي جمعه بين الحرية والنظام وبين الاعتداد بالذات والاسلام لله مما رأيت في صلاة الجمعة بالمسجد الحرام ولم يطبع شيء من ذلك كله بغير الاثر العميق في نفسي ما طبعته صلاة الجمعة بالمسجد الحرام من أثر بالغ عمقه ..» .

ثم يحدثنا عن الكعبة .. ومقام ابراهيم .. ومن بعدها زار آثار مكة، ومنها دار الارقم ودار ابي سفيان ، وغيرها من الآثار ، ويزور غار حراء وكم كان **الدكتور هيكل** فنانا حين يقدم بقلمه صورة ما شاهده عند حراء هذا المكان المقدس فيقول : «وحسبك ان تقف قبالة حراء وان تتأمله لتذكر هذا المشهد كله ولتراه مرتسما امامك وكأنه حدث منذ عهد قريب . فها هو ذا محمد يسير وحيدا منفردا حاملا من الذات ما ينوء رجل بحمله يخترق طرق مكة من جنوبها الشرقي حيث يقع اليوم شعب علي ، وحيث كانت دار خديجة الى شمالها الشرقي حيث يقوم هذا الجبل وها هو ذا على سفح حراء يصعد اليه وسيماء التفكير مرتسمة على قسمات محياه وليس فيما حوله من اسباب الحياة ما يرفه عن تفكيره او ينبهه الى جديد في الحياة ويستمر تصعيده وزاده معه حتى يبلغ قمة الجبل .. هنالك يجد ماء المطر القليل قد اختزنته بعض أخاديد شعابه ويجلس على مقربة من هذا الماء ومن غار قريب منه هو مأواه اثناء نومه ويجيل بصره فيما حوله من خلق الله ..» .

ثم يزور بعد هذا غار ثور .. ذلك الغار الذي احتمى به النبي صلى الله عليه وسلم من عدوه حين ازمع الهجرة الى المدينة ، ثم يقوم بجولة في ظاهر مكة وبينها يرى آثار اسلامية جد عظيمة ما زالت تحمل آثار وبصمات رجال الصدر الاول من الدولة الاسلامية .

ينتقل بنا الى جزئه الثالث وهو حول الطائف وآثاره وأول ما يحدثنا عنه هو طريق الطائف ووسائل المواصلات ومنها السيارات والدواب ، ثم يصل الى الطائف هذه المدينة التي تعتبر من أقدم المدن في بلاد العرب ، ولعل **الدكتور هيكل** لا يغلو من أن يحسبها هكذا أقدم مدينة في بلاد العرب اذا كانت هي بالفعل أقدم مدينة كما يروي المتقدمين من كتاب المسلمين ومفكريهم .

وينتقل الى اسواق العرب . ولا يقصد بها اسواق العرب في العصر

الحديث ، ولا عن اسواقهم في الجاهلية او صدر الاسلام وانما يقصد اسواقا ثلاثة هي (عكاظ) و(مجنة) و(ذو مجاز) .

والجزء الرابع وفيه يصف لنا طواف الوداع ويظل في هذا المكان العظيم وقتا من بعده يذهب الى مدينة الرسول حيث يقدم الجزء الخامس واول ما يتحدث فيه كان عن المسجد النبوي الشريف من بعده يحدثنا عن الآثار المقدسة الموجودة في المدينة وامام الحجرة النبوية الشريفة هذه التحية : **السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ! نشهد ان نبي الله ورسوله قد بلغ رسالة ربه وجاهد في سبيله حتى أتم له النصر لدينه ، وانه وفى بوعده وامر الا نعبد الا الله وحده لا شريك له ثم سلم على الصديق ابو بكر والفاروق عمر المدفونين في حجرة مجاورة.**

والحديث عن بدر وشهدائها يبدأ به الجزء السادس من الكتاب الذي ينهيه بالحديث عن الحياة الروحية والمادية والفرق بينهما .

وباختصار .. «في منزل الوحي» تظهر لنا نظرة الدكتور هيكل الصحفية حيث يجعل القارىء يقوم معه برحلة الى هذه البلاد المقدسة من لحظة عزمه السفر ونيته ووصوله الى هذه البقاع المقدسة الى عودته وتفكيره اثناء ذلك في الحياتين المادية والروحية حيث يقول : «اما وقد شاهدت من مظاهر الحياة الروحية حينما سرت في اثر النبي العربي الكريم ما شهدت ورايت كيف فعل الايمان الاعاجيب تجب في مواطن لولاه ما كان للانسان بها طاقة . فما بال قوم في عصور وبلاد مختلفة جحدوا الحياة الروحية وكفروا بفضل الايمان فكان ذلك عنادا منهم وجهلا أم أضلهم هواهم وغرهم بالله الغرور ولولا ذلك لرأوا من آيات الله ، ومن فضله على عباده المؤمنين ما لا يغيب عمن تامل في خلق الله ومن القى السمع وهو شهيد ..» .

الصديق أبو بكر

المعروف ان **الدكتور هيكل** كان يضمر لأبطال الاسلام الاوائل قدرا من الحب والاعجاب لا كشخصيات كاملة الايمان فحسب بل كشخصيات تاريخية استطاعت ان تقيم امبراطورية عظيمة تثير الدهشة وتدعو الى العجب يستوي هذا الحديث بالنسبة لأبي بكر صديق الرسول وخليفته وحزمه الذي قضى على الردة اذن بالفتح الاسلامي لتكوين الامبراطورية ونشر الدين الاسلامي الذي ارسل الى الناس كافة .. كل هذا حدث في

ثلاث سنوات اضطربت في التاريخ لها كتب الرواة واهل الاخبار بالاضافة الى قلة ما يروى عن عهده .. كل هذا يجعلنا نقدر مجهود **الدكتور هيكل** في التاريخ لهذا العصر .

وكان الصديـــق ابو بكر في راي **هيكل صفي محمد عليه السلام وخليله . وكان أكثر اصحابه اتصالا به وكان لذلك اكثرهم تتبعا لتعاليمه وهو بعد ذلك رجل رقيق الخلق ، رضي النفس وإليـــه ينسب عشرات الالوف بل ومئاتها من المسلمين المنتشرين في انحاء الارض ، ثم الـــى جانب رقته ورفعته الخليفة الاول وهو الذي اقـــر الاسلام حين حاول المرتدون من العرب ان يقضوا عليه** . ولهذا فحين يقـدم الدكتور هيكل كتابا عن الصديق ابو بكر فانه بذلك يكون قد مهد الطريق لكتابة تاريـخ هذه الامبراطورية كله او بعضه . ولهذا تناول سيرته من اولها .. مـــن قبيلته وأبويه وصباه وصفاته ، واخلاقه واشتغاله بالتجارة وصلته بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل الاسلام ثم اسلامه ، ووقوفه الى جانب النبي في غزواته وموقفه العظيم بعد موت النبي حين تبلبل العرب وارتدوا ثم تمهيده للفتح وللامبراطورية الاسلامية الكبرى حين تم في عهده فتـــح العراق والشام وكيف كان ينظم حكومته تلك التي كانت تعمل ثم مرضه واستخلاف عمر بن الخطاب من بعده .

ولابي بكر عظمة يكفي ان تذكر ما حدث في عهده لتتأكد من هـــذه العظمة ان فيما رواه المؤرخون من وقائع عهد ابو بكر ما ينطوي على عظمة نفسية تثير الدهشة بل الاعجاب بل الاكبار والاجلال فهذا الرجل الوديع السمح تنطوي نفسه على قوة هائلة لا تعرف التردد او الإحجام وعلى قدرة ممتازة في بناء الرجال وفي ابراز مواهبهم .

ويتساءل الدكتور في كتابه اين كانت عبقرية ابي بكر اثناء حيــــاة الرسول ويجيب قائلا :

عدت بالذاكرة الى سيرة ابي بكر قبل خلافته واستحضرت مواقفه من رسول الله فبدت لي في ثوب جديد من الجلال تحيط بها هالة مــــن عظمة تواضعت الى جانب عظمة رسول الله لكنها برزت امامي بكل بهائها وجلالها حين قرنت صاحبها الى سائر أصحاب رسول الله ومن أتبعه من المسلمين فأين مواقفهم على جلالها وعظمتها ، من مواقفه اول الرسالـــة وحين كانت قريش تنال من الله ورسول بالاساءة والاذى . وحين كـــان حديث الاسراء وأول الهجرة وفي مكافحة دسائس اليهود بيثرب ان كل موقف من هذه المواقف لكفيل وحده بأن يؤرخ لرجل وأن يثبت اسمه في

كتاب الخلود وعظمة ابي بكر مع ذلك هي العظمة الصامتة التي تأبى أن تتحدث عن نفسها لانها عظمة الروح وعظمة الايمان الحق بالله وبما أوحى الى رسله .

ثم يتساءل **الدكتور هيكل** بعد ذلك عن الجوانب الاخرى التي جعلت من **ابي بكر** عظيما وعبقريا ومنها حسن رايه وبعد نظره فهو حين ينعكر في غزو الفرس وفي غزو الروم يفكر جيدا في تكوين هاتين الامبراطوريتين اللتين قامتا على حكم الفرد وعلى نظام الطوائف وعلى التفاوت بين الناس وهذا في واقع الامر بعد نظر منه .

وحين يحدثنا **الدكتور هيكل** عن عهد **ابي بكر** وما يتميز به وعن الصعاب التي صادفها في بداية عهده والتي أثارت مخاوف المسلمين . عن كل هذا يحدثنا **الدكتور هيكل** فيقول : «وانا اقصد ما اقول حين أذكر ان عهد الصديق له ذاتيته الخاصة وتكوينه التام فهو على اتصاله بالرسول وعهده يمتاز بطابع يشخصه في عهد الرسول كان عهد وحي من عند الله أكمل الله به للناس دينهم واتم عليهم نعمته ورضي لهم الاسلام دينا» .

اما عهد **ابي بكر** فكان فترة الانتقال العصيبة الدقيقة التي تربط بين عهد **الرسول** وعهد **عمر** وتتميز مع ذلك عن كل منهما ، بل تتميز عن كل عهد عرفه الناس في تاريخ الحكم واستقراره وفي تاريخ الاديان وانتشارها .

في هذه الفترة الدقيقة صادفت **أبا بكر** صعابا بلغت من الشدة أن أثارت مخاوف المسلمين جميعا في اول عهده فلما تغلب بفضل ايمانه عليها وأمده الله بالتوفيق والنصر فيما تلاها تولى **عمر بن الخطاب** سياسة المسلمين فدبَّر أمرهم وأقام بينهم عدلا ووطد قواعد ملكهم وجعل دول العالم تدين طائعة لسلطانه .

كذلك من دلائل عظمة ابي بكر قضاؤه على ثورة الردة تلك التي استطارت عقب وفاة الرسول في بلاد العرب جميعا بسرعة مروعة كما تستطير النار في الهشيم وبلغت انباؤها اهل المدينة ممن حول ابي بكر بعد أن بايعوه فتولتهم الدهشة واختلفوا فيما يصنعون وها هو عمر بن الخطاب وقومه يرون الا يقاتلوا الذين منعوا الزكاة ما داموا يشهدون (ان لا إله الا الله وأن محمدا رسول الله) لكن **أبا بكر** أصر على قتال من منعوا الزكاة، كما أصر على قتال من ارتدّوا! فكانت حروب الردة التي استمرت عاما وبعض عام .

وعظمة **ابي بكر** تبدو ايضا في هذه الاسوة الروحية التي التمسها **ابو بكر** في رسول الله والتي جعلت للمسلمين الانتصار على المرتدين من سائر العرب قد دفعت الى نفوس المسلمين جميعا حمية سمت بهم الى الايمان بانهم لا غالب لهم من دون الله وحببت اليهم الاستشهاد في سبيل الحق وجعلتهم يرون هذا الاستشهاد نصرا دونه كل نصر .

والدكتور هيكل يوضح القوة الروحية للايمان عند ابي بكر حين يقارن عهده بعهد الرسول فيقول «كان المسلمون في عهد رسول الله مطمئنين الى النصر لان الله وعد به رسوله فكان يمده بالملائكة وكان يوحي اليه ما يحقق وعده جل ثناؤه . اما في عهد **ابي بكر** وقد انتهى الوحي باختيار الله اليه رسوله فقد أصبح الايمان وحده وأصبح التأسي برسول الله وبخليفته في السمو بهذا الايمان الى ما فوق كل اعتبار في هذه الحياة الدنيا واصبح الاستشهاد في سبيل هذا الايمان سر القوة وسر النصر وسر الرقي بما تنطوي عليه نفوسنا من معان انسانية رفيعة الى غاية الكمال الانساني » .

والدكتور هيكل حين يقدم لنا ابا بكر الخليفة والصديق يقرر ان هذا الخليفة ادرك بإلهامه ان الاسلام دين مساواة بين الناس جميعا فالدعوة به لم توجه الى قوم بعينهم وانما وجهت الى الناس كافة وقلما اصطفى رسول الله في حياته موالي رفعهم الى اعز مكانة واسماها كما اقر جماعة من العجم على حكم العرب . فسلمان الفارسي كان من خاصته المقربين وزيد بن حارثة مولاه الذي اشترته خديجة ثم وهبته له فأعتقه وتبناه . اذن فالاسلام حين سوى بين هؤلاء جميعا دين مساواة .

وكذلك ادرك ابو بكر كما يقرر الدكتور هيكل بإلهامه ان الاسلام امبراطوري في جوهره فالدعوة اليه لم تنحصر في العرب بل هي دعوة الى الحق موجهة الى الناس كافة في مشارق الارض ومغاربها . اما ذلك مداها وقد وجه النبي رسله الى الملوك والامراء يدعوهم الى دين الله حق على كل من آمن بهذا الدين ان يدعو اليه وان ينشر كلمته هدي للناس ورحمة ولكل مسلم في رسول الله اسوة حسنة . لقد اذاع رسول الله الدعوة في الناس على اختلاف أجناسهم . وعلى هذا الاساس بنى ابو بكر نظريته في ان الاسلام امبراطوري في جوهره .

هذه المبادىء الجوهرية التي قامت دعوة النبي على اساسها والتي ادركها ابو بكر ادق الادراك بالهامه هي التي طوعت للصديق ان يزلل ما استفتح عهده من صعاب وان يتغلب عليها وهي التي اسرعت كما يؤكد

الدكتور هيكل «بالامبراطورية» الاسلاميـــة الى انحاء العالم لتظـــل امما كثيرة .

الفاروق عمر

يقدم **الدكتور هيكل عمر بن الخطاب** بقوله «ليس في التاريخ الاسلامي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل تردد الالسن اسمه مثلما تردد اسم **عمر بن الخطاب** وهي تردده وتقرن به في اعجاب واكبار ما عرف عن عمر من جليل الصفات وعظيم المواهب» .

والحق ان **عمر** كان له من السمات والصفات ما يجعله اهلا لهـــذا المركز الذي وضعه فيه **الدكتور هيكل** فاذا ذكر الناس الزهد في الدنيا مع القدرة على النهل من انعمها ذكروا **زهد عمر** واذا ذكروا العمل المطلق غير مشوب بشائبة ذكروا **عدل عمر** ، واذا ذكروا النزاهة لا يفرق صاحبها بين اقرب الناس وأبعدهم عنه ذكروا **نزاهة عمر** ، واذا ذكروا العلم والفقه في الدين ذكروا فقه عمر ودينه .

والدكتور هيكل يرجع كل هذا الى قيام الامبراطورية الاسلامية في عهد عمر فقد خلف عمر أبا بكر على امارة المؤمنين حين فرغ **ابو بكر** مـــن حروب الردة وحين كانت جنود المسلمين تواجه الفرس والروم على تخوم العراق والشام فلما قبض **عمر** كانت الإمبراطورية الاسلامية قد اشتملت العراق والشام معا وتخطتهما فاشتملت فارس مصر وبذلك بلغت حدودها الصين من الشرق وافريقية من الغـــرب وبحر قزوين من الشمـــال والسودان من الجنوب وقيام هذه الامبراطورية كما يقرر الدكتور هيكل في صفحات كتابه معجزة لا ريب فيها .

فاذا تمت هذه المعجزة في عهد عمر وبتوجيهه فهو لا ريب رجل عظيم وقد بدت بوادر هذه العظمة في عهد رسول الله وفي عهد **ابي بكر** ثـــم ضاعف نصر المسلمين من بعدهما قدرها كما زادها على مر العصـــور واضاف اليها فقد تبين الناس على تعاقب الاجيال ان هذه الامبراطورية لم تكن وليدة عبقرية حربية تبقى الامبراطورية ما بقيت وتزول بزوالها بل كانت قائمة على اساس قوي من خلق متين وحضارة سليمة الاساس .

ويضرب **الدكتور هيكل** مثلا قائلا «فاذا صح أن يشيد الناس بعظمـــة يوليوس قيصر والاسكندر الاكبر وجنكيز خان ونابليون لانهم اقاموا مـــن

الامبراطوريات مما اقاموا فأحرى بهم ان يكونوا اكثر اشادة بعظمة عمـــر بن الخطاب وأكبر قدر لآثارها» .

تمت المعجزة بقيام الامبراطورية الاسلامية في عهد **عمر** فقان كـــان المسلمون الى يوم استخلف يخشون الفرس والروم ولذلـك ترددوا حين ندبهم عمر الذهاب الى العراق يواجهون الفرس فيه وكان لهم من العذر ان اسم فارس يزلزل القلوب والاسماع وكان جند المسلمين قد تركوا العراق بعد ذهاب **خالد بن الوليد** الى الشام بأمر ابي بكر وأقام الناس علـــى تثاقلهم اياما ثم لبى **ابو عبيدة الثقفي** دعوة **عمر** وذهب في بضعـــة آلاف ليلقى جنود كسرى فنكب في غزوة الجسر اذ مات وانهزم جيشه ولـــم تزعزع هزيمته من عزيمة عمر بل زادته إقداما ودفعته لينهض بنفسه على رأس المسلمين يريد مواجهة الفرس ليمحو عار تلك الهزيمة ولقد كـــان فاعلا لولا أن صرفه أولو الراي عما اراد . عند ذلك أرسل مسعد بن ابي وقاص مكانه وظفر سعد بالفرس في غزوة القادسية طفرا حاسما فتح له ابواب عاصمة الفرس وفتح المسلمون ابواب فارس . وفي هذه الاثناء كان ابو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد يسيران الى الشام يردان هرقـــل عاهل الروم على أعقابه ويدفعانه دفعا ليفر الى عاصمة ملكه .

تم ذلك ولما تنقض من خلافة عمر سنتان ومن يومئذ حالف النصر اعلام المسلمين حينما ساروا ففتحوا المدائن وفتحوا بيت المقدس ثـــم تخطوا العراق الى فارس وتخطوا الشام الى مصر كما استقر لهم الامـــر فيها . وكذلك شاد عمر الامبراطورية الاسلامية في عشر سنوات لتستقر في العالم وتوجه حضارته الاجيال والقرون .

اذ كان للدكتور هيكل الحق في ما قاله بأن الالسن تردد أسم عمـــر وأن تذكر من جليل صفاته وعظيم مواهبه ما يثير في النفس غايـــة الاعجاب والاكبار .

وقد تناول الدكتور هيكل في كتابه هذا كما تناول «في حياة محمد» وفي «الصديق ابي بكر» نواحي الحياة العربية لذلك العهد رأى من تناولها مـــا يكمل به ما عرض له من بحث ولكن لم يتناولها بدراسة مستفيضة كمـــا يعترف قائلا «لانها لم تكن غرضي الذي قصدت اليه به تناولتها بالقدر الذي يتم به هذا الغرض» .

وهذا الكتاب كما يقول عنه صاحبه حلقة ثالثة بعد «حياة محمـــد» و«الصديق ابو بكر» لكنها تختلف عن الحلقتين الاوليين كما تختلف كـــل واحدة من هاتين الحلقتين عن الاخرى اختلافا ظاهرا . هذا مع توالـــي

الحلقات الثلاث كل واحدة عن سابقتها كما تخرج الجذور من البذور ثم ينبثق الجذع باسقا من البذور ثم تتفرع الاغصان من الجذع . وقد تذبل الاغصان ويبقى الجذع مع ذلك قوى الحيوية . فاذا كانت الامبراطورية الاسلامية ـ على حد قول الدكتور هيكل في كتابه هذا ـ قد انقسمت فلا يزال الاسلام الذي انشأها قديرا على ان ينشىء وحدة انسانية عظيمة تلائم روح العصر ونظامه .

والكتاب صورة مجملة من حياة عمر ومن تصرفاته مفصلة تفصيلا صورة تدلك على ما كان لشخص عمر من فضل في بناء الامبراطورية العظيمة في هذا الزمن الوجيز الذي قامت فيه وتكشف لك عن السبب الذي ابقى على التاريخ اسم هذا الرجل العظيم يتحدث عنه على مر الاجيال في مشارق الارض ومغاربها حديث اكبار واعجاب .

غير ان هناك ملاحظة ويجب ان نذكرها وهي ان ما فصل في هذا الكتاب لم يتخط التاريخ السياسي لهذه الفترة القصيرة من حياة المسلمين الاولين اما ما جاء في فصوله عن حياة العرب الاجتماعية وعن الفرس والروم فانما جاء مجملا اراد به المؤلف ايضاح هذا التاريخ السياسي ولم يقصد به الى تفصيل ما حدث من تطور الحياة الاجتماعية في بلاد العرب بقيام الاسلام ولا الى تفصيل الحياة السياسية نفسها في البلاد التي فتحها المسلمون . كذلك لم يتناول الفصل الذي أفرد لاجتهاد عمر تفصيل هذا الاجتهاد . وقد تناول بعض العلماء والباحثين في عصرنا طائفة من هذه النواحي ببحوث ممتعة أيما امتاع .

عثمان بن عفان

بدأ الدكتور هيكل هذه الدراسة عن عهد عثمان بن عفان سنة ١٩٤٥ قاصدا بذلك المعنى في دراساته الاسلامية التي بدأها بكتابه «حياة محمد» ولقد كانت ظروف حياته السياسية منذ خاض غمارها وزيرا يتحكم الى حد بعيد في انتاجه الفكري والادبي . فقد كان من خطته الا يصدر كتابا في اثناء توليه الوزارة . هذا الى جانب ان وقته في اثنائها لم يكن يتيح له أن يستكمل ما يكون قد بداه من دراسة فيضطره ذلك لارجائها الى الوقت الذي يتفرغ لها فيه . وكان هذا شأنه ابان توليه رئاسة البرلمان . وقد أدى ذلك الى ارجاء دراسة ما تبقى من عهد عثمان عاما بعد عام

حتى اصبح الرجوع اليها بعد ذلك امرا غير ميسور .

على ان ثمة عاملا آخر وقف الدكتور هيكل عنده طويلا قبل ان يمضي فيما كان قد بداه من هذه الدراسة وادى به كذلك الى ارجاء النظر فيها ـ كما يقول ابنه الاستاذ احمد هيكل ـ ذلك ان الجدل بين الفرق الاسلامية في أمر خلافة عثمان واحقية علي بالخلافة لما ينتهي رغم انقضاء ثلاثة عشر قرنا او تزيد منذ ولي عثمان امر المسلمين ورغم ما اصاب نظام الخلافة نفسه من تحول لم يبق لها من معالمها غير اسمها ثم انتهى بها الى الاندثار في أعقاب الحرب العالمية الاولى .

فقد بلغ الامر ببعض هذه الفرق ان حاولت التشكيك في شرعية خلافة ابي بكر وعمر ، ورأوا ان الخلافة كانت حقا لعلي اوحى له بها رسول الله من بعده .

وهذا التطرف الذي تذهب اليه تلك الآراء معيب بغير شك لانه يتعارض تماما مع ما يدعو اليه الاسلام من ان المؤمنين به سواسية وانهم لذلك يتساوون في الحقوق والواجبات العامة ، وولاية الامر من بينها لمن كان أهلا لها .

وقد وقف الدكتور هيكل عند هذا الجدل الذي بلغ حد الخصومة العنيفة وبحثه في استفاضة واغلب الظن انه لم يقطع فيه براي او يطمئن الى نتيجة فلو انه انتهى الى شيء بعد ذلك لكان وأفعاله الى متابعة هذا البحث ونشره وان ادى ما يرجحه فيها من وجهات نظر الى جدل لا يعرف مداه .

على انه لا ريب في ان ما ذهب اليه البعض من ان الرسول أوصى لعلي بالخلافة من بعده . ومن ان ذرية على أحق . لذلك بها لم يكن ليزعزع ثقة الدكتور هيكل في حق المسلمين في اختيار حاكمهم اختيارا حرا مبرأ من كل قيد ، او من اعتقاده بأن الخلاف في ذاته كان ضرره على المسلمين اضعاف نفعه ان كان له نفع على الاطلاق .

والمتتبع لخطة **الدكتور هيكل** في تأريخه للرسول وخليفتيه الاولين **وميله في ذلك الى الطريقة التحليلية يرى انه لم يحد في هذا الكتاب عنها، بل انه ازداد تمسكا بها ـ وركونا اليها .**

فهو قد تناول في الفصل الاول منه ملابسات اختيار الخليفة الثالث للقيام بأعباء الحكم والناس لم يفيقوا بعد من الذهول الذي اصابهم لمصرع امير المؤمنين **عمر بن الخطاب** وهو لم يقتصر في هذا الفصل على اثبات ما حدث من اجتماع الستة الذين حصر عمر فيهم الخلافة من بعده ، وما

اثير فيه من مناقشات بل انه اشار الى منشأ فكرة الشـــورى عند **عمر** وكيف انه تردد بين ان يترك امر تعيين الخليفة للصحابة يتشاورون فيه بعده اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين أن يعين خليفتـه اقتداء بأبي بكر حين جمع رأي الصحابة عليه . ولقد كان التطور الـذي شهدته الدولة الاسلامية منذ عهد الرسول ومنذ عهد ابي بكر يقتضي ألا يترك الامر رسلا ، فانتهى **عمر** الى نظام الشورى نواة لنظام تشريعي مرن لاختيار الخليفة يتطور بتطور ظروف الدولة وأوضاعها السياسية . وقد اتاحت المرونة التي تميز بها هذا النظام ان يتسع نطاق المشاورات وألا يقتصر على الستة الذين عينهم عمر وأمكن بذلك التوفيق بين الاتجاهات المتعارضة توفيقا كان لا بد منه ليضمن الشورى مبايعة الناس مـــن يختارونه من بينهم . وقد اعطى وصف هذه المشاورات وموقف الناس منها ولهفتهم على نتائجها لهذا الفصل حيوية تكاد نشهد معها احداث ذلك اليوم العظيم .

وإذ تجتمع البيعة **لعثمان** ، يبحث **الدكتور هيكل** في ملامح الخليفـة الجديد وفي طباعه وفيما يمكن ان تؤثر فيه هذه الطباع في سياسة الدولة في عهده . ذلك ان لشخصية الحاكم في جميع العصور أثرا بالغا فـي سياسة الدولة وتصريف امورها. وقد شهد المسلمون من عدل **عمر** وحسن سياسته ما يعكس كثيرا من طباعه . افسيكون لعثمان في سياســـة الدولة من الاثر ما كان لعمر ؟ ذلك ما سيتكشف خلال حكمه وخلال مـا يلي من فصول هذا الكتاب .

وقد تابع عثمان اول عهده سياسة الرسول والشيخين ما استطاع الى ذلك سبيلا ، لعهد قطعه على نفسه حين بويع ان يجري على هذه السيرة. ويتمثل ذلك بوضوح في سياسة الفتوحات في عهده . فقد كانت تلك السياسة امتدادا لسياسة عمر وان كان كل ما حدث من انتفاض بعض الولايات وثورة بعضها قد حتم على عثمان ان يسير الجيوش لقمعهـــا والقضاء عليها. كذلك كان حتما عليه أن يبادر الى تجهيز اسطول المسلمين بالشام ومصر ليرد المغيرين على اعقابهم ، رغم ان **عمر** كان قد نهى عنه اذ لم يكن للعرب عهد بالبحر من قبل . ولعل ما اتاه **عثمان** من ذلك ومـــن مثله لم يكن مخالفة للعهد الذي **قطعه** على نفســه . وانما املته ظروف لو ان **عمر** شهدها لرأى فيها مثل ما رأى **عثمان** ، وقد فصل **الدكتور هيكل** في الفصل الثالث من الكتاب سياسة **عثمان** هذه بما يشهد بذلك ويؤيده.

على ان ما خالف به **عثمان عمر** لم يكن ليثير عليه احدا لو انه اقتصر

على ما كان ضروريا من ذلك ـ الا انه ـ وولاته ـ عمدوا ، ازاء اتساع رقعة الامبراطورية وازدياد فيئها وخراجها الى نوع من الحياة لم يألفه الناس ، كما انه سلك في تولية هؤلاء الولاة وعزلهم طريقا لم تكن لترضي الكثير عنها . والراجح في هذا الشأن ان **عثمان بن عفان** ابقى عمال عمر على ولاياتهم العام الاول من خلافته انفاذا لوصية سلفه ثم انه استبدل بهم غيرهم . اكثرهم من ذوي قرباه ليضمن ولاءهم . ولو لم يكن ذلك من سيرة **عمر** في شيء . بل ان هذه القرابة كانت تكفي **عمر** الا يولي صاحبها من لا يتهم في نزاهته .

ولما توفي **الدكتور هيكل** قام الدكتور جمال الدين سرور استاذ التاريخ الاسلامي بكتابة الفصل الاخير عن نهاية حياة **عثمان** ، ومنه يبدو جليا ان الفرقة بدأت تدب في صفوف المسلمين في أواخر عهد عثمان وان سائر الولايات بدأت تعبر عن استيائها بشتى الوسائل وأن تضامن من بقي من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ظل مع ذلك قائما قويا ، وتبلور هذا التضامن في رفضهم ان يبايع الثائرون احدهم للخلافة عملا بقول الرسول : «من دعا لنفسه او لاحد وعلى الناس إمام فعليه لعنة الله فاقتلوه » .

الامبراطورية الاسلامية

اراد **الدكتور هيكل** ان يؤرخ تأريخا صحيحا للامبراطورية الاسلامية من منشئها الى بداية قيام الدولة الاموية ويظهر هذا التاريخ بصورته المشرقة باعتباره ثمرة لغرس **محمد** ودينه ليكون مادة طيبة للوحي والاستلهام لحضارة جديدة اساسها ان معرفة الماضي وسيلة لتطوير الحاضر وتحسين المستقبل على النحو المشرق الذي يرجى للاقطار العربية.

فسجل اول ما سجل لهذه الامبراطورية في كتابه الاول عن الاسلام **((حياة محمد))** ويبدو انه اراد ان يخصص لها كتابا . وهنا قدم كتاب **((الامبراطورية الاسلامية والاماكن المقدسة))** والكتاب من عنوانه تجتمع بين دفتيه مباحث في موضوعين أساسيين .

اولهما : نظام الحكم في الاسلام .

وثانيهما : الاماكن المقدسة في الشرق .

وقد بحث **الدكتور هيكل** في الجزء الخاص بالمبادىء العامة لنظام

الحكم ان ان نظام الحكم الذي يتفق مع مقررات الاسلام هو النظام الذي تكفل في ظله الحريات ويتخذ لنفسه اساسا من رضى المحكوم عن الحاكم . وقد تناول الجزء الثاني فكرتي الاشتراكية والديمقراطية في الاسلام وقد خلص **الدكتور هيكل** الى ان الاشتراكية الاسلامية هي التي تقوم بالنفس على انها من فرائض الايمان .

وفي الجزء الثالث تناول الدكتور هيكل بالبحث المبادىء الرئيسية للحرية الشخصية التي قامت على اساسها مواثيق التنظيم الدولي في اعقاب الحرب العالمية الثانية . مبينا ما بينها وبين مقررات الاسلام من صلة تقرب او تبعد بينهما ثم ينتقل بنا الكتاب الى جزئه الاخير الذي يكاد يستقل موضوعه عن الاجزاء السابقة فهو يعرض للاماكن الاسلامية في الشرق الاوسط عرضا تاريخيا اولا ثم يصف هذه الاماكن واثرها الروحي في حياة العالم متنقلا بك من مكة الى المدينة الى بيت لحم وبيت المقدس مستقر عيسى عليه السلام وموئل موسى عليه السلام .

الكتاب يطوف بك في هذه الامبراطورية الاسلامية موضحا لك معالمها ومبادئها معا .

***

والآن لعلنا نكون على يقين من ان منهج الدكتور هيكل وكتبه اضافت الى الفكر العربي بوجه عام اساليب جديدة في البحث وللفكر الاسلامي بوجه خاص حججا قوية يستطيع ان يقف بها ضد خصومه وهذا ما كان يهدف اليه بعد عودته من اوربا حين فكر في كتابة التاريخ بأسلوب قصصي على نحو ما فعل «سير وتم سكوت» بتاريخ انجلترا .

الفصل الخامس

اسلاميات العقاد

ثلاثون كتابا او تزيد .. هـــي صورةحية لفكر العقاد الاسلامي.. فيها حياة وقــوة ، فيها عظمـــة وشموخ، فيها خصب ونماء ، فيها ثورة وتمرد .. الامر الذي يجعل العقل يهتز .. هذه الهزة القادرة وحدهـــا .. على انتشاله مـــن سطحية المعرفة الى عمق العلم ومن ظلمة الشك الى نور اليقين .

اسلاميات العقاد

في محاضرة بجامعة الازهر .. سأل الطلبة أستاذهم أحمد حسن الباقوري ، وكان وقتها مديرا للجامعة .. عن رأيه في كتابات الاستاذ عباس محمود العقاد الاسلامية وموقفه منها كازهري . فكان نص اجابة الشيخ الباقوري الذي نشر فيما بعد بإحدى المجلات الاسلامية الكبرى ما يلي : «الاستاذ العقاد مجاهد صادق بعيد النظر ، غيور على الاسلام والمسلمين ، غيرة عاملة وليست ثرثارة جامدة كأكثر أنواع الغيرة التي نشهدها في دنيانا الان ..» .

والاستاذ العقاد ازهري بتخرجه على ثقافة الازهر ، وان لم يكن ازهريا بتخرجه في الازهر . فقد كان رحمه الله بهذه الثقافة العربية الاسلامية الاصيلة الى جانب ثقافته الغربية المتينة . خير لسان للعروبة والاسلام بما كتب من كتب ومقالات ، وأذاع من أحاديث تدفع عن العربية أوهام المبطلين وعن الاسلام شبهة المغرضين .

وقد صدر عن مدرسة الاستاذ العقاد في كتبه ومجالسه فضلاء كثيرون سوف تبرزهم الايام لتنتفع بهم امتنا أحسن الانتفاع ان شاء الله..»

هذه شهادة واحد من طليعة المتخصصين فيما كتبه الاستاذ العقاد . وما أظن ان هناك رأي آخر يمكن ان يقال فيما كتبه الاستاذ العقاد خيرا من هذا الرأي . ولا يبقى اذن غير مناقشة ما كتبه الاستاذ العقاد في الاسلام .

ولما كان الاستاذ العقاد يختلف عن غيره فيمن كتبوا في الاسلام حيث

استخدم في تناول المادة الاسلامية ثلاثة مناهج مختلفة .. وجب أن يدرس كل منهج على حدة .

فالاستاذ العقاد حين يكتب العبقريات غيره حين يترجم للشخصيات غيره حين ينشيء الدراسات والابحاث . ولعل ما يربط بين عبقرياته وشخصياته ودراساته وأبحاثه هي صفته كأديب مؤرخ .. وأدبه في التاريخ هو كأدبه بوجه عام .. هذا الادب الذي يتميز عن غيره من الآداب .. بأنه ادب الفكرة الواعية .

ولهذا فالبحث فيما كتبه الاستاذ العقاد عن الاسلام يقتضي التمييز بين تناوله للعبقريات والشخصيات والدراسات ، وهذا يقتضي ايضا تناول كل واحدة على حدة . لمعرفة منهج العقاد في كتابة الاسلاميات .

اولا : العبقريات

في البحث عن منهج للعقاد في تناوله العبقريات .. نجده يهتم أولا بل ويجهد نفسه **ويرهقها لايجاد مفتاح للعبقري الذي يتعرض له . وبهذا المفتاح يفتح الاستاذ العقاد مغاليق نفس هذا العبقري ليعرف مدى عظمته وحدودها ، وما يصدر عنها من افعال وتصرفات وقيمتها بالنسبة للانسانية عامة .**

وهذا بالطبع يتطلب من الاستاذ العقاد الفهم الواعي لمفتاح هذا العبقري .. امرا يجعله يقوم بالتحليل النفسي الدقيق لهذه الشخصية التي يراها عبقرية، ثم بالاحاطة الشاملة لملابسات العصر الذي عاشت فيه.

وقد يحدث ان يتشابه مفتاح احدى شخصياته مع مفتاح شخصية اخرى . وهنا يكد الاستاذ العقاد ذهنه في البحث عن اختلاف في السلوك الانساني ــ بوجه عام ــ لهاتين العبقريتين المتشابهتين في المدخل .

فعند البحث مثلا عن مفتاح لعبقرية عمر بن الخطاب وجده في طبيعته كجندي . ونفس هذا المفتاح «طبيعة الجندية» وجده لعبقرية خالد بن الوليد . وهنا يوضح الاستاذ العقاد الفرق بين العبقريتين حين يجعل عمر تغلب عليه من طبيعة الجندية ناحية «الروحية» ، بينما تغلب على خالد من هذه الطبيعة ناحية «الحيوية» او بعبارة اخرى كانت جندية ابن الخطاب «موزعة حكيمة» بينما جندية ابن الوليد «مدفوعة هاجمة» .

لكن من هو العبقري عند العقاد ؟

العبقري عند العقاد ؟ انسان يقيس الاشياء بمقياسه الخاص الذي يعلو على مقاييس العامة ، ويأخذ نفسه به ، وانه انسان لم يخلق لخدمة نفسه او أسرته او عشيرته وكفى ، بل هو من خلق لخير انساني عام ، وأوتي من القوة ما يخدم به غيره ، ولو اتخذ هذا الخير الانساني العام صورة عالية او قومية او وطنية او قبلية .

والعبقرية عنده تنمو على البذل والعطاء ، ولا تتسورم بالنهب او السلب او الجور على حقوق غيرها حتى تنفجر .. باختصار عظمة العبقري عند الاستاذ العقاد هي التي تقول «نحن» ولا تقول «انا» مبثورة الجذور والفروع عما حولها .. وحتى لو سمعت منها «انا» فلا تفهم من معناها الا «نحن» .

فاذا كانت هذه هي الصورة العامة لمنهج الاستاذ العقاد في كتابة الاسلاميات فان تفاصيلها منهجه في الكتابة تقول :

ان الاستاذ العقاد حين يكتب عبقرياته لا يكتفي بالعرض الفوضى او المنظم تنظيما آليا او شبه آلي ، بل ينسق الملامح البارزة في كل صورة وينفخ فيها من روحه وروح هذا العبقري الذي يكتب عنه فيحييها في نفوس قرائه حتى يعاطفوا عبقريته ، فيجدوا في نفوسهم آثار فضل كفضلها ، ويلموا بجمل من لغتها . ومن ثم يشعر القارىء بالغبطة لانه يرى انه قد ارتفع فوق نفسه ، وحلق في أفق أعلى مما اعتاد ان يحلق فيه من آفاق . بل يمتلىء من العبقرية بأكثر مما أداه العقاد اليه . ويلقن عن آياتها اكثر مما لقنه ، ويضرب بجناحه في أفق اعلى مما اراد له العقاد أن يحلق . ذلك ان العقاد في عبقرياته لا يقصر خطابه على عقل قارئه ، بل يحرك كل حياته ، ويستجيش كل ما تشتمل عليه من عطف وشعور وخيال وبداهة وتأمل وتفكير .

والاستاذ العقاد يبرز عبقرياته كما يبرز كتاب «المآسي» أبطالهم . فيستميلون اليهم . ومن هذا التشيع لبطل المأساة تتطهر النفوس من أدرانها . وهذا الجانب هو الذي يحركه الاستاذ العقاد في نفوس قراء عبقرياته فيشيعوا معه الى جانب «العبقرية التي يكتب عنها» بالقدر الذي يمضي بهم اليه وكثيرا ما يذهبون في التشيع للعظيم الى أبعد ما كان يريد العقاد . والسبب في هذا اسلوب العقاد وتعبيره عن أفكاره فما من عبقرية من عبقرياته الا وهي قصيدة شعرية ينقصها الوزن والقافية ، ولكن لا ينقصها صدق الشعور ولا جمال التعبير بل لا ينقصها التنغيم

النفسي الذي يكاد ان يدفع الانسان الى التغني بها والرقص على انتظام انغامها في النفس .

والعقاد لا يكتب حياة عبقري او يصور صورته الا وهو داخل معه في اهابه ، متلبس به «متشكل بشكله» ، وهو يحيا معه حياته بكل ما تشتمل عليه من قوة وضعف ، فيقف على أسراره من داخل نفسه هو ، لا من مجرد ما ينسب اليه من اخبار واعمال واقوال سواء كانت صحيحة او منحولة . لذلك ترى شخصية العقاد أمامك في كل عبقرية مع شخصية صاحبها يتحركان معا .

والاستاذ العقاد لا يتحفظ في الثناء على «العبقري» او اعماله خوفا من الاتهام بالمبالغة طالما وجد ما يستحق منه ثناءه لكن على الرغم من ثناء العقاد . فاننا نجد روح الاعجاب والعطف لا تعطل ملكة النقد عنده او تضعفها بل تراها ناشطة متوهمة بملء قواها ، فملكة النقد عنده من اقوى ملكاته وابرزها ، وروح النقد ظاهرة جياشة في كل ما يصدر من كتابات .

وبهذا المنهج جملة وتفصيلا كتب العقاد عبقرياته وهي «عبقرية محمد» و«عبقرية عمر» و«عبقرية الصديق» و«عبقرية الإمام» و«عبقرية خالد» .

عبقرية محمد

وها هو العقاد يشرع في كتابة «عبقرية محمد» فيقدمها قائلا : «سيرى القارىء ان «عبقرية محمد» عنوان يؤدي معناه في حدود المقصود ولا يتعداها . فليس الكتاب سيرة نبوية جديدة تضاف الى السير العربية والافرنجية التي حفلت بها «المكتبة المحمدية» حتى الان .. لاننا لم نقصد وقائع السيرة لذاتها في هذه الصفحات على اعتقادنا ان المجال متسع لعشرات من الاسفار في هذا الموضوع ثم لا يقال انه استنفد كل الاستنفاد .

وليس الكتاب شرحا للاسلام او لبعض أحكامه او دفاعا عنه او محاولة لخصومة .. فهذه اغراض مستوفاة في مواطن شتى ، يكتب فيها من هم ذووها ولهم دراية بها وقدرة عليها .

انما الكتاب تقدير «لعبقرية محمد» بالمقدار الذي يدين به كل انسان ، ولا يدين به المسلم وكفى ، وبالحق الذي يبث له الحب في قلب كل انسان ، وليس في قلب كل مسلم وكفى .

محمد هنا عظيم .. لانه قدوة المقتدين في المناقب التي يتمناهـــا المخلصون لجميع الناس .. فالعقاد يبدأ بداية علمية فيقرر انه لن يعتمد على المعجزات والخوارق التي ينسبها بعض المؤرخين الى النبـــي ، لان عظمة النبي تظهر في أعماله وسياسته للامور اكثر ما تظهر في تلـــك المعجزات التي لا يتفق عليها الجميع ، والتي لا تنسجم مع رسالة محمد في تحرير العقل من ربقة التقليد والوثنية .

وهنا يلتقي **العقاد مع الدكتور هيكل** في عدم تعويلهما على الخوارق ولكنهما اذ يتفقان على ان كل ما جاء به محمد يتفق مع العقل ، فهمـــا يختلفان في شيء آخر ، هو طريقة الرسول في مخاطبة العقل .

الدكتور هيكل يرى ان هذا الخطاب كان خطابا مباشرا يتجه الى عقول الناس التي تملك من الفطرة والتجربـة ما يمكنها من التفريـــق بين الحق والباطل .

والاستاذ العقاد يرى ان هذا الخطاب كان غير مباشر لانه كان يتجسد في اعمال النبي وسلوكه ، اي في شخصه العظيم .

واذا كان بعض المفكرين المسلمين ومنهم الامام **محمد عبده والدكتور هيكل** يرون ان ايمان الانسان بالله سابق على وجـــود الانبياء لانه كيف يصدق رسالة النبي اذا لم يؤمن اساسا بوجود الله الذي يبعث النبي ، وكـان **العقاد** يرى ان محبة الناس لشخص الرسول كانت سابقة فـــي قلوبهم وارواحهم لحب العقيدة والايمان ، او انهم احبوا الرجل الـــذي تمثلت فيه العقيدة على أكمل مثال ، فانبهروا بالرجل المثال وآمنوا بالعقيدة التي بدت أمامهم ممكنة بل متحققة .

والانسان العبقري او الانسان البطل هو محور اهتمام العقاد كله . العقاد الشاعر والمفكر والناقد والقصاص والسيامي ، وحتـــى العقـاد الانسان . فالبطولة الانسانية عند العقاد تقف في مقابــــل الضرورات الطبيعية والقوانين الحتمية المالوفة . الانسان في مقابل الطبيعة . الفكر والارادة في مقابل الغريزة والضرورة . ومن هذه الفكرة التي ربما تأثر فيها بالفلسفة المثالية الالمانية تفرع كل أفكار العقاد .

فالعقل لخلق المادة وليس العكس «لان المادة لا توجد ما هو أفضـــل منها وفاقد الشيء لا يعطيه» .

والله موجود ، لان «تفسير الخليقة بمشيئة الخالق العالم المريـــد اوضح من تفسير يقول به الماديون ، وما من مذهب اطلعت عليه مـــن مذاهب الماديين الا وهو يوقع العقل في تناقض لا ينتهي الى توفيق ، او

يلجئه الى زعم لا يقوم عليه دليل ، وقد يهون معه تصديق اسخف الخرافات والاساطير فضلا عن تصديق العقائد الدينية .وتصديق الرسل والدعاة . فالقول بالتطور في عالم لا اول له ، خرافة تعرض عنها العقول لان ابتداء التطور يحتاج الى شيء جديد في العالم ، وحدوث التطور بغير ابتداء تناقض لا يسوغ في اللسان فضلا عن الفكر او الخيال . والقول بالارتقاء الدائم عن طريق المصادفة زعم يهون معه التصديق بالخرافات وخوالق العادات في تركيب الاجسام او الاحياء» .

العقاد يرى النبي عظيما وعبقريته هي التي فتح بها قلوب الناس كما فتح البلاد والامصار هي سليقة نفسية وطبيعة فطرية لا بسد للبيئة او المجتمع او للعصر في صنعها لذلك لم ينس أن يمهد لها بفصلها عن أوضاع العالم الذي ظهر فيه **محمد** وأوضاع القبيلة والاسرة التي نشأ فيها .

والعقاد يرفض رفضا قاطعا كل ما يقال عن تأثر **محمد** بما كان يضطرب به العصر من عقائد وأفكار ، او انه كان التعبير الفذ عن جملة التيارات الجديدة التي أدركها ولباها . يقول **العقاد** لا . انه لم يكن ثمرة عصره . بل كان رد .فعل العصر . لقد ظهر بالرغم من هذا العصر الذي لم يكن الا ما يناقض محمدا ويناقض رسالته . كان العصر عصر شرك والاسلام دين توحيد ، وكان عصر صراع قبلي عشائري والاسلام حركة جمعت في أمة «وكان عصر صراع قومي والاسلام دين انساني ، وكان عصر قلق واضطراب وقد جاء الاسلام ليحل محل ذلك الامن والسلام ، وكان عصر خرافة ودجل والاسلام يخاطب العقل ويستند اليه .

والاستاذ العقاد يقارب بين قيادة النبي للحروب وبين قيادة اساطين الحرب ، في العصر الحديث ويثبت سبق النبي الى كثير من طرق الحرب الحديثة مثل سبقه لنابليون في اهماله لحصار المدن وأعتماده على مهاجمة القوة الضاربة للاعداء وتحطيمها بهجمة سريعة .

ولقد كان **نابليون** يقول : ان نسبة القوة المعنوية الى الكثرة العددية كنسبة ثلاثة الى واحد ، فسبقه النبي الى الاعتماد على القوة المعنوية حين جعلها كنسبة خمسة الى واحد كما حدث في غزوة بدر .

كما ان النبي القائد قد سبق **هتلر** في وسيلة من وسائل الحرب الحديثة وهي اسقاط بعض الفدائيين وراء صفوف العدو يرسلون أخباره ويوقعون الرعب في صفوفه ، وهو ما فعله **النبي حين أرسل عبد الله** بن جلش ليأتي اليه بأخبار قريش .

واذا كان النبي قد سبق **نابليون وهتلر** فـي بعض الخطط الحربية ، فقد سبق بعض ساسة العصر الحديث وزعمائه في خططهم السياسية .. سبق **غاندي** في فكرة «المقاومة السلبية» وذلك في عهد الحديبية الذي تعاهد فيه على ترك اعمال العنف بين المسلمين وبين قريش الى حين . كما يسبق الدساتير الحديثة التي تنص على ان «الامة مصدر السلطات» حين يقول «كما تكونوا يولي عليكم» ويسبق احرار الفكر المعاصرين فـي قوله : «ان الله تجاوز لأمتي عما حدثت به نفسها ما لم تتكلم به او تعمل به» .. ويسبق المصلحين الاجتماعيين في تقريره لحقوق المراة . والعقاد يقارن بين ما يقرره الاسلام للمراة من حقوق بما في ذلك حقها في أن تعلم الناس الدين وبين حقوق المراة في المجتمعات الحديثة خلال القرن الماضي فيرى ان المراة المسلمة كانت الى القرن الماضي تتمتع بما لا تتمتع به المراة الاوروبية ، فمنذ بضعة وثمانية عاما فقط كانت المراة الاوربية محرومة من حقها الكامل في ملك العقار وحرية التقاضي وهو ما قرره الاسلام للمراة منذ اربعة عشر قرنا .

وبينما كانت المراة الاوربية في عصر الفروسية وهو العصر الـذي اشتهر باحترامه للمراة ــ تزف الى الرجل فجأة لتسهيل المحالفـات الحربية والصفقات ، كان النبي يقول للمسلمين قبل ذلك بعدة قرون : «اذا خطب احدكم المراة وهو يخضب بالسواد فليعلمها انه يخضب» اي فليصارحها بأنه يصبغ شعره !.

والعقاد يطيل في شرح موقف الاسلام من المراة ، وهو يفند الاتهامات التي وجهها بعض المستشرقين الى النبي حين ردوا زواجه المتعدد الى غرامه بالنساء فيقول من جملة ما يقول : «ان زواج محمد بتسع نساء ليس دليلا على الافراط الجنسي كما ان عدم زواج المسيح عليه السلام ليس دليلا على القصور الجنسي» .

عبقرية الصديق :

في تقديمه لكتاب «**عبقرية الصديق**» يقول **العقاد** : «انـني لا اكتب ترجمة للصديق رضي الله عنه ، ولا اكتب تاريخا لخلافتـه وحوادث عصره ولا اعني بالوقائع من حيث هي اخبار ، فهذه موضوعات لـم اقصدها ولم أذكر في عناوين الكتب ما يعـد القارىء بها ويوجـه استطلاعه اليها ...» .

اذن ماذا كان يقصد العقاد بعد ذلك من تاريخه للصديق ابو بكر ؟

انه يقصد ان يرسم صورة نفسية تعرّفنا به وتجلو لنا خلائقه وبواعث أعماله ، كما تجلو الصورة ملامح من تراه بالعين ، فلا تعنيه الوقائع والاخبار الا بمقدار ما تؤدي في رسم هذه الصورة النفسية .

وقد يخطف انتباه العقاد حادثا صغيرا يستحق منه التقديم على اكبر الحوادث اذا كانت فيه دلالة نفسية اكبر من دلالته ، ولمحة مصورة اظهر من لمحته ، بل لعل كلمة من الكلمات الموجزة التي تحيي عرضا في بعض المناسبات تتقدم لهذا السبب على الحوادث كبيرها وصغيرها في مقياس التاريخ .

وحين يتصدى العقاد للكتابة عن عبقرية الصديق يرجو ان تكون الصورة التي يقدمها عن هذا الخليفة صورة صادقة كل الصدق في جملتها وتفصيلها .

وها هو يبدأ كتابه بالبحث في اسمه ووصفه وصفاته ، ولماذا كان هذا الصديق الاول ولماذا اختاروه الخليفة الاول . ويتطرق العقاد بين كل ذلك الى البحث عن مفتاح لشخصية هذا الرجل العظيم ليسهل بعد ذلك دراسته .

ومفتاح الشخصية عند العقاد هو أداة صغيرة يفتح لنا أبوابها وتنفذ بنا وراء أسوارها وجدرانها وهو يشبه الى حد كبير مفتاح البيت كالحصن المغلق ما لم تكن معك هذه الاداة الصغيرة التي قد تحملها في أصغر جيب ، فاذا عالجته بها فلا حصن ولا اغلاق .

وبعد البحث عن مفتاح لشخصية الصديق يجده العقاد مفتاح الاعجاب بالبطولة .. وهذا الاعجاب بالبطولة هو الدسم الذي يقتسم به كل عمل من اعمال ابي بكر وكل نية من نياته ، وهو السر الذي نراه كامنا في كل رأي يرتئيه وكل قرار حاسم يستقر عليه .

هذا هو مفتاح شخصيته الذي به استطاع ان يفتح مغاليق نفسه ودخائلها .

بعد ذلك سهل على **العقاد** ان يقدم لنا **أبا بكر** في اسلامه ، وعلاقته بالرسول والصحابة ، ثم **ابو بكر** في بيته وثقافته فلا بد ان يكون صفي رسول الله وخليله مثقفا ولا بد ان يكون له ما يبرز هذه الصحبة . بعد ذلك يقدم لنا **العقاد** اثر **ابي بكر** في بناء الدولة الاسلامية ، ثم اثره في تشكيل حكومة الصدر الاول في الاسلام . هذا ولا ينسى وهو في معرض الحديث عن **ابي بكر** في كل هذه الجوانب ان يذكر أثره في استمرارية

الاسلام بعد وفاة النبي عليه السلام .

وعن موته يذكر **العقاد** انه قيل مات بالسم لكن ليس لهذا القول مرجع ، وقيل انه مات بالحمى لانه استحم في يوم بارد في شهر قائظ، ولكن **العقاد** يميل اكثر الى الظن بأنه مات بحمى الملاريا التي أصيب بها بعد الهجرة الى المدينة ، وعاودته وهو شيخ ضعيف .

عبقرية عمر بن الخطاب :

حين يتناول العقاد بالدراسة شخصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لا يدرس فيه الخليفة الذي هزم القياصرة والاكاسرة ، وانما يدرس عظمته التي راعى فيها انها تجمع القوة والعدل والرحمة والحزم والتضحية والحصافة وسداد الرأي والغيرة على الحق والاستقامة .

وهذا الكتاب يرتبط بظروف معينة مر بها **العقاد** وذلك حين امتلأت الدنيا بأن الالمان سيدخلون مصر بعد هزيمة الانجليز في العلمين . ولما كان **العقاد** قد كتب عن زعيم النازية هتلر كتابا هو «هتلر في الميزان» فيه لم يتملق النازية او زعيمها وانما قال كلمة الحق . لذلك كان من أعدى أعداء النازيين .. وهنا اقترح الاصدقاء على العقاد ان يترك البلاد.. فسافر الى السودان .. وكان وقتها مستمرا في دراسة مادة هذا الكتاب . وقد اشار من بعيد الى هذه الوقعة في مقدمته حيث قال : «فما شرعت في تحضيره ــ الكتاب ــ وبدأت في الصفحات الاولى منه حتى رأيتني على سفر بغير اهبة الى السودان . فوصلت اليه وليس معي من مراجع الكتاب الا القليل ..» .

ويتحدث **العقاد عن عبقرية عمر** .. التي بدات بزعامته على بني قومه وموقفه من بناء الدولة الاسلامية وانتصاراته التي أزهلت الناس وتشييده اعظم امبراطورية في التاريخ كل هذا يجعل لعمر نوعا من العبقرية .

وينتقل الى الحديث عن صفاته فيبدأ بالقول «نحن على هذا امام رجل لا كالرجال . رجل عبقري او رجل ممتاز من خاصة الخليفة الذين لا يفدون في الزمن الواحد بأكثر من الآحاد ..» فمن صفاته انه كان قويا بكل ما تحمل هذه الكلمة من معاني ، وكان عادلا لانه ورث القضاء من قبيلته وآبائه فهو من أبنية بيوت بني عدي الذين تولوا السفارة والتحكيم في الجاهلية وغيرها من الصفات الحميدة ونقطع مع العقاد عدد من الصفحات **حتى نجد مفتاح شخصية عمر بن الخطاب وقد عثر على هذا المفتاح في**

«طبيعة الجندي» أصدق مفتاح للشخصية العمرية في جملة ما يؤثر او يروي عن هذا الرجل العظيم .

فاهم الخصائص التي تتجمع «الطبيعة الجندي» في صفتها المثلى الشجاعة والحزم والصراحة والخشونة والغيرة على الشرف والنجدة والنخوة والنظام والطاعة وتقدير الواجب والايمان بالحق وحب الانجاز في حدود التبعات او المسؤوليات .

ومفتاح شخصية عمر هو في طبيعته كجندي كما عرفنا ولكن في جانبها الحكيم .

ويتناول بعد ذلك اسلام عمر بن الخطاب وكيف كان هذا الاسلام عزة للاسلام نفسه وها هو العقاد يصف اسلام عمر فيقول : «كان مسلما شديدا في اسلامه ، فلم تكن شدته في اسلامه خطرا على الناس ، بل كانت ضمانا لهم الا يخافه مسلم ولا ذمي ولا مشرك في غير حدود الكتاب والسنّة .

وكان جاهليا فأسلم . فأصبح اسلامه طورا من أطوار التاريخ ، ولو لم يكن الاسلام قدرة بانية منشئة في التاريخ الانساني لما كان اسلام ، رجل طورا من أطواره الكبار» .

ولا شك بعد أن عبر لنا العقاد هذا التعبير العظيم الذي يتناسب وإسلام ابن الخطاب نراه بعد ذلك يعدد ما استفادته الدولة الاسلامية من هذا الصحابي الجليل ، ثم يقدم لنا علاقة عمر بالنبي الكريم وبالصحابة الى أن يصل الى ثقافة عمر . وكيف انه كان وافر الحظ من ثقافة زمانه، وانه كان اديبا مؤرخا فقيها مشاركا في سائر الفنون ، خطيبا مطبوعا على الكلام .

عبقرية الامام :

في عبقرية الامام علي كرّم الله وجهه الذي التقت فيه ملامح العبقرية من جميع نواحيها فامتزجت العاطفة في مصرعه بخيال الشجاعة في بطولته ، كما التقى سمو الفكر فيه برهافة الحس الادبي عنده ، وفي وسط هذا الطريق الشائك يبحث العقاد عن مفتاح الشخصية الامام وسرعان ما يعثر عليه وهو آداب الفروسية .

(آداب الفروسية) هي مفتاح هذه الشخصية ، وآداب الفروسية هي

تلك الآداب التي نلخصها في كلمة واحدة وهي (النخوة) .

وقد كانت النخوة من الامور التي فرض عليها علي كرّم الله وجهه ، وادبا من آداب الاسرة الهاشمية تلك التي نشأ فيها ، وعادة من عادات «الفروسية» العملية التي يتعودها كل فارس شجاع متغلب على الاقران، وان لم يطبع عليها وينشأ في حجرها . لان للغلبة في الشجاع انفة تأبى عليه أن يسف الى ما يخجله ويشينه ، ولا تزال به حتى تعلمه النخوة تعلماً وتمنعه ان يعمل في السر ما يزري به العلانية .

والامام علي كرّم الله وجهه بلغت به نخوة الفروسية غايتها المثلى ، ولاسيما في معاملة الضعفاء من الرجال والنساء .. فلم ينس الشرف قط ليغتنم الفرصة ولم يساوره الريب قط في الشرف والحق انهما قائمان دائمان كأنهما مودعان في طبائع الاشياء . فاذا صنع ما وجب عليه فلينس من شاءوا ما وجب عليهم وان أفادوا كثيرا ، وباء هو بالخسارة .

والعقاد حين يحدثنا عن صفات الامام علي يقول انه اول هاشمي من أبوين هاشميين لذلك اجتمعت له خلاصة الصفات التي اشتهرت بها هذه الاسرة الكريمة وتقاربت سماتها وملامحها في كثير من أعلامها المقدمين وهي في جملتها النبل والشجاعة والمروءة والذكاء ، عدا المأثور في سماتها الجسدية التي تلاقت او تقاربت في عدة من أولئك الاعلام وهذه الصفات اتاحت للامام علي التفوق في أمور كثيرة ، كما اتاحت له افادة الاسلام على ما رأينا بعد ذلك .

وعن اسلامه نجد العقاد يعقد لهذا فصلا فالامام علي ولد داخل الكعبة ، وكرّم الله وجهه عن السجود لاصنامها ، فكأنما كان ميلاده ثمة ايذانا بعهد جديد للكعبة وللعبادة فيها .

وكاد علي أن يولد مسلما .

بل ان العقاد يقرر بأنه ولد بالفعل مسلما اذا نحن نظرنا الى ميلاد العقيدة والروح .. لانه فتح عينيه على الاسلام ولم يعرف قط عبادة الاصنام . وتربى على ما نعلم جميعا في البيت الذي خرجت منه الدعوة اسلامية وعرف العبادة من صلاة النبي وزوجه الطاهرة قبل ان يعرفها من صلاة ابيه وأمه وجمعت بينه وبين صاحب الدعوة قرابة مضاعفة ومحبة أوثق من محبة القرابة .

وينتقل العقاد للحديث عن عصور كل من ابي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنه حيث كان عصره عجيبا بين ما تقدمه في أعقابه او هو لم يكن

عجيبا لانه جرى على النحو الذي ينبغي ان يجري عليه فلم يثبت كل الثبوت ولم يضطرب كل الاضطراب . لانه كان بناء جديدا في سبيل التمام ولم يكن بناء متداعيا فكله هدم واندثار ، والعجيب انقسم قسمتين متقابلين : في احدهما كل عوامل الرضى عن النظام الاجتماعي الرغبة في بقائه وتدعيمه ، وفي الآخر كل عوامل التذمر من النظام الاجتماعي والتحفز لتعويضه وتحويله .

ويناقش العقاد بيعة الامام علي وسياسته وحكومته ثم علاقة الامام بالرسول صلي الله عليه وسلم ثم بالصحابة ويختم الكتاب بالحديث عن ثقافة الامام علي وأثرها في كونه رجل محارب مفاضل .

عبقرية خالد بن الوليد :

في هذا الكتاب يصور لنا العقاد العبقرية الحربية المظفرة لخالد ابن الوليد ، وما امتازت به من صفات القائد العظيم المفطور على النضال والشجاعة والجلد واليقظة وحضور البديهة ، وسرعة الملاحظة وقوة التاثير ووضع الخطط عند الحاجة اليها في موضعها الدقيق ويظل يتفرس جوانب شخصيته الى ان يعثر على مفتاحها وهو سليقته كجندي وهو نفس سليقة عمر بن الخطاب .. الاثنين مفتاح شخصيتهما الجندية ولكن هناك فارق بين الاثنين فجندية ابن الخطاب حكيمة بينما جندية ابن الوليد هاجمة . ولا ريب ان هذا الفارق بين الفاروق عمر وسيف الله المسلول انما هو قبل كل شيء فارق بين نفسين او بين رجلين او بين شخصيتين او بين وسطين اجتماعيين .

وهناك ملاحظة يسوقها العقاد حول سيرة خالد وهي ولعه بالحرب لم يكن ولعا بالشر والسوء ولا ولعا بالضغينة والبغضاء وكانت عداواته كلها عداوات جندي مقاتل ولم تكن عداوات مضغن آثم ، ولم يعرف قط عنه انه حمل الضغينة لاحد من الناس . ولو كانت هذه الضغينة تعرف طريقها اليه .. لحقد على عمر بن الخطاب يوم عزله من قيادة الجيش وجعله جنديا في جيش المسلمين . بل سامح عمر وبرر فعلته هذه .

والعقاد حين يحدثنا عن خالد بن الوليد يمهد لهذا الحديث بصفحات عن البادية والحرب . ثم عن قريش ومخزوم بعدها يقدم خالد بن الوليد

في نشأته فيقول عنه : «كان أغنى ابناء زمانه في صفوف الثراء المعروفة بينهم كافة : الذهب والفضة والبلاتين والكروم والتجـــارة والعروض ، والخدم والجواري والعبيد وسمي من اجل ذلك بالوحيد ، ولقب من ذلك بريحانة قريش .

وهو الذي قال فيه القرآن الكريم من سورة المدثر : «ذرني ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا» .

ويروي سفيان الثوري انه كان يملك الف الف دينار ويروي ابـــن عباس انه كان يملك من الفضة تسعة آلاف مثقال» .

والعقاد بعد ان ينتهي من الحديث عن نشأة خالد بن الوليد وكيف كان لها أثر في مسرحياته بعد ذلك . ينتقل الى قصة اسلامه . وكم كان العقاد بليغا حين استهل هذه القصة بالقـول كان اسلام خالد ضربـــا من التسليم .

وعلى الرغم من ان العقاد يقص التسليم بمعناه العسكري الا انه لم يكن تسليمه تسليم العاجز المتوكل ، ولا الجازع المتخذل .. بل لعله بلغ من نفسه غاية الثقة بالقدرة وحمادي اليقين بالخبرة .. يوم أسلم وسلم الى معسكر الدين الجديد كأنه آمن بالله لانه علم من ذات نفسه انه لن يغلبه الا الله .

ان العقاد يفسر اسلام خالد في كلمة صغيرة هي : «بلغ نهاية الايمان بنفسه يوم بلغ بداية الايمان بالله» .

وتكون الصفحات التالية لتقديم خالد الجندي الذي يحقق للاسلام اعظم الانتصارات وها هو يعيد المرتدين الى حظيرة الاسلام ويقود حرب الفتوح الى ان يتولى عمر بن الخطاب فيعزله من قيادة الجيش . واخيرا يحدثنا عن عبقريته الحربية .

ثانيا : الشخصيات

في تقديمه لمعاوية بن ابي سفيان فرق العقاد بين القدرة والعظمة ، بين الشخصيات والعبقريات حيث قال : «ربما وصف الرجل بالقدرة لانه مقتدر على بلوغ مقاصده واحتجان منافعه والاضرار بغيره ، ولكنه اذ وصف بالعظمة فانما يوصف بها لفضل يقاس بالمقاييس الانسانية العامة وخـــير

تقلب فيه نية العمل للآخرين على نية العمل للعامل وذويه ـ ولعلنا نقترب من توضيح الاصطلاح اذا نقلنا التفرقة من القدرة والعظمة الى التقدير والتعظيم فنحن نقدر الانسان بمقداره عظيما كان او غير عظيم ، بل نقدر الاشياء بمقاديرها ولو لم يكن لها عمل ولم تكن من وراء العمل نية . ولكننا اذا عظمنا الانسان فانما نوجب له التعظيم علينا لانه يعنينا ويستحق إكبارنا ويرتفع الى المكانة التي تلحظها الانسانية بأسرها ونعود عليها في منافعها وخيراتها ..

فكل عظيم قدير .

ولكن ليس كل قدير بالعظيم..

والعظمة قدرة وزيادة . ومعاوية قدير ولا ريب .

اما القدرة فليس من اللازم أن تكون عظمة فضلا عن ان تكون عظمة وزيادة ...» .

بهذه العبارة حدد العقاد الفرق بين الشخصيات المقتدرة ، والعبقريات العظيمة .

وهناك عبارة اخرى جاءت في كتاب «رأيت وسمعت» لمحمد كرد علي تزيدنا توضيحا لما يعنيه العقاد من قوله هذه شخصية ، وتلك عبقرية يقول العقاد في هذا الكتاب : «منذ انطلق قلمي وعقلي وفكري وأنا أقف في الجانب المعارض للجاه والسلطان والجبروت .. الملك فؤاد سجنني تسعة اشهر .. وغيره اقام على النكير والدعاوي المختلفة ، ولكني لم أذعن رغم كل ذلك لرغبات السياسة . ولقد اخذت من التاريخ أمثلة أولها ان علي بن أبي طالب لو كان وصوليا لانتهى علي في يوم موته . ولو كان الحسين بن علي لم يسبق أجله بعشر سنين أي لم يبع ما تبقى له من العمر بذلك الاستشهاد لما ربح هذا الخلود العظيم هو وأبوه من قبله وأبناؤه الذين درجوا على بساطه الاحمر ... قال لي مرة الاستاذ محمد كرد علي: لماذا لم تكتب لنا كتابا عن معاوية كما كتبت عن علي ؟ فأجبته : أنا أعرف انك وصولي مع الأحياء ، ولكنني لا أعرف انك وصولي حتى مع الاموات، ان صاحبك معاوية اراد الدنيا وأراد منها ان يكون ملكا فكان ثم مات فماذا يريد بعد هذا ؟ الذي يطمع أن يكون مسلما ملكا او وزيرا أو نائبا ثم ينتهك كل الحرمات ليصل الى شهوته .. أو تريد بعد هذا ان نخر له ساجدين في حياته وبعد موته ..»

العقاد في هذه العبارة التي سجلها عليها محمد كرد علي يفرق بوضوح بين الشخصية والعبقرية .. ذلك ان علي بن ابي طالب كان

عبقريا .. وعلى هذا فلا بد ان الخليفة الذي على شاكلته عبقري ايضا .. ولكن العقاد يرفض هذا ويعتبر معاوية شخصية وليس عبقريا . يعتبر مقتدر وليس بالعظيم .

ومن هنا يتضح ان العقاد وضع العبقريات في مكان ارفع من الشخصيات وإلا فلماذا وضع معاوية في الشخصيات وكذلك عثمان بن عفان في الشخصيات ؟

وها هو حين يقدم شخصية عثمان بن عفان .. يؤكد بأن سيرته لا تبرز لنا عبقرية قبل عبقرية الصديق او عمر بن الخطاب او الامام علي او خالد بن الوليد . ولكنها تبرز لنا من جانب الاريحية صفحة لا تطوى ولا يستطيع العقل الرشيد ان يرجع بها الى باعث غير باعث العقيدة والايمان لذلك فهو لا يؤمن بالعبقرية لعثمان رضي الله عنه بقدر ما يؤمن بأنه ذو النورين نور اليقين ، ونور الخلق الامين .

أوهذه الشخصيات حين يتناولها العقاد بالبحث فاننا نلاحظ هذه الامور :

هي ـ الشخصيات ـ ليست صور أعلام ذوي حظ واحد في القدرة والكفاية . ولو انها كانت كذلك لما غض ذلك من شأنها ، فمن كان يعرف حرفا واحدا من أبجدية الكفايات الانسانية فهو على حظ كبير من المعرفة الانسانية ولكن لا شك أقل وعيا ممن يعرف جملة حروف منها وتراجم العقاد تمثل عدة أنماط من القدرة الشخصية ومن ذلك مقدرة الشعر والكتابة والفلسفةوالموسيقى والتصوير والعلموالادارة والسياسةوالحرب.

يغلب على التراجم انها لا تؤدي أبرز ملامح صاحبها وأعماله فحسب، بل تنفذ الى محور شخصيته الذي،تدور عليه شمائله ومساعيه وأعماله واقواله وتميز ملامحه من ملامح أشباهه في طراز قدرته ونعلل اسباب ذلك او نفسرها سواء اذكر ذلك المحور في الترجمة أم لم يذكر .

تدل معظم التراجم الى نمط القدرة التي تشمل هذه الشخصية ومن يشبهه وان لم يماثله. فانت اذا عرفت قسمات هذه الشخصية وحدودها، وصادفت تلك الملامح في انسان آخر حكمت له بمثل ما حكمت للاول أيا كان حظه دون خلط .

يغلب على التراجم ان تنفذ بنا الى حقيقة قدرة الشخصية بعامة ، واختلاف نمطها عن انماط الكفايات والقدر الاخرى فلا نخلط بين هذا وغيره منذوي المواهب والملكات التي ترفعصاحبها على الغمار أو لا ترفعه.

في تراجم العقاد سر آخر غير كثرة صور اعلامه هذا السر هو سهولة

الاداء عن كل ذي قدرة أيا كان نوع قدره وحظه منها ، ثم اتساق أجزاء صورة كل عظيم من هؤلاء العظماء مستقلة على غيرها . ولهذا تبـــدو الترجمة وكأنها خرجت من قريحة صاحبها فقبلتها براعته دفعة واحدة شانها شأن بدء الحياة في خروجها من الارحام الى أيادي القوابل .

ان العقاد كان ينفعل مع شخصياته اثناء كتابتها حتى انه يذكر انه كان يكتب الفصل الواحد من «الحسين» وعيناه مغرورقتان بالدموع . مع انه يفترض فيه كمؤرخ ان يكون محايدا ولكن ما العمل وهو أديب فنان يحس قبل ان يكون مؤرخا يسجل .

وكتابة التاريخ بهذه الصورة الادبية اسلوب لم يبتدعه العقاد فقـــد سبق ان استخدمه كتّاب اجانب مثـــل «بلوتارك» و«توماس كارليل» و«ليتون استرتسي» و«اندريه مروا» و«إميل لدفيج» وكتّاب عرب في مقدمتهم الدكتور محمد حسين هيكل والدكتور طه حسين والدكتـــور احمد أمين .

وبهذا الاسلوب .. أسلوب التفريق بين العبقرية والشخصية ، بين العظمة والقدرة كتب العقاد تراجم شخصياته وهي «فاطمة الزهـــراء» والفاطميون» و«الصديقة بنت الصديق» و«ابو الشهداء الحسين ابن علي» و«ذو النورين عثمان بن عفان» و«بلال بن رباح» و«عمـــرو ابن العاص» و«معاوية بن أبي سفيان في الميزان» و«المسيح» و«ابو الانبياء ابراهيم الخليل » .



فاطمة الزهراء والفاطميون :

عندما يتناول السيدة فاطمة يرى ان الحديث في حياتها قد تكتب له تراجم وليس ترجمة واحدة . فقد تكتب لها ترجمة لانها ابنة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد تكتب لها ترجمة لانها زوج علي بن ابي طالب ، وقد تكتب لها ترجمة لانها أم الحسن والحسين ولكن العقاد يرى ان الاولى بالترجمة هو لانها فاطمة الزهراء ، ولانها مصدر من مصادر القـــوة التاريخية التي تتابعت آثارها في دعوات الخلافة من صدر الاسلام الى الزمن الاخير .

وهذا فعلا ما قصد اليه العقاد بكتابة هذه السير ، وبالبحث عن مكان الصلة بينها وبين المنتسبين الى فاطمة .

فالكتاب في قسمه الاول يقدم لنا فاطمة الزهراء وامها السيدة خديجة رضوان الله عليهما ، ثم يبين كيف كانت نشأتها وتربيتها في البيت النبوي الشريف ، ثم زواجها من علي بن ابي طالب رضي الله عنه وكم كان في هذا الزواج من امثلة للتواضع والزهد يقدم لنا بعد ذلك بلاغتها وثقافتها ولا شك ان انسانة يكون ابوها محمد صلى الله عليه وسلم وزوجها علي بن ابي طالب كرّم الله وجهه وهو احد القلائل الذين تمكنوا من معرفة سر البلاغة .. لا شك ان واحدة لها نفس الظروف لا بد وأن تكون بليغة ذات ثقافة واسعة .

وعن شخصيتها يشير العقاد الى حقيقة هامة تتصل بالسيدة فاطمة رضي الله عنها وهي ان هذه السيدة العظيمة اخذت مكانها الرفيع بين اعلام النساء في التاريخ لانها بنت نبي ، وزوجة إمام ، وأم شهداء ..

«لكن ــ الكلام هنا للعقاد ــ لا ينفسح هذا الرضوخ ولا يبين هذا البيان انها تأخذ مكانها هذا «بحقها الشخصي» او بصفاتها التي كان لها اثر في حوادث التاريخ» .

والسيدة فاطمة تعتبر أصلا قويا من أصول الدعوة التي ثبتت في مجرى الزمن أجيالا طوالا ولم تزل لها آثارها في عصرنا هذا وفيما يلي من العصور ، ثم يحدثنا عن ذريتها .

ينتقل العقاد بعد ذلك الى القسم الثاني من الكتاب ويدور حول الفاطميين .. فكل ابنائها فاطميين ثم يتحدث عن نسب هؤلاء الفاطميين، وعلاقة هذا النسب بالمطالبة بالخلافة .

ويوضح العقاد قصة علاقة الباطنية بالفاطميين ، هؤلاء الباطنيون الذين كان لهم اثر بالغ في تنفير الناس من الفاطميين. ويختم هذا القسم من الكتاب بالحديث عن بعض شخصيات الفاطميين . وهذه الحضارة المحتضرة في مصر .. وهي حضارة الفاطميين .

عثمان بن عفان

تعتبر سيرة الخليفة الثالث عثمان بن عفان .. نمطا من انماط متعددة

زخرت بها الدعوة الاسلامية مثل سير الخلفاء ابو بكر ، وعمر ، وعلي ، وامثالهم من الصحابة والتابعين : فكل منهم كان عظيما بمزية ، وعلما من أعلام التاريخ .

ويرجع العقاد في كتابه «ذو النورين عثمان بن عفان» عظمة هـؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم الى العقيدة الدينية التي ملأت قلوبهم ، والى الرسالة المحمدية التي كانوا اول من آمن بها وناصرها .

وقبل ان يتناول العقاد شخصية عثمان رضي الله عنه بالدراسة نراه يمهد بفصل يذكر فيه هذه المشقة او «الصدمة» على حد تعبيره التـي تقابل الباحث في تاريخ عثمان . اذ كان مصرعه وهو شيخ في الثمانين من عمره . ولكن بعد الصدمة يقرر العقاد حقيقة مؤداها ان عثمان رضي الله عنه لم يكن ليعبأ بأن يضع حراسا على بيته ليمنعوا هذه الجمهـرة المشاغبة من قتله . ويتساءل العقاد : هل ما حدث لعثمان رضي الله عنه كان من الممكن ان يحدث لوال من ولاته المنتشرين في أرجاء البـلاد كمعاوية مثلا ؟ بعد هذا يتطرق الى أسباب الفتنة التي كانت نتيجتهـا ثالث الخلفاء الراشدين .

كل هذا كان تمهيدا لدراسة شخصية عثمان رضي الله عنه وهو من اسرة بني أمية العريقة النسب ، وقد ضرب بإسلامه مثلا . فها هو يلتقي بأبي بكر رضي الله عنه ويدعوه الى زيارة النبي صلى الله عليه وسلـم وتتم المقابلة ومن بعدها يبادر باعلان اسلامه .

ويحدثنا العقاد عن نشأة عثمان فيؤكد انه كان موفور الرزق . وكان اقرب الى صفات الطيبة والسماحة منه الى صفات البأس والصرامة ، وقد صاحبته هذه السمة طوال حياته ..

والعقاد يرسم صورة هذا الخليفة فيقول : «ان شخصية عثمان بما اشتملت عليه من نواحي قوتها وضعفها شخصية سوية لا تناقض بين ما علمناه عن أخبارها وبين ما نرجحه من المؤثرات فيها من فعل البيئـة ووراثته الاموية . ويتمه في صباه ونشأته في بيت يتولاه غـير ابيه ، وانتماؤه من جانب الامومة الى بيت عبد المطلب ، وعلينا ان نشير الى مؤثر آخر يلحق بهذه المؤثرات ، ولا يورد على انه مؤثر يتواتر في جميع الحالات ، ولكنه يورد لانه لا يهمل في اعتبار بعض النفسانيين .

ذلك السبب هو اصابته بالجدري في شبابه . وعند بعض النفسانيين ان الجدري يعقب أثرا في بنية المصاب به اذا أهمل علاجه ــ بعد سـن الطفولة خاصة ــ وليس اهمال علاجه يومئذ بالامر البعيد» .

ونستطيع ان نلمح ثقافة عثمان رضي الله عنه من بين سطور كتاب العقاد تلك التي تذهب الى ان كتب عثمان الى ولاته وخطبه تحمل الكثير عن بيانه وثقافته الى جانب انها تحمل معنى الاسلوب الرسمي او اسلوب التشريع والوثائق القانونية : تبليغ وتقرير بغير تنميق ولا محاولة تأثير. وهذه صورة جديدة في الكتابة استحدثها عثمان رضي الله عنه .

وعن الخلافة يذهب العقاد الى ان عثمان رضي الله عنه تولى اصعب خلافة في صدر الاسلام وقد كانت ثورة المرتدين في اول خلافة الصديق محنة شديدة نهض لها المسلمون جميعا متساندين متآزرين فابتلى عثمان في اول خلافته بما يشبه تلك الثورة ويزيد عليه الخلاف في الداخل والتغير في الدواعي النفسية ، وهو اخطر المصاعب جميعا . اذ تحدث في عهده اول فتنة في الاسلام .

وعن فضل عثمان يقول العقاد انه لا يوصف بأكثر من انه مشاغبة دهماء لم تجد من يكبحها ، وان تقصير عثمان في حق نفسه كان اكبر من تقصيره في حق الرعية فقد اغتفر ما لا يغتفر من العدوان عليه في حضرته .. وكانت النتيجة ان قتل والمصحف بين يديه .

الصديقة بنت الصديق :

حين ترجم العقاد للسيدة عائشة الصديقة بنت الصديق قدمها آثار مجتمع عربي ناشيء على الاصوات الاولى بالاسلام ، وبانها تفردت من بنات جنسها برعاية لم تشاركها فيها غيرها من الولائد ، فقد تربت على النعمة ، وشبت على العزة والكرامة ، وتعلمت الكتابة .. وينتهي العقاد في كتابه هذا بنتيجة الى ان عائشة تمثل المراة المسلمة في ارفع مثلها حيث تمثلها في حقوقها وتمثلها في مثاليتها الكريمة .

فان كانت هذه نظرة عامة لما يحوي كتاب الصديقة بنت الصديق من افكار ومعاني . فان تفاصيل هذه النظرة تبدأ بالحديث عن المراة العربية وكيف كان العرب ينظرون اليها نظرة طبيعية مرتجلة . والعقاد يعني بالنظرة المرتجلة انها النظرة الطبيعية التي لا يشوبها احساس دخيل من وهم العقائد او حكم التشريع ولكنها تمضي على الفطرة التي توجبها ضرورة الساعة او ضرورة البيئة ، وتختلف حسب اختلاف هذه الضرورات :

ويقرر العقاد ان العرب لم يفهموا المحنة على المرأة في جاهليتهم وجاء الاسلام من النهاية .. التي انتهت اليها آداب الحضارة والسيادة وهي خلاصة العرف الذي تعارف عليه سادة الحضر في معاملة المرأة وليس سادة القبائل في البادية . وجعل هذا العرف حقا مكتوبا على الرجال لكل امرأة . ثم زاد هذا العرف منزلة من الرعاية لم تصل اليها أرفع النساء في ارفع البيوتات قبل الدعوة المحمدية فالمرأة في شريعة الاسلام انسان مرعي الحقوق والواجبات او ليس الاسلام هو الذي قال عنها «ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة» .

ويبدو أن كل ما تقدم كان تمهيدا للمرأة الخالدة تلك التي قدمها لنا العقاد بأن السيدة عائشة هي هذه وهي تلك .

ويتلي ذلك بفصل عن تاريخها وكيف انها امتازت منذ حداثة سنها بالذكاء ، وكيف انها أسلمت وهاجرت ولقيت عنتا شديدا في سبيل دينها وزوجها محمد صلى الله عليه وسلم . ومن جملة أوصافها انها كانت بيضاء فالنبي الكريم كان يلقبها بالحميراء ، وأنها كانت جهورية الصوت حية الطبع موفورة النشاط ، وأنها ورثت الكثير عن والدها الصديق ابو بكر رضي الله عنه .

ويفرد العقاد فصلا عن زواج النبي صلى الله عليه وسلم من عائشة فقد ماتت زوجته الاولى خديجة بعد عشرة طالت الى خمسة عشر عاما حتى انه قيل أن الرسول الكريم ظل حزينا على موت خديجة عاما سماه عام الحزن ، وقد تزوج بعده ابنة صديقه ابو بكر وهي السيدة عائشة رضي الله عنهما .

وتختلف ــ كما يقول العقاد ــ الاقوال في سن السيدة عائشة يوم زفت الى النبي صلى الله عليه وسلم . فالبعض يحسبها في التاسعة من عمرها ويرفعها البعض فوق ذلك بضع سنوات .

بعد ذلك يخصص العقاد فصلا عن حديث الأفك وحديث الافك هذا هو الذي اشاعه بعض المنافقين عن السيدة عائشة رضي الله عنها وهو حديث اجتمعت له كل بواعث الفضول والوشاية التي تغري الناس بالخوض في أمثال هذه الاحاديث ولو كانت من نسج الخيال والحق ان حديث الأفك هذا كان له غرض المساس بالنبي وبالاسلام وقد قام به زعيم الخزرج في المدينة .

ويرفع الرسول الى الرفيق الاعلى ويترك من ورائه أرملته الشابة

عائشة كأم للمؤمنين . لها رأى في كل ما يدور حولها من أمور سياسية او اجتماعية .

الحسين ابو الشهداء :

في تناوله لشخصية ابي الشهداء الحسين بن علي رضي الله عنهما يصور لنا العقاد ماساة تاريخية كبيرة . ومن اجل ذلك نجده ينفذ الى لباب الوقائع والتواريخ لتمحيص الحقيقة من وراء المذاهب والاهواء في سيرة ابي الشهداء ، وفي تناوله لهذه الشخصية العامة يصور لنا اسباب النزاع السياسي من ايام الجاهلية الى ايام الدعوة الاسلامية في صورة حية تتمثل في اعمال ابطالها وحركات رجالها .

والعقاد حين يتناول شخصية ابي الشهداء الحسين بن علي بالدراسة. يبدأ اولا بدراسة طبائع الناس وكيف ان هذه الطبائع يتناوبها مزاجان متقابلان: **مزاج يعمل اعماله للأريحية والنخوة ومزاج يعمل اعماله للمنفعة والغنيمة.**

والمزاجان لا ينفصلان كل الانفصال .. فقد تقترن الاريحية بالمنفعة وتقترن المنفعة بالاريحية ولكنهما اصطدما ولاسيما في الاعمال الكبيرة . وحياة الحسين بن علي رضي الله عنه صفحة ، لا صفحة تماثلها في توضيح الفارق بين خصائص هذين المزاجين وبيان ما لكل منهما من عدة للنجاح في كفاح الحياة سواء نظرنا الى الامد البعيد او قصرنا النظر على الامد القريب .

وعن اسباب التنافس والخصومة بين الحسين ، رضي الله عنه ، ويزيد بن معاوية يقول العقاد بأن الاسباب ترجع الى اجيال وكان هذا التنافس والخصومة بينهما يرجع الى كل سبب يوجب النفرة بين رجلين: من العصبية الى التراث الموروث الى السياسة الى العاطفة الشخصية !! اختلاف الخليفة والنشأة والتفكير هو تنافس بني هاشم وبني امية على الزعامة قبل ان يولد وأبوه معاوية .

يتبع هذا الفصل عن الخصمان موازنة بينهما . فهناك اختلاف في النشأة بين الاثنين والنسب والمكانة والصفات ، والخلق ، والشجاعة وهي امور جد اختلف الاثنان فيها مما أدى في النهاية الى الخصومة ، بل واي شيء آخر غير الخصومة كان مستغربا بين الاثنين .

وبديهي جدا أن يكون والخصومة قائمة ـ اعوان لكل خصم .. هم رجال المعسكرين وبالطبع اختلاف انصار يزيد فمنهم من هو طامع في مال او مستميت في طمعه استماتة من يهدر الحرمات ولا يبالي بشيء منها في سبيل الحطام ولم يكن معه رجال ذوي راي . **ان العقاد يصفهم وصفا دقيقا حين يقول في كلمة صغيرة «كان اعوان يزيد جلادين وكلاب طراد في صيد كبير»** . ومنذ ان قضي على يزيد بن معاوية أن يكون هؤلاء وأمثالهم اعوانا له في ملكه قضي عليه من ساعتها ان يكون علاجه لمسألة الحسين علاج الجلادين الذين لا يعرفون غير سفك الدماء والذين يسفكون كل دم اجروا عليه ، بينما نرى أعوان **الحسين** يختلفون تمام الاختلاف عن هؤلاء الاعوان الكريهين وما ابلغ **العقاد** حين قال عن أعوان هذا واعوان ذاك هذه الكلمة :

«كان ليزيد أعوان اذا بلغ احدهم حده في معونته فهو جلاد مبذول السيف والسوط في سبيل المال» .

وكان **للحسين** اعوان اذا بلغ احدهم حده في معونته فهو شهيد يبذل الدنيا كلها في سبيل الروح .

اذن فهي حرب جلادين وشهداء .

والكتاب يحدثنا بعد ذلك عن خروج الحسين الى مكة ، وكربلاء ونهاية المطاف . عارضا لنا قصة ابي الشهداء والدم المسفوك على الارض العربية .

داعي السماء بلال بن رباح

وفي تحليله لشخصية داعي السماء بلال بن رباح .. ذلك الرجل الاسود القريب الى قلب رسول الله والصحابة يقدم العقاد مثلا رائعا لموقف الاسلام من العبقرية وكيف كانت للاسلام كلمة سابقة على غيره من الحضارات القديمة .. في إنصاف الاجناس والعناصر واحترامها ، وإلغاء التفرقة العنصرية . وفي هذا الاطار يحدثنا العقاد عن نشأة بلال بن رباح وإسلامه وصفاته ولماذا اختاره الرسول لكي يكون اول مؤذن في الاسلام .

ويمهد العقاد للحديث عن بلال بن رباح رضي الله عنه بالحديث عن

مسألة العنصر ـ الجنس ـ تلك المسألة الاجتماعية التي اصبحت كثيرة الورود على السنة المعاصرين واقلامهم . ولكنها على هذا من اقدم مسائل الاجتماع التي وجدت مع وجود القبائل الاولـــى . فيعرض لنا آراء وأبحاث عدد من العلماء وخبراء الاجتماع في هذه المسالة بالذات وكلها أبحاث حديثة تخلص الى ان الحضارة الغربية ابطأت في تقرير مبـــدأ الإنصاف بين هذه الاجناس المختلفة . بينما نجد ان الشريعة الاسلامية كانت سباقة الى هذا الانصاف والمساواة بين بني الانسان منذ اربعة عشر قرنا بغير ما حافز من المصالح الاقتصادية او من عادات العرف والاخلاق .

الى ان يقول : والذي يعنينا في هذه المقدمة عن تاريـــخ الاجناس والجنس الاسود خاصة أن نجمع الملتقي بينها وبين صاحب هذه الســيرة بلال بن رباح .

وبعد ان قدم العقاد في الجزء الاول من كتابه اقوال وآراء العلماء في مسألة الاجناس وفوارقها يحدثنا عن العرب والاجناس . كيف كان العرب يعاملون الاجناس غير العربية ؟ هل كانوا يحقرون من شأنهم ؟ وغيرها من الاسئلة التي تقوده اجاباتها الى تقديم بلال هذا الانسان الذي كان مـــن اضنك العبيد حالا قبل الاسلام ، وكانت حال العبيد هي السواى بين طبقات المجتمع العربي في الجاهلية . ظلما للضعيف لا عداوة للجنس او كراهة للسواد فقد كان شأن العبيد كشأن كل صعلوك وضيع النسب قليل العضد غير محسوب له حساب في شريعة الثأر والدية وكان العبيد أسوأ حالا من وضعاء النسب لانهم لا ينسبون الى احد معروف ولا يروع الظالم عن ظلمهم شرع ولا عرف ولا عقيدة . فكانوا ضحايا الظلم والتفرقة في المنازل والاقدار ، وكان خلاصهم كله في عقيدة تنكر الظلم لانه قسوة كما تنكره لانه ينقض شريعة المساواة . وقد تكفل الاسلام بهذا الخلاص مـــن جانبين ، لانه ينكر ظلم القسوة وينكر ظلم الاجحاف والمحاباة .

ثم يخلص العقاد الى فصل عن الرق في الاسلام وكيـف ان الاسلام حاول أن يحسن أحوال الارقاء ومنع الاتجار بهم ويبدو ان كل هذا كان تمهيدا لدراسة شخصية بلال .

ثم يقدم لنا كيف نشأ بلال كإبن من ابناء الحبشة المولدين الذيـــن كانوا كثيرين في اليمن من قديم الزمن . وقد كان بلال يكره حيـــاة الجاهلية . وما أن سمع عن الاسلام ونبي الاسلام حتى أسرع ليسلم .

والعقاد حين ينتهي من قصة اسلام بلال وما كان بها من ملابسات ينتقل الى صفاته الخلقية تلك التي جعلته من السابقين الى الاسلام .

الخلاصة التي يمكن ان يخرج بها القارىء من هذا الكتاب ان تاريخ معاوية بن ابي سفيان لا يحتاج الى مزيد من تفصيل، وانما يحتاج تاريخه وتواريخ النابهين جميعا الى تصحيح الموازين وبيان المداخل التي تؤتـى من قبلها احكام الناس على الحوادث والرجال ، فتصاب بالخلل او تنقلب راسا على عقب . ويصاب بالخلل معها تفكير المفكر ونظرة الناظر وادراك المدرك لما يحيط به من حوادث زمنه وحوادث سائر الازمنة .

ونحن نفهم تاريخ معاوية ونفهم معه تواريخ الكثيرين من بناة الدول اذا صححنا الموازين وعرفنا ما يعرض لها من الانحراف عن قصد او عن شعور غير مقصود .

ولكننا لا نعرف تاريخ معاوية ولا تواريخ غيره اذا اخذنا بظواهر الاقوال ولم ننقب وراءها عن بواطن الاهواء والبواعث الخفية ، ولا بد منها في هذه المرحلة بذاتها : مرحلة الدولة الاموية الاولى على التخصيص

لقد كان قيام الدولة الاموية بعد عصر الخلافة حادثا جللا بالغ الخطر في تاريخ الاسلام ، وتاريخ العالم .

وما كان احد ليطمع في بقاء عصر الخلافة على سنّة الصديق والفاروق ابد الابدين ودهر الداهرين ، لان اطراد النسق من ولاة الامر على هذه الطبقة العليا من الخلق والتقوى امر تنوء به طاقة بني الانسان .

فما كان دوام الخلافة الصديقية او الفاروقية بمستطاع على طـول الزمن وما كان قيام الملك بعد الخلافة بالامر الذي يؤجل الى زمن بعيد.

ولكن الملك بعد الخلافة كان على مفترق طريقين : كان في الوسع أن يسير على مشابه الخلافة ملكا باراتقيا مصونا من بذخ الهرقلية والكسروية وسائر ضروب الملك في عصوره الخالية .

وكان في الوسع أن يسير على مشابه الملك في العصور الخالية بذخا ومتاعا وزينة وخيلاء كخيلاء العواهل من القياصرة والشواهين .

كان في الوسع أن يبتدىء الملك في تأريخ العالم على النهج الصديقي او الفاروقي وان لم يبلغ هذا المدى من النزاهة والصلاح ، وكان هـذا النهج خليقا ان يظل إماما للرعية يتوارثونه ويقتدون به ويحميهم مـن نكسة الاخلاق والآداب قرونا وراء قرون من بقايا الوثنية وأوشاب المادية وما شابهها من آداب تدور على النفع العاجل وتقبل المعاذير منه فـي أخطر الامور .

كان في الوسع هذا ، وكان في الوسع ذاك .

ونشأة الدولة الاموية على مفترق هذين الطريقين هي الحادث الجلل في صدر الاسلام ، وهي الحادث الجلل الذي يقرر تبعتها في التاريخ الاسلامي بل في التاريخ العالمي كله .

وراس الدولة الاموية ، معاوية بن ابي سفيان ، وهو صاحب هذه التبعة التي يجب ان تتقرر بأمانتها العظمى في ميزان لا تلعب به المنافع المقصودة او المنافع التي هي اخطر منها على الحقيقة ، وهي منافع الطبائع المستسلمة لأيسر المعاذير ، يشق عليها الصعود الى المثل الاعلى ولو بالامل وحسن المظنة ، ويطيب لها ان تسترسل على هيئته مع مألوفاتها في كل يوم .

والعقاد يتناول في صفحات هذا الكتاب النظر في سيرة معاوية من هذه الوجهة ، فليست هي سردا لتاريخه ولا سجلا لاعماله ولا معرضا لحوادث عصره ، ولكنها تقدير له وانصاف للحقيقة التاريخية وللحقيقة الانسانية — كما يراها المجتهد في طلبها وتمحيصها ، ونكاد نقول كما يراها من لا يجتهد في البعد عنها واخفاء معالمها والتوفيق بينها وبين دخيلة هواه من حيث يريد او لا يريد . وبعض المؤرخين بعد العصر الاموي الى زماننا هذا يفعلون ذلك حين ينظرون الى هذه الفترة فلا تخطئهم من أسلوبهم ولا من حرصهم على مطاوعة أهوائهم ، كأنهم صنائع الدولة في ان سلطانها وبين عطاياها المغدقة ونكاياتها المرهوبة ورجالها الذين تعقد بينهم وبين معاصريهم أواصر المودة والنسب واواصر المشايعة في المطالب والمعاذير .

ولولا اننا نأبى ان نضرب الامثلة بالاسماء لذكرنا من هؤلاء المؤرخين المعاصرين من يتكلم في هذا التاريخ كلاما ينضح بالغرض ويشف عن المحاباة بغير حجة فمنهم من ينكر الخلاف بين هاشم وأمية في الجاهلية ، ومنهم من يحسب من همة معاوية انه تصدى للخلافة مع علي ويحسب من المآخذ على غيره انهم تصدوا للخلافة مع يزيد ، ومنهم من يشيد بفضل ابي سفيان على العرب لانه كان تاجرا يعرف الكتابة والحساب ويعلمهما من يستخدمهم في تجارته ومنهم من يلوم اهل المدينة لانهم نكبوا في ارواحهم وأعراضهم على أيدي المسلطين عليهم من جند يزيد ولا تكاد تسمع منه لوما لاولئك المسلطين ، بل تكاد تسمعه يعذرهم ولا يدري ما يصنعون غير ما صنعوه .

عمرو بن العاص

وحين يتناول شخصية محرر مصر عمرو بن العاص فانه يبدأ بنشأته في بطن من البطون القرشية المشهورة وهم «بنو سهم» ويتطرق الى صفاته الجسدية والنفسية والخلقية ثم يحدثنا عن كيفية انتقاله من التجارة الى الامارة بما في ذلك من مفارقات مركزا على قيمة التجارة في حياة عمرو بن العاص ، فهي مدرسته الكبرى في السياسة والفتوحات ثم قدم لفتح مصر بمسألة بديهية هي ان الصدام بين العرب والرومان كان قضاء موغودا منذ اللحظة التي نشأت فيها الدعوة الاسلامية ، وكتب لها البقاء مبررا ذلك بأن الاسلام رسالة تتجه الى أسماع الناس ، وقلوبهم ، ولان للدولة الرومانية سلطانا قائما يحول بين رسالته والاسماع ويتم فتح مصر على يدي عمرو بن العاص ، ويقدم لنا الاستاذ العقاد في صورة ادبية رائعة حالة البلاد والسكان وملكها المقوقس ثم الحالة الدينية والادارية في ذلك الوقت ويذكر ان الفتح لم يكن مكروها من سكان مصر لانه نشر الامن والاطمئنان في البلاد .

وحين نتوقف مع العقاد عند وصفه لدهاء عمرو بن العاص الذي اشتهر به نجده يقدمه بأنه قد أحصى للعرب دهاتهم في الاسلام فعدوا اربعة هو منهم وجعلوا لكل منهم مزية يمتاز بها في دهائه فقالوا : ان معاوية للروية وعمرو بن العاص للبديهة ، والمغيرة للمعضلات وزياد لكل كبيرة وصغيرة .

ولو تكلم العرب باصطلاح هذه الايام لقالوا : ان حيلة عمرو هي حيلة العبقرية المطاعة التي تتفتق له من حيث يعلم ولا يعلم ، وآياتها انها عبقرية معبرة تلهم الخاطر السريع وتلهم التعبير عنه في كلمة وخبر وهذه هي العبقرية التي يختلط امرها احيانا على من يراقبونها فيتهمونها بالطياشة ، ويرمونها بدفعة التهور ، لانهم يسلسلون اسبابهم في بطء وتثاقل وهي تسلسل اسبابها في سرعة وخفة فيبدو لها ما يظل خافيا عليهم متلبسا في أعينهم ، ولولا انها واضحة عند صاحبها كل الوضوح لما تسنى له التعبير عنها بأسلوب يلائم ومضاتها في السرعة والنفاذ .

قيل لعمرو : ما العقل ؟ قال : الاصابة بالظن ومعرفة ما سيكون بما قد كان .

والاصح أن يقال ان التعريف بالعقل هنا هو التعريف لعقل عمرو ، لانه كان يجمع بين الفطنة والخبرة ، وبين التخمين واليقين ويأخذ من

امامه بالنظرة الخاطفة ، فاذا هو قد وصل والذي أمامه لا يزال يتحرى سبيل الوصول .

قيل في غير الرواية التي قدمناها انه هو الذي وصـــف نفسه ، ووصف الدهاة الثلاثة معه على تلك الصفة ، وانه اجتمع مع معاوية بن ابي سفيان مرة فقال له معاوية : من الناس ؟ فقال : أنا وانت والمغيرة بن شعبة وزياد قال معاوية : كيف ذلك ؟ قال : اما انت فللتأني ، وأما أنا فللبديهة ، وأما المغيرة فللمعضلات ، وأما زياد فللصغير وللكبير من الامــور » .

هذه شخصية عمرو بن العاص كما يقدمها العقاد في كتابه .

ثالثا : الدراسات والابحاث

يبقى بعد ذلك من اسلاميات العقاد القسم الثالث منها وهو الخاص بالدراسات والابحاث الاسلامية .

والعقاد حين يتحدث عن الاسلام ويكتب فيه يقدمه عن فهم وعقيدة على انه نظام كامل يحدد الخطوط لاقامة مجتمع كبير متكامل في مختلف الميادين الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وهذه الدراسات والابحاث الاسلامية يغلب عليها في كتابات العقاد أمران :

١ ــ الدفاع عن الاسلام ضد اباطيل خصومه .

٢ ــ تقديم الصورة الحقيقية للاسلام .

والامران كما هو واضح وجهان لحقيقة واحدة مؤداها انه حين يبحث عن الاسلام بمعناه الصحيح فانه يدافع ضمنيا عن الاسلام .

والحق أن اصول هذا المنهج مستمدة من تعاليم الشيخ محمد عبده. فقد مضى العقاد في اثره يؤمن في عمق بأن الاسلام دين عالمي صالح لكل الشعوب اذ قرر للانسانية مبادىء لا يمكن صلاحها بغيرها مفوضا للعقل الانساني أن يختار ما يلائمه مما يتمشى مع الاطوار الاجتماعية التي تتغير وتتبدل من بلد الى بلد ، ومن عصر الى عصر ، ومن مدينة الى مدينة ؛ فتلعب النظرية دورا كبيرا في كل ما كتب العقاد من دراسات وابحاث اسلامية . وقد عبر العقاد عن ذلك صراحة في تقديمه لكتاب «الفلسفة القرآنية» حيث يقول : «موضوع هذا الكتاب هو صلاح العقيدة الاسلامية لحياة الجماعات البشرية ، ووفقا لهذا المنهج نرى العقاد يقدم لنـــا

دراساته وأبحاثه » .

ونظرية ثانية يبثها الشيخ محمد عبده في تعاليمه هـــي ان الاسلام يفرض على الناس التفكير وان يحتكموا دائما الى العقل وهو نفسه احتكم اليه في اثبات عقائده وتعاليمه الاساسية ، وقد دعا الشيخ الامام دعوة واسعة الى الانتفاع به في العلم وجميع شؤون الحياة . والعقاد يصدر بهذه النظرية كتبه وقد أفرد لشرحها كتابه «التفكير فريضة اسلامية» وهو يستهله بأن من مزايا القرآن الكثيرة مزية واضحة هي التنويه بالعقـــل والتعويل عليه في امر العقيدة وامر التبعة والتكليف ، ويقول انه لا يذكر العقل الا في مقام التعظيم والتنبيه الى وجوب العمل به والرجوع اليه وقد خاطبه بكل صوره المدركة للتصورات الانشائية والوازعة عـن المحظورات والمنكرات والاستدلالات المستخرجة للاحكام والراشدة المستبصرة. وبذلك يعم الخطاب في القرآن العقل بكل صوره وخصائصه ووظائفه ولا يذكره عرضا مقتضبا بل يذكره مقصودا مفصلا على نحو لا نظير له في كتاب من كتب الاديان .

ولعناية الاسلام بالعقل بقية في نظرية الشيخ محمد عبده يلتقي فيها بالمعتزلة ومؤداها ان الاسلام يدعو الى حرية الارادة الانسانية يختـــار بمشيئته عمله . وبهذه النظرية المستمدة من الشيخ محمد عبده أصداء كثيرة في كتابات العقاد الدينية وخاصة في كتابه «الانسان في القرآن» من حيث يقرر ان الله اعطى الناس حظوظا من الحرية والارادة وبدونهما لا يكون تكليف ولا مسؤولية . وعلى هذا النحو يمكن ان يرد كثير من أفكاره الدينية الى مصادرها الاولى عند الشيخ الامام محمد عبده .

ومعروف ان الشيخ الامام محمد عبده عني طويلا بالرد على خصوم الاسلام على نحو هو معروف في كتابه «الاسلام والنصرانية» وعلى ضوء هذه العناية الف العقاد كتابيه «حقائق الاسلام واباطيل خصومه» و«مـا يقال عن الاسلام» وقد حاول كثيرا ان يدلل على ان الاسلام وضع للانسانية صورة رائعة من الاصلاح الاجتماعي ، وهو دائم الحديث عن ذلك فـي كتبه السابقة وايضا فانه ــ اي الاسلام ــ كفل للناس حريتهم السياسية بما شرح لهم من نظام ديمقراطي سليم وسترى ذلك في كتابه «الديمقراطية في الاسلام» وقد عني العقاد في كتابه «مطلع النور» ببيان ان الرسالة المحمدية مهدت لحدوث مقدمات هيأت لها بحيث غيرت من لـــوازم الانسانية وحاجتها ودواعيها. وسوف نراه في «الاسلام والقرن العشرين» يتحدث عن قوة الاسلام الغالبة الصامدة على التاريخ كما تحدث عـــن

الدعوات التي انبعثت فيه منذ القرن التاسع عشر واطوارها مع نهضات الاصلاح وهو دائما اذا تحدث عن مستقبل الاسلام ملأته الثقة والامل .

يضاف الى تأثير الامام الشيخ محمد عبده في العقاد ... امكانية العقاد نفسه على الدفاع والاقناع والرد والحجة وهي أمور عرف بهـا العقاد وجعلته ناجحا في دفاعه عن الاسلام .. ولعل هذا النجاح مرجعه سعة اطلاعه ، وفحولة منطقه ، ونفاذ بصيرته الى حقائق الاشياء التي خلقها الله ، وتأهبه لكل قضية بما يناسبها من عتاد .

وبهذا المنهج قدم العقاد دراساته وهـي : **«الله»** و**«مطلع النور»** و«حقائق الاسلام» و«ما يقال عن الاسلام» و«التفكير فريضة اسلاميـة» و«الشيوعية والانسانية في شريعة الاسلام» و«الديمقراطية في الاسلام» و«الفلسفة القرآنية» و«الانسان في القـرآن» و«المرأة في القـرآن» و«الاسلام في القرن العشرين» فماذا تقول هذه الكتابات ؟

الله :

موضوع هذا الكتاب هو نشأة العقيدة الالهية ، منذ اتخذ الانسان إلها الى أن عرف الله الواحد الأحد واهتدى الى نزاهة التوحيد .

وقد بدأه العقاد في الاقوام البدائية ثم لخص عقائد الاقوام التـي تقدمت في عصور الحضارة ثم عقائد المؤمنين بالكتب السماوية ، وشفع هنا ذلك بمذاهب الفلاسفة الاسبقين ، ومذاهب الفلاسفة التابعين .

ولقد كانت عناية العقاد في كتابه هذا عناية بالعقيـدة الإلهية دون غيرها . فلم يقصد فيه الى تفصيل شعائر الاديان ولا تقسيم أصـول العبادات ، لان الموضوع على حصره في نطاقه هذا اوسع من ان يستقصي كل الاستقصاء في كتاب .

ان موضوعا كهذا الموضوع المحيط لعرضه للتشعب والتطويل كيفما تناوله الكاتب ومن اي جانب تحراه فلا بد فيه من ايجاز ، ولا بد فيه من اكتفاء .

والحق ان العقاد تحرى الايجاز ، وتحرى معه ان يغنيه فيما قصد وذلك هو الالمام بأطوار العقيدة الالهية على وجهتها في التوحيد . وأن تكون هذه الاطوار مفهومة العلل والمقدمات .

وختم العقاد هذا المبحث الهام بفصلين أما الاول فكان عن مذاهب

الفلسفة العصرية فيقول : كان الاقدمون يقولون بالإله «المقيد» لانهم يؤمنون بتعدد الآلهة او بوجود إلهين اثنين يتناظران ويتغالبان ، وهما اله الخير وإله الشر ، او اله النور وإله الظلام .

ولما شاع الايمان بالتوحيد بطل القول بالإله «المقيد» لان الاله الواحد لا يحده شيء ولا تحيط به القيود والنهايات ، وكل ما قبلته العقول النفسية في حقه أن قدرته جل وعلا لا تتعلق بالمستحيل ولم يقبل بعض المتكلمين حتى هذا القول .. لانهم رأوا ان الاستحالة نوع من التقييد الذي تتنزه عنه قدرة الله .

ثم عرف الناس ان الارض كرة سيارة تدور في الفضاء كما يدور غيرها من السيارات .. وعرفوا مذاهب النشوء والتطور . فقال لهم دعاته ان الانسان حي كسائر الاحياء التي نشأت على الارض وتحولت بها أحوال البيئة من طور الى طور ومن طبقة الى طبقة في مراتب المخلوقات .

فتواتر القول بما كان لهذين الكشفين من الاثر الخطير في نظرة الانسان الى الكون ونظراته الى نفسه ونظراته الى حقيقة الحياة .

كان يحسب ان الارض مركز الوجود وانه هو مركز الارض او غاية الخلق كله في الارضين والسماوات ، وكان يحسب انه شيء علوي تسخر له الأحياء ، ولا يحسب انه فرع من فروع الشجرة التي نبتت منها سائر الفروع فتغير نظره الى الكون ونظره الى نفسه ولكن فهل تغير نظره الىالله؟

ربما تزعزع الايمان بالله بعد هذه الفلسفات العصرية .. التي تؤمن بوجود الله ولكنها تقيده بقوانينه او تقيده بنواميس المادة والقوة .

هذا السؤال وغيره من الاسئلة التي تدور حول الله والايمان به في العصور الحديثة التي غلبت فيها المادة على الروح تجيب صفحات الكتاب عليه .

الشيوعية والانسانية في شريعة الاسلام

ما هي حقيقة الشيوعية ومن هو صاحبها ومن هم اتباعه ؟ وما هي حقوق الفرد ومكانه . الاخلاق والدين والآداب والفنون والمعارف والعلوم في خلال هذا المذهب التي قامت عليها الشيوعية ونادى بها اعضاؤها والمروجون لها ؟

العقاد يرسم لنا صورة صادقة ـ مدعمة بالشواهد والادلة

والبراهين – تنطبق بتداعي هذا المذهب وفساده ، وبأنه وليد النعمة والرغبة في اشباع شهوة الحقد والحسد والكراهية .

والعقاد لكي يصل الى رايه هذا قطع رحلة مع الكتب التي كتبت عن الشيوعية سواء لها او عليها ، الكتابات الشيوعية نفسها وترجمات لزعامتها وفي مقدمتهم ماركس .

وشرع يكتب ممهدا لكارل ماركس كشخصية لها تأثيرها العقائدي ثم درس شخصية كارل ماركس نفسها من جوانبها النفسية والاجتماعية والثقافية والسياسية على اعتبار ان دراسته لزعيم هذا المذهب ومنشئه على حد قوله يجعل من السهل دراسة المذهب ورجاله .

بعد ان يدرس صاحب المذهب كارل ماركس على حد تعبيره ينتقل الى اتباعه ثم بواعث الشكاية في الشيوعية الى ان يصل الى عرض المذهب الشيوعي نفسه ، ومن بعده يعرض المادية وعلاقتها بالمذهب الشيوعي .

ينتقل بعد ذلك الى القسم الثاني من كتابه «الشيوعية والانسانية في شريعة الاسلام» حيث يخصصه عن الطبقات وعلاقتها بالشيوعية فيتحدث اولا عن الطبقات والانتاج ، ثم عن القيمة الفائضة ثم عن حقوق الفرد في المجتمع وواجباته .

بعد هذا يصل الى القسم الثالث وهو يعتني بالشيوعية وعلاقتها بكل من الاخلاق والآداب والفنون والمعارف والعلوم وهل كان لهذه العلاقة من فوائد علمية .

حتى يصل ببحثه الى القسم الاخير وهو الشيوعية والاسلام ويبين كيف ان ماركس قد قرأ عن الاسلام اثناء قراءته لعلم الانسان . غير ان العقاد يرى ان ماركس لم يقرأ تعاليم الاسلام وحلوله لبعض مشكلاته الاجتماعية قراءة دقيقة . فقد كان يبدو متعجلا فيما وصل اليه من نتائج وأفكار .

ثم يتحدث بعد ذلك عن حاجز الشيوعية في منتصف القرن العشرين فيتجه لقرن كامل منذ منتصف القرن التاسع عشر ، مضى اكثره في الدعاية والجدل ، ومضت البقية منه في التطبيق او في محاولة التطبيق بعد الحرب العالمية الاولى .

وقد أتيحت لدعاة المذهب خلال هذا الجيل فرصة لم تكن متاحة قط لمذهب اجتماعي او عقيدة دينية لانهم ملكوا ازمة الحكم بين مائتي مليون من الناس واجتاحوا كل عقبة قائمة او تخيلوا انها قائمة دون غايتهم ولو كلفتهم ما لا يستباح .

هذه الجوانب جاءت في كتاب العقاد عن الشيوعية في شريعةالاسلام.

المرأة في القرآن

تقول مفكرة كتاب «المرأة في القرآن» للعقاد ان الصفة العامة التي وصفت بها المرأة في القرآن الكريم هي الصفة التي خلقت عليها ، او هي صفتها على طبيعتها التي تحيا بها مع نفسها ، ومع ذويها والحقوق والواجبات التي قررها كتاب الاسلام للمرأة قد أصلحت أخطاء العصور الغابرة في كل امة من أمم الحضارات القديمة ، وأكسبت المرأة منزلة لم تكسبها قط من حضارة سابقة ولم تات بعد ظهور الاسلام حضارة تغني عنها ، بل جاءت آداب الحضارة المستحدثة على نقص ملموس في أحكامها ووصاياها ، لانها اخرجت من حسابها حالات لا تهمل ، ولا يذكر لمشكلاتها حل افضل من حلها في القرآن الكريم اذا انتقل بها البحث من الاهمال الى الدراسة والتدبير .

وقد حدد القرآن في معاملته للمرأة آثارها الانسانية التي تقوم على العدل والاحسان لانها تقوم على تقدير القوة والضعف او تقدير الاستطاعة والاكراه .

ويمكن تفصيل هذا الايجاز فالعقاد بدأ كتابه بموضوع حول ما للرجال على النساء من درجة الامر الذي جاء به القرآن وشرعته السنة ، وأكده الفقهاء .

وعن الكيد عند النساء يفرد العقاد فصلا حيث يقول : جاء وصف النساء بالكيد في ثلاثة مواضع في القرآن مرتين على لسان يوسف ومرة على لسان العزيز .

والاخلاق الاجتماعية كان لها رصيد من الاهتمام في الفصل الرابع.. حيث يقرر ان حكمة القرآن الكريم تتجلى في النص على قوامة الرجال من أحوال المجتمع كما تتجلى من أحوال الاسرة وأحول الصلة الزوجية بين الذكر والانثى اي بين الرجل والمرأة في نوع الانسان .

وعن مكانة المرأة في الاسلام يذكر العقاد بأن الاسلام جاء بحقوق مشروعة للمرأة لم يسبق لها مثيل . واكرم من ذلك ان الاسلام رفع المرأة من المهانة الى مكانة الانسان المعدود من ذرية آدم وحواء ، وبرأها من رجس الشيطان وحطة الحيوان .

والحجاب الذي تطالب به الافكار الجديدة الان ، طالب به الاسلام .

فلا حجاب فيه بمعنى الحبس والحجر والمهانة ، ولا عائق فيه لحرية المراة حيث تجب الحرية وتقضي المصلحة وانما هو الحجاب مانع الغواية والتبرج والفضول وحافظ الحرمات وآداب العفة والحياء .

وقد حدد الاسلام حقوق المراة في كل جوانب الحياة وفصل لها الاعمال التي تجوز لها في المجتمع .

وعندما تحدث العقاد في كتابه هذا ، وموقف القرآن من زواج المراة . أتبع هذا الفصل بآخر عن زواج النبي صلى الله عليه وسلم كمثل وشريعة وبالطبع تحدث فيه عن تعدد الزوجات .

والاسلام يرى ان الطلاق حلال ولكنه ابغض الحلال عند الله . هكذا يقول العقاد في كتابه . ثم يحدد متى تكون المراة طالقا ومتى لا تكون .

وبعد ان حدثنا عن السراري والإماء يفرد جزءا عن مشكلات البيت وكيف يكون البيت مكانا لاسعاد الزوجين والابناء .

الديمقراطية في الاسلام :

يوضح العقاد في كتابه هذا فكرة الديمقراطية كما انشاها الاسلام لاول مرة في تاريخ العالم . وقد دعاه الى هذا البحث ان الامم الاسلامية في هذا العصر تنهض وتتقدم وانها أحوج ما تكون في هذه المرحلة خاصة الى الحرية والايمان متفقين . لان الحرية بغير ايمان حركة آلية حيوانية اقرب الى الفوضى والهياج منها الى الجهد الصالح والعمل المسدد الى غايته فمن الخير ان تذكر الامم الاسلامية على الدوام ان الحرية عندها ايمان صادق وليست غاية الامر فيها انها مصلحة ونظام مستعار .

ولمن شاء ان يقراها من الوجهة الدينية فسيراها مطابقة للعقيدة الدينية الحسنى في غير شطط ولا جمود.

ولمن شاء أن يقرأها من الجهة العلمية فسيرى ان الموضوع كله صالح للعرض على مقاييس العلم وموازينه ، ولكن على شرط ان يفهم اولا ما هي المسألة التي تعرض على العلم حين نتكلم عن الديمقراطية في الاسلام.

ويتساءل العقاد :

ــ هل هي شعائر العقيدة وعباراتها ومدلولاتها في العقل وفي الضمير؟
ــ هل هي اعتقاد كما استقر في فطرة الانسان ؟
ــ هل هي الامم التي دانت بتلك العقيدة مئات السنين وصدرت عنها

في تقدير الاخلاق والعادات وتقرير المباح والمحظور ؟

ــ هل هي الاعمال الجسام التي تمت بباعث تلك العقيدة ولولاها لما تمت على هذا الوجه او لما تمت على وجه من الوجوه ؟

ــ هل هي اسلوب الوجدان في قصور الحقائق الدينية والشعور بالغيب المكنون وراء ظواهر هذا الوجود ؟

ــ وهنالك جانب «سلبي» يقابل هذا الجانب «الايجابي» ولا بد من السؤال عنه كما يسأل عن هذه الامور .

فاذا عرضنا لتقدير الحياة الدينية في أمة من الامم هل تستغني عن النظر الى الانسان المجرد من الاعتقاد الذي خلا وجدانه من الايمان ؟

ــ وهل نستطيع ان نفقد من تقديرنا انه انسان غير طبيعي في قلقه وارتيابه وسوء ظنه بوجوده ، وان اجتماع ملايين من أمثال هذا الانسان في امة واحدة يخلق لنا أمة غير طبيعية في خللها وفوضاها ونقص البواعث التي تمسك بعضها الى بعض وتربط كلا منها برباط القانون والحق وصوالح العادات ؟ وما هي الظاهرة العلمية التي يقررها العالم اذا قاس الامور كلها بهذا القياس ووزن الاحداث التاريخية والاطوار الانسانية كلها بهذا الميزان ؟

ــ هنا حقيقة شاملة لا انفكاك لجزء من أجزائها في سائرها حقيقة حية تنتظم في أطوائها مئات الملايين من البشر في عشرات المئات من السنين . وتدخل فيها بواعث الاخلاق والاجتماع والنهوض والتقدم بين أولئك الملايين في ذلك الزمان فأي عنصر من هذه العناصر يحمله العالم الى معمله لتحليله وتعليله ؟ وكيف يحللها صلة ويعللها جملة ، ويخرج معها جاهلا بالقوة الشاملة في هذه الحقيقة الحقة ؟ وكيف يستطيع ان يزيفها وليس في جواهر الحقائق العيانية ــ ما هو اثبت منها واعصى على التزييف ؟

والكتاب يذهب الى ان طريقة الوجدان في تحصيل الحقائق تثبت تلك الحقائق ولا تبطلها واننا لو تأملنا حقائق الحس نفسه لوجدنا لهنا أسلوبا يخالف تعبير العلماء في الوصف والتعليل فنحن نسمع كلمات لها وقع في النفس والعلم لا يعرف من هذه الكلمات الا أمواج الهواء أو الفضاء ، ونحن نذكر اللون الاحمر واللون الازرق واللون الاخضر وغيرها من الالوان الخالصة او الممزوجة ، والعلم لا يعرف منها الا ذبذبة شعاع ، ثم لا يعرف ما هي هذه الذبذبة واين يكون مجراها من الاثير او الفضاء على التحقيق .

وبهذه النظرة العلمية يتلاقى رجل العلم ورجل الدين ويستطيع الباحث في الديمقراطية الاسلامية ان يحسب حسابها بضميره وعقله والا يعدو الواقع حين يضع يديه على الاسباب ونتائجها فيقول ان شاء هذا هو العيان ويقول ان شاء هذا هو الوجدان .

ويقدم معنى الديمقراطية عامة .

والديمقراطية في الاديان الكتابية .

ثم الديمقراطية العربية .

والحكومات والإمامة والديمقراطية السياسية والديمقراطيةالاقتصادية والاخرى الاجتماعية والاخلاق الديمقراطية ثم التشريع والقضاء .

الاسلام في القرن العشرين :

في هذا الكتاب نجد العقاد متفائل شديد التفاؤل بمستقبل الاسلام في القرن العشرين ولعل تفاؤله هذا مبني على ما كان من أمجاد ماضيه البعيد ذلك الماضي المزهر حين امتد الاسلام من حدود الصين شرقا الى حدود افريقيا الغربية غربا ومن بحر قزوين شمالا الى السودان جنوبا ولكن العقاد رغم تفاؤله هذا يشترط شرطا واحدا لكي يظل الاسلام على امجاده هذه والشرط هو ان يبقى العلم والبصيرة والفكر في الاسلام ـ مستقبلا ـ ذلك المكان الذي كان له ابان نهضته . فاذا بقي للاسلام هذا الشرط في رأس العقاد فلا خوف عليه من اقوياء اليوم او الغد .

والعقاد في كتابه هذا يمزج النصيحة بالامل ونحس بأن ما يقوله من آراء لا يمكن أن تصدر عن شخص مزعزع العقيدة اذ يقول :

انما نحن آمنون اذا واجهنا الغد المجهول بعدته، وانما نحن مستعدون لخير ما نستطيع اذا خرجنا من الماضي الطويل بعدته الوافية . وعبرته الوافية أن العقائد اثبت من السياسات وان الدول أثبت من الامم ، وأن الجاهل اعدى لأمته من اعدى اعدائها وما نكب الاسلام قط من حرب صليبية او من حرب استعمارية كما نكب من ابنائه الجهلاء .

ارايت تشخيصا للداء ووصفا للدواء ابلغ من هذا الذي يسوقه علينا العقاد . فالعقاد في نظره أثبت من السياسات لان هـذه السياسات متغيرة حسب الاشخاص والازمان ، هذا من ناحية . وأن من ألد أعداء الامة هم الجهلاء .. لقد ازدهر الاسلام وتقدم وكانت له الحضارة بالعلم

ووصل الاسلام بهذا العلم حتى دخل اوربا فعلمها . كل هذا كان بالعلم، ويوم نكب الاسلام بالجهل سلطت عليه طغيان الدول واستعمارها .

وهل هذا الكلام يصدر الا عن عقيدة مكينة وايمان كامل بمستقبل الاسلام ؟ ان العقاد يسترسل في حديثه عن الاسلام فيقول : «واذا بقي للاسلام ايمانه والمؤمنون به على هدي وبصيرة فلا خطر عليه من اقوياء اليوم ولا من اقوياء الغد المجهول من كل خطر أن يتخلف مكان العلم والبصيرة ويتقدم مكان الجهل والغباء». هذه عقيدة ساقها في كتابه هذا.

وفي الكتاب يحدثنا العقاد عن مضي القوة الغالبة الصامدة وينتقل في حديثه الى مضي الشمول وشمول العقيدة بوجه خاص . ولعل كل هذا تقديم لما يريد قوله بعد ذلك عن الاسلام اولا في القرن التاسع عشر والمسلمون ووصفهم في هذا العالم الذي أصبح فيه اقوياء وضعفاء . الم يقتصر مثلا على دولتين كبيرتين هما فارس وبيزنطة ؟ تلك التي نشأ الاسلام في وجودهما في القرن السادس الميلادي وقد تحدث بشيء من التفصيل عن الاسلام في ايران وفي مراكش وفي الهند وفي الصين وفي افريقية الشمالية والحبشة وغيرها من البلدان تلك التي تواجه حربا ضارية من التبشير .

ثم ينتقل الى الحديث عن محاولات الاصلاح والنهضات التي كانت في هذه الفترة بالذات . ويحدثنا عن المصلحين في مقدمتهم احمد خان وجمال الدين الافغاني ومحمد عبده والمهديون .

وينتقل بعد ذلك الى الحديث عن الدعوات والنهضات في القرن العشرين وليس في القرن التاسع عشر مثلا .

الفلسفة القرآنية :

في كتابه «هذا» يوضح العقاد المقصود بالفلسفة القرآنية وهي التي تعني الجماعة الاسلامية في باب الاعتقاد ولا تصدها عن سبيل المعرفة والتقدم . بعد هذا نراه يضيق بما يذهب اليه بعض الكتاب الاسلاميين الذين تبهرهم الكشوف العلمية الحديثة فسرعان ما يربطون بينها وبين الدين ويقدمون آراء اهلها على انها فتوح جديدة في العلم والدين والعقاد يضع حكما دقيقا في هذه المسالة خلاصته ان معظم النظريات العلمية المتعلقة بخلق الكون او مظاهر هذا الخلق لا تزال مجرد فروض ولا ينبغي

ان تربط بين الدين وبين نظرية علمية قد تبدو اليوم باهرة للابصار ثم لا تلبث ان تنقضي غدا واحترام العقاد للدين جعله يعبر عن هذا الموقف وهو انه لا ينبغي ان تخضع العلم للدين لان الدين يحض على العلم الى ابعد مدى ويدعونا الى البحث عن الحقيقة حتى نهتدي اليه بجهودنا .

وخلاصة كتاب «الفلسفة القرآنية» انه ليس للعلماء ولا للفلاسفة ان يطلبوا من الدين غير هذا .

وانه مهما يكن من رأيهم في الايمان بالله ، فهم لا يجهلون ولا يستطيعون ان يجهلوا ان الايمان ـ كما قدمنا ـ ضرورة كونية ، لا تخلقها مشيئة احد من الآحاد ، ولو كان في قدرة الرسل والانبياء .

فاذا أجمع الناس على الاعتقاد كيفما كان اختلافهم في الجنس ، والوطن ، والمصلحة ـ فليس هذا عمل فرد ، ولا هو مما يقع بين الحين والحين عرضاً واتفاقا من فعل الحيلة والتدبير ، ولكنه باعث من صميم قوى الكون ، لا يفلح الرسل والانبياء في نشر دعوته ما لم يكن في تلك الدعوة مطابقة لحكمة الخلق وسر التكوين .

وكل اعتراض يعترض به المنكرون على حقائق الاديان لا يقام له وزن ، في مواجهة هذه الظاهرة الواقعة التي لا شك فيها ..

بل هو لا ينفي الوحي الالهي كما تخيلوه ، او كما يمكن ان يتخيلوه، ولا يبطل ضرورة الاعتقاد بين الجماعات البشرية بحال من الاحوال .

انهم يتخذون من عقائد بعض العامة ، او عقائد بعض الخاصة، دليلا على انها أمور لا تصدر من عند الله . الذي يصنعه اصحاب الاديان بالعلم والحكمة والقدرة على هداية العقول الى الصواب في الكبير والصغير .

فاذا كان هذا هو المبطل للوحي الالهي ، فكيف يثبت الوحي الالهي في قياس اولئك الفلاسفة او العلماء ؟.

ايثبت بعقيدة يدين بها العامة كما يدين بها الخاصة ، وتطابق الدروس العلمية اليوم ، كما تطابقها عندما تنقض نفسها بكشف جديد ؟.

ايثبت بعقيدة تدخل العمل الصناعي ـ او المعملي ـ كل سنة او كل بضع سنوات للفحص والامتحان ؟.

أيثبت بعقيدة ليست بعقيدة ، ولكنها مجموعة من الازياء الرسمية التي يغيرها الانسان تارة بعد تارة ، ولا يمزجها ببواطن الضمير ؟.

كلا .. فان الوحي الالهي ـ متى يثبت ـ لا يثبت على النحو الذي تخيلوه بل على النحو الذي عهدنا عليه الاديان ،. مع اختلاف العقول اختلاف الاجيال واختلاف المعلومات .

عقيدة هي عقيدة ، وايمان هو ايمان .. وبعد ذلك موافقة لدواعي الحياة ومطالب الفكر وخلجات الشعور وهكذا تصح العقيدة ، ان صحت على الاطلاق ، وهكذا يكون الايمان ، ان كان ايمان .

والعقاد راى اناسا يبطلون الاديان في العصر الحديث باسم الفلسفة المادية فاذا بهم يستعيرون من الدين كل خاصة من خواصه ، وكل لازمة من لوازمه ، ولا يستغنون عما فيه من عناصر الايمان والاعتقاد ، التي لا سند لها غير مجرد التصديق والشعور ، ثم يجردونه من قوته التي يبثها في أعماق النفس ، لانهم اصطنعوه اصطناعا ، ولم يرجعوا به الى مصدره الاصيل .

فالمؤمنون بهذه الفلسفة المادية ، يطلبون من شيعتهم ان يكفروا بكل شيء غير المادة وان يعتقدوا ان الاكوان تنشأ من هذه المادة في دورات مسلسلة ، تفل كل دورة منها في نهايتها لتعود الى التركيب في دورة جديدة ، وهكذا دواليك ، ثم دواليك الى غير انتهاء .

ويطلبون منهم أن يتظروا النعيم المقيم ، على هذه الارض ، متى صحت نبوءتهم عن زوال الطبقات الاجتماعية .. فان زالت الطبقات الاجتماعية في هذه السنة او بعدها ببضع سنوات فتلك بداية الفردوس الابدي ، الذي يدوم ما دامت الارض والسموات وتنتهي اليه اطوار التاريخ ، كما تنتهي بيوم القيامة في عقيدة المؤمنين بالاديان ..

ولا يكلف دين من الاديان اتباعه تصديقا اغرب من هذا التصديق ولا تسليما أتم من هذا التسليم .

ولا يخلو دين الفلسفة المادية من شيطانه وهو «الراسمالية» الخبيثة العسراء .. فكل ما في الدنيا من عمل سوء ، او فكرة سوء ، فهو كيد من الشيطان المريد ..

ولما طبقت هذه العقيدة في بعض البلاد على ايدي اصحاب الفلسفة المادية ـ خيل اليهم انهم ظفروا بحقيقة الحقائق واستغنوا بها عن كل ما اعتقده الانسان في جميع الازمان ، ولاسيما عقائد الاديان والاوطان .

وادخروها للزمن كله ، بل للابد كله .. ولكنهم لم يكادوا يصطدمون صدمتهم الاولى في الحرب العالمية الاخيرة حتى أفلست «عقيدة الابد» كل الافلاس ولجأوا الى الوطن يستعيدون مثله والى الديانة يستجدونها ويتمسحون بها . فنادوا «بالجهاد القومي» ورحبوا بالصلوات في المعابد وشجعوا المصلين على ارتيادها واجتمع رؤساء القساوسة في حضرة زعماء المذهب الشيوعي ليعلنوا العودة لمجلس الكنيسة الى نظامه القديم .

وفحوى هذه العبرة البالغة ان اسرار العقيدة اعمق واصدق مما يدور بأوهام منكريها ، وانها ذخيرة من القوة وحوافز الحياة تمد الجماعات البشرية بزاد صالح لا تستمده من غيرها ، وان هذه الذخيرة «الضرورية» خلقت لتعمل عملا ولم تخلق ليعبث بها العابثون ، كلما طاف بأحدهم طائف من الوهم او طارت برأسه نزعة عارضة ، لا تثبت على امتحان .

هكذا يحدثنا العقاد في كتابه «الفلسفة القرآنية» عن القرآن وكيف نظر الى الاخلاق ، والحكومة والطبقات والمادة والمرأة والزواج والميراث والاسر والرق والعلاقات الدولية والعقوبات ومسألة الروح والقدر والعلاقات الدولية والعقوبات والفرائض والعبادات والتصوف والحياة الاخرى والاصلاح .

ما يقال عن الاسلام :

يعرض هذا الكتاب لأشتات من الكتب الحديثة التي يؤلفها الغربيون عن الاسلام . ويلاحظ العقاد في هذه الكتب اختلافا بين حسن النية وسوئها .

وأهم ما يهم في هذه الاشتات المتفرقة بين مؤلفات الاجانب هو محل الاخلاص فيها وفي كتابتها فمن هم المخلصون منهم ؟ ولماذا يخلصون ؟

والجواب على هذا السؤال يحدده العقاد بقوله : كل ما اطلعت عليه من مؤلفاتهم المتلاحقة في العصر الحاضر يدل على ان المخلصين منهم فريقان : طلاب المعرفة ، وطلاب العقيدة ، وقد تجمعهما فئة واحدة يقال عنهم جميعا انهم طلاب الحقيقة في عالم العلم وعالم الضمير .

ان العلماء المتجردين للبحث العلمي عندهم يتحررون من الاهواء النفسية التي تحول بين الباحث وتقرير ما يراه كما رآه . ومنهم من يقرر مذهبا له فلا يفرق بين المشاهدات التي تنقضه او تشكك فيه او تذره معلقا بين النقض والتأييد فينتهي الى ترجيح مذهبه ثم يتبع الترجيح بقوله ان المذهب حتى الان ثابت لولا ما يرد عليه من هذه المشاهدة او تلك في جملة المشاهدات .

وليس بهؤلاء من خفاء فيما يكتبون لانه ينم على مقاصد اصحابه بعد مراجعة يسيرة ، ومنهم من عرفوا بالامانة العلمية فيما كتبوه عن سائر المطالب العلمية غير الاسلام .

اما طلاب العقيدة فهؤلاء هم زمرة من الباحثين داخلهم الشك في عقائدهم التي ولدوا عليها وغلب عليهم الايمان بأن الشرق هو مصدر الاديان وان الباحثين عن العقائد الروحية مرجعهم اليه في الزمن الحديث كما كانوا يرجعون اليه في الزمن القديم .

والعقاد يرى ان اخطر المغرضين في الكتابات الاسلامية طائفتان تملكان من وسائل الدعاية ما ليس لطائفة اخرى من طوائف المغرضين وهما طائفة الصهيونية وطائفة الاستعمار .

والحق ان النتيجة التي نستخرج منها ميزانا لما ينشره الغربيون عن الاسلام والمسلمين في عصرنا — هي تمييز المخلصين منهم وغير المخلصين وحصر البواعث التي تدفع غير المخلصين الى الجهل بالحقيقة وإخفائها اذا عرفوها .

فالمخلصون منهم هم طلاب العلم وطلاب العقيدة وغير المخلصين هم المتعصبون للوطنية الغربية والمتعصبون للدعوة المادية — كما يقرر العقاد — والمتعصبون للدين عن ايمان او عن غش واحتراف وطلاب الغرائب ودعاة الصهيونية والاستعمار .

ثم يبدأ بعرض هذه الكتب التي تتناول الاسلام بالدراسة وهي مغرضة واولى هذه الكتب كتاب «الاسلام والعصر الحديث» لمؤلفته الدكتورة «الس ليختنشتادر» وغيره من الكتب والاقاويل التي وقعت تحت عيني العقاد واراد ان يعرضها اولا ثم يناقشها ليفند ما تقوله من مزاعم وأفكار خبيثة وقد اجتمع لديه اكثر من خمسين كتابا كبيرا ، تناولت بالكتابة الاسلام والامم الاسلامية . لان الاسلام دين ونظام اجتماعي .. وله بهاتين الصفتين علاقة بما ينتشر اليوم من المذاهب العامة في شؤون السياسة والاجتماع .

وقد استطاع العقاد الى جانب عرضه لهذه الكتب أن يفند ما فيها من اباطيل وإفتراءات .. ويرد عليها .

الانسان في القرآن الكريم :

يتساءل العقاد : ما مكان الانسان من الكون كله ؟.. ما مكانه بين ابناء نوعه البشري ؟ وما مكانه بين كل جماعة من هذا النوع الواحد ، او هذا النوع الذي يتألف من جملة أنواع ينضمها عنوان الانسان ؟.

وهي اسئلة لا جواب لها في غير (عقيدة دينية) تجمع للانسان صفوة عرفانه بدنياه وصفوة ايمانه بغيبها المجهول .. تجمع له زبدة الثقة بعقله ، وزبدة الثقة بالحياة !.. حياته وحياة سائر الاحياء والاكوان ..

ويذهب العقاد الى ان هذه العقيدة الدينية توجد كما ينبغي ان توجد، وانما الضلالة فيمن يريدها على غير سوائها الذي تستقيم عليه ، ولا تستقيم على سواه .

وهذه العقيدة الدينية لا توجد اليوم لتبدأ غدا ، ولا توجد على الايام للعارفين دون الجاهلين ، وللعاملين دون الخاملين ولمن يسعون سعيهم الى العلم والايمان دون من يقعدون في مواطنهم منتظرين ، وقد يقعدون وهم يجهلون انهم قاعدون لا يعلمون ما الخبر وما المنتظر ؟ ان علموا انهم منتظرون .

هذه العقيدة بنية حية ، قوامها دهور وأعوام ، ومعايش وآمال ونفوس خلقت ونفوس لم تخلق .. ونفوس يخلق لها تراثها قبل ان يصير اليها ، وسبيلها جميعا أن تهتدي الى قبلة واحدة تنظر اليها فتمضي قدما ، او تفقدها في الافق فهي أشلاء ممزقة كأنها اشلاء الجسم المشدود بين مفارق الطرق .

ان القرن العشرين ، منذ مطلعه ، يعرض العقيدة بعد العقيدة على الانسان وعلى الانسانية ، ولكنه لم يعرض حتى اليوم قديما معادا جديدا مبتدعا هو أوفق من عقيدة القرآن . وأوفق ما فيها انها غنيت عن الاختراع والامتحان ، وأنها على شرط العقيدة الدينية من بنية حية، شملت ملايين الخلق وثبتت معهم وحدها في كل معترك زبون ، يوم خذلتهم كل قوة يعتصم بها الناس .

والعقاد يقول ونحن ندعي في هذه الصفحات ان المصنف بين النصائح لا يستطيع ان ينصح لاهل القرآن بعقيدة في الانسان والانسانية أصح وأصلح من عقيدتهم التي يستوحونها من كتابهم ، وان القرن العشرين سينتهي بما استحدث من مبادىء ومذاهب و«ايديولوجيات» ولا ينتهي ما تعلمه اهل القرآن من القرآن ..

وان اهل هذا الكتاب يتدبرون القول ، فيتبعون احسنه اذا تدبروا ، فلم يأخذوا بعقيدة من هذه العقائد التي يروجها دعاتها باسم المادية او الفاشية او العقلية ، ويريدون بها ان تكون على الزمن بديلا من العقائد

الإلهية «ومن عقائد الغيب الذي يحسبونه معدوما او موجودا كمعدوم» .

ثم يعرض العقاد لبعض المذاهب والعقائد التي مرت بالناس حين استمعوا الى المادية التاريخية فقالت لهم ان الانسان عملة «اقتصادية» في سوق الصناعة والتجارة ، تعلو وتهبط في طبقاتها بمعيار العرض والطلب وصفقات الرواج والكساد . اما الانسانية فقد أنصتت الى المادية التاريخية ، فقالت لها انها شيء لا وجود له مع طوائفها التي تخلقها الاسعار والاجور ..» .

وحين استمع الناس الى الفاشية فقالت لهم ان الانسان واحد من عنصر السيد او عنصر مسود وان ابناء الانسانية جميعا عبيد للعنصر السيد والعنصر السيد قبل ذلك عبد للسيد المختار ، بغير اختيار

وحين استمع الناس الى «العقلية» فقال لهم قائل منها ان «انسانيتهم» شيء لا وجود له ووهم من أوهام الاذهان ، وان الشيء الموجود هنا هو الفرد الواحد .. وبرهان وجوده حقا ان يفعل ما استطاع من نفع او اذى ، كلما امن المغبة من سائر الافراد والاحداث .

وغير جديد ما استمعوه من اصل العقائد الالهية عن مكان هذا الانسان من الارض والسماء ومكانه من اخوته من آدم وحواء .

خلاصة ما تقدم ان الانسان في عقيدة القرآن هو الخليقة المسؤول بين جميع ما خلق الله .. يدين بعقله فيما راى وسمع ، ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب ، فلا تدركه الابصار والاسماع .

و«الانسانية» من أسلافها الى أعقابها أسرة واحدة لها نسب واحد وإله واحد ، أفضلها من عمل حسنا وإأتقى سيئا ، وصدق النية فيما أحسنه واتقاه .

والانسان في القرآن الكريم يقدمه العقاد في جزئين كبيرين يبدأهما بعقيدة القرآن فيعيد هذه الكلمات القلائل في صفحات ، ثم يتلوها بعرض مفيد لتاريخ البحث عن نشأة الانسان في مذاهب الفكر والعلم او مذاهب الحدس والخيال ، ولا يزيد العقاد في سرد ذلك على الالمام بما يصلح ان يكون محكا للنظر فيما يؤخذ بالبرهان او يؤخذ بالايمان عن حقيقة الانسان .. هذا في الجزء الاول من الكتاب .

اما في الجزء الثاني وهو الخاص بالانسان في مذاهب العلم والفكر فيتناول فيه الانسان وتطوره في الغرب والشرق ، والانسان في علوم الاجناس والحيوان كذلك مستقبله في علوم الأحياء .

مطلع النور :

مدار بحث كتاب «مطلع النور» هو عن البعثة النبوية ــ بعثة محمد عليه السلام ــ وما تقدمها من احوال العالم ، واحوال جزيرة العرب ، وأحوال الاسرة الهاشمية ، وأحوال أبويه الشريفين .

ويدور البحث فيها على نوعين من المقدمات :

مقدمات تمهد لنتائجها وتفضي اليها .

ومقدمات تأتي النتائج بعدها كأنها رد فعل لها ، وعلاج لاسبابها وعواقبها ..

مقدمات من قبيل الداء يأتي بعده الموت . فهو نتيجته وعقباه على الشرعة المعهودة في طبائع الاشياء .

ومقدمات من قبيل الداء يأتي بعده الدواء ، فليس هو نتيجة له الا على معنى واحد ، وهو لحاق الدواء بالداء ، وظهور الشفاء بعد الحاجة اليه ..

مقدمات تتحقق بها قوانين الطبيعة .

ومقدمات تتحقق بها عناية الله .

ولاسيما حين تأتي الحاجة الى الشفاء من غير المريض بل تأتي على الرغم منه وعلى خلاف ما يرجوه ويبتغيه .

ويتساءل العقاد : كيف نشأ التوحيد بعد التباس الوحدانية بالشرك واختلاط الاديان بين الآلهة والاوثان ؟

كيف نشأت ديانة الانسانية بعد ديانات العصبية والاثرة القومية ؟

كيف نشأت نبوة الهداية بعد نبوة الوقاية والقيادة ؟

كيف اصبحت المعجزة تابعة للايمان بعد أن كان الايمان تابعا للمعجزة؟

كيف ظهر الاسلام بعد عبادات لا تمهد له ولا يبقي عليها ؟

مقدمات لم تكن واحدة منها ممهدة لنتائجها ، وان مهدت لها خطوة في الطريق فقد تنكص بها بعد ذلك خطوات وخطوات .

وهذه هي المقدمات التي لا تأتي بعدها النتائج الصالحة الا بعناية من الله واتجاه بقوانين الكون وعوامله الى حيث يشاء ..

فليست الجاهلية مقدمة للاسلام . وليس الفساد في العالم سبب للصلاح .

وليست قريش ولا جزيرة العرب ولا دولة القياصرة هي التي بعثت محمدا لينكر العصبية على قريش ويعلم العرب تسفيه التراث الموروث من

الآباء والاجداد ، ويثل العروش التي قام عليها ا' 'غاة وتأله عليها الجبابرة من دون الله .

هؤلاء جميعا كانوا ضحية البعثة المحمدية .

والعقاد يقرر بأن هؤلاء جميعا كانوا مريضها الذي شفي على يديها بغير شعور منه بالمرض وبغير سعي منه الى الشفاء .

وتلك هي المقدمات ونتائجها تتجه بها عناية الله .

رسول يوحي اليه فيصنع الاعاجيب .

ذلك ما يقوله المؤمنون بعناية الله .

فاذا استطاع المنكرون ان يقولوا غير ذلك فليقولوه .

وليفسروه ، فلا تفسير له عندهم الا أن الفساد يصلح الفساد وان الداء يشفي الداء وان الاسباب تمضي في طريقها فتختلف بها الطريق وتذهب الى حيث لا يفضي الذهاب ..

جاء محمد بدين الانسانية في أمة العصبية .

جاء ينكر كل إله غير الواحد الأحد في عالم يؤمن بكل إله غير الواحد الأحد ، او يؤمن به كأنه صنم من الاصنام يتعدد في كل بيعة وكل مقام. أمحمد وحده يقدر على ذلك ؟

امحمد يقدر عليه بعناية من الله !

او في القولين الى عقل العاقل ادناهما الى الايمان وأنآهما من الصواب وأنآهما عن الله .

ولولا تدبير من الله لما ادخرت جزيرة العرب لهذه الرسالة لتخرج بالتاريخ الانساني كله الى عالم جديد .

الخلاصة ان كتاب «مطلع النور» صوّر لنا طوالع البعثة المحمدية ، وما تقدمها من أحوال الامة العربية وأحوال العالم . كذلك يتضمن قصة النور .

وكيف نشأت في غشاوات الجهالة ، وقصة الايمان وكيف يقضي على عبادة الاوثان . والعقاد في هذا الكتاب لا يؤرخ للدعوة بقدر ما يدافع عنها ، وعن صاحبها . يقدم هذا في بحوث شائعة تفسر ظهور الاسلام وكيف أدى الى اعظم نهضة اجتماعية وسياسية عرفها التاريخ .

حقائق الاسلام

الكتاب يعرض القضية في ايجاز واضح مؤداه ان هنا حقائق الاسلام

وهناك خصوم لا يكتفون بالخصومة بل يؤكدونها بالاباطيل وليست حقائق الاسلام الا الجوهر المصفى للدفاع عنه . فاننا لو عرضنا حقيقة ناصعة واضحة فقد عرضنا معها طريقة الدفاع عنها .

فهل للدين حقيقة قائمة ؟ او هل للدين ضرورة لازمة !

سؤالان متشابهان نجد اجابتهما على صفحات هذا الكتاب الذي يناقش اربع أمور جوهرية في الاسلام هي العقائد والمعاملات والحقوق والاخلاق .

فحين يتحدث عن العقائد يبدأ بالعقيدة الإلهية بوضعها رأس العقائد الدينية في جملتها وتفصيلها . وقد قيل ان من عرف عقيدة قوم في الإله فقد عرف نصيب دينهم من رفعة الفهم والوجدان ومن صحة المقاييس التي يقاس بها الخير والشر وتقدر بها الحسنات والسيئات فلا يهبط دين وعقيدته في الإله عالية ولا يعلو دين وعقيدته في الاله هابطة .

ثاني هذه العقائد هي النبوة وما نحسب ان النبوة تعظم بكرامة ابدا اكرم لها من التوكيد بعد التوكيد في القرآن الكريم لتمحيص هذه الرسالة السماوية لهداية الضمائر والعقول وجعل النبوءة في مكان لائق بها .

ثالث هذه العقائد الانسان الذي ترون من احسن تكوين الى اسفل سافلين ولا يزال في الحالين انسانا مكلفا قابلا للنهوض بنفسه بعد العثرة قابلا للتوبة بعد الخطيئة محاسبا بما جنت يداه غير محاسب لما جناه سواه .

والعقيدة الرابعة العبادات فالدين يعرف بعبادته بين أناس كثيرين لا يعرفون بعقائده وربما استدلوا على العقائد بالعبادات لان العبادة فرع من العقيدة يشاهد عيانا في حيز التنفيذ او التطبيق فلماذا يكون الصوم شهرا ! ولا يكون ثلاثة اسابيع او خمسة .

لماذا تكون حصة الزكاة جزءا من عشرة أجزاء ولا تكون جزءا من تسعة .

لماذا تركع وتسجد ولا تصلي قياما او قياما وركوعا بغير سجود .

القسم الثاني من حقائق الاسلام هو في معاملاته .

القسم الثالث هو في الحقوق .

والكتاب في مجمله يقدم حقائق الاسلام وأباطيل خصومه في العصر الحاضر ولقد وقف الاسلام مرات في مثل هذا المفترق امام خصومه منذ قيام الدعوة المحمدية وصمد لحملات عنيفة كهذه الحملات التي يشنها عليه خصومه في العصر الحاضر ، ولكنها على اكثرها كانت من قبيل الحملات المادية والحملات الحربية التي شنها عليه منافسوه من أرباب

الدولة والسلطان ، وقل أن وقف الاسلام طويلا امام قوة يحفل بها لانها تتصدى له من الوجهة الروحية . اذ كانت القوى الروحية التي تصدت له فيما مضى تنظر الى ماضيها فتلمس فيه الفارق بينها وبينه ولا تأمن عاقبة الجولة في هذا المجال وهي مجردة من عدة الدولة والسلطـــان وكانت من جانبها مشغولة بخصوماتها ومنازعاتها بين نحلها ومذاهبها ، وتتجرد للحملة عليه الا أن تتأهب للغلبة عليه بقوة السلاح .

اما حملات العصر الحديث فاهونها فيما يرى العقاد حملات الدولة والسلطان ، وهي الحملات التي شنها عليه الاستعمار ثم ظهر منها بعد حين انها لم تقتل فيه قوة المقاومة ولم تمنعه ان يصمد لها في ميدان اليأس والحيلة . فكان صمود الاسلام لمحنة الاستعمار آية من آيـات القوة الروحية التي تسعد المعتصمين بها حين تخزلهم قوة السلاح وقوة السياسة وقوة العلم وقوة المال . ولو لم يكن في هذه العقيدة الخالدة سر أعمق جدا من أسرار العقائد الشائعة لما اعتصم المسلمون منها بمعتصم ناقع امام هذه القوى المتضافرة عليها مجتمعات .

الكتاب باختصار يميز بين الحق والباطل فحين يقدم حقيقة الاسلام فهو في واقع الامر يدحض أباطيل خصومه .

التفكير فريضة اسلامية :

يستهل العقاد هذا الكتاب بميزة من مزايا القرآن الكثيرة ميزة واضحة وهي التنويه بالعقل والتعويل عليه في امر العقيدة وأمر التكليف ، وأنه لا يذكر العقل الا في مقام التعظيم والتنبيه الى وجوب العمل به والرجوع اليه وقد خاطبه بكل صوره المدركة للتصورات الانشائية والوازعة عــن المحظورات والمنكرات ، والراشدة المستبصرة والاستدلالية المستخرجـة للاحكام وبذلك لا يخاطب القرآن الا العقل بكل صوره وخصائصه ووظائفه. فالتفكير فريضة في الاسلام .

ويدلل العقاد على ان التفكير فريضة اسلامية بالآيات الكريمة ومنها : «كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون» «أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون» .

فالاسلام في خطاب دائم ومتكرر للعقل الوازع الواعي المستنير بمـا يدلل على احترامه للفكر .

والاسلام دين يفرض التفكير ويعترف بالمنطق وهو العلم الذي يهتم بالاصول والقواعد التي يستعان بها على تصحيح النظر والتمييز . وحكم الاسلام في المنطق واضح لا يجوز فيه الخلاف ، لان القرآن الكريـــم صريح في مطالبة الانسـان بالنظر والتمييز ومحاسبته على تعطيل عقلــه وضلال تفكيره .

والى جانب المنطق كانت الفلسفة ايضا . والفلسفة الاسلامية التــي اعترف بها الاسلام كان لها اثر كبير في تقدم العقلية الاوربية للعلـــم والعلماء قرآنا وسنة للعلم والعلماء . ووضع هؤلاء العلماء في مكان لائق بهم يؤكد ان الاسلام دين وفكر .

ولو لم يكن الاسلام دين تفكير .. والتفكير فيه فريضة .. لقفــل باب الاجتهاد . ولقال انه يكفي الكتاب والسنة مصادرا له ولكنه اضاف الاجماع الى الكتاب والسنـة. والاجماع يقوم على اجتهاد أولي الامر وأهل الذكر والعلماء والمفكرين بما اشتمل عليه مـــن قياس واستحسـان او مصالح مرسلة .

كذلك التصوف وهو منسوب الى اهل الصفة الذين كانوا على عهد الرسول مظهرا من المظاهر الفكرية في الاسلام ويكفي ان نذكر لفلسـفته ونظرياته .

والعقاد كتب فصول هذا الكتاب أملا ان يكون بينها جواب هاد لأناس من الناشئين يتساءلون هل يتفق الفكر والدين ؟ وهل يستطيع الانسـان العصري أن يقيم عقيدته الاسلامية على اساس من التفكير ؟ وهل يؤمـــن عقل الانسـان بالدين في هذا العصر ؟ ويرى فيه دينا أحق بالايمان به من الاسلام ؟

أما أن يؤمن الانسـان بالدين في اعماق وجدانه بمعرفه الفكرة فذلك بحث طويل ــ على حد قول الاستاذ العقاد ــ لا يستقصي في سطور ولا صفحات ولكنه مع ذلك يتضح جليا من حقيقة ان الانسان جزء من هذا الوجود غير المحدود لا بد له من صلة عميقة تربطه به أبعد غورا من هذه العبارات الحسية التي عقدتها العلوم المتغيرة مع العصور والسنين فكيف تكون هذه الصلة ؟ تكون بالايمان .

وهذه الكتب ايضا :

يضاف الى هذه الكتب جميعا كتابان هامان :

الاول هو «ابو الانبياء ابراهيم الخليل» وفيـــــه يحاول العقاد ان يستشف حياة النبي ابراهيم عليه الصلاة والسلام عن طريق دراســـة مقارنة لمراجعها المختلفة .. ومنها الاسرائيلية والمسيحية والاسلامية الى جانب المراجع التاريخية . ثم يحدثنا فيه عن رسالته ودعوته الى عقيدة التوحيد .. تلك التي صححت نظر الانسان الى الكون والـى الحياة او جعلته يعيهما وعيا كاملا .

اما الكتاب الثاني فهو عن السيد المسيح عليه السلام . وفيه يبسط في سيرته عليه السلام . وعصره ، ودعوتـــه وادوات هذه الدعـــوة وشريعته ، شريعة الحب والسلام ، ثم يقوم بدراسة للاناجيل مـــع الاستضاءة بالكهوف الاثرية ، وتحليل رسالته التي قامت على الاخـــاء والسلام والتعاطف والمحبة .

كذلك كتب العقاد عن فلاسفة المسلمين المتقدمين ، والداعين الـــى الاصلاح المحدثين . فألف كتابا عن حجة الفلسفة والطب والرياضـــة والفلك «الشيخ الرئيس ابن سينا» وآخر عن الفيلسوف الطبيب الفقيه «ابن رشد» أوضح فيه أصالة الفكر العربي عامة والاسلامي بصفة خاصة.

ومن المفكرين المحدثين الداعين الى الاصلاح كتب العقاد عن عبد الرحمن الكواكبي كتابا بعنوان «الرحالة ك» صوّر فيه نضال العرب في سبيـــل النزعة التحررية القومية .

وعن الشيخ محمد عبده كتابا بعنوان «عبقري الاصلاح الامام محمد عبده» رسم فيه عبقرية الإمام في الاصلاح ، وصورة نفسية واضحـــة الملامح والمعالم من خلال جهاده في القضية الوطنية وحركة الاصـــلاح الازهرية وخدماته التعليمية والاجتماعية ، وأيضا من خلال مذهبـــه الفلسفي وما قام به من حركة التحديد الديني . وهي صورة أراد بهـا العقاد ما أراده في الصورة السابقة لعبقرياته من وضع وقدوة حسنـــة تحت اعين ابناء هذا الجيل ، حتى يقتدوا بصاحبها في الاضطلاع بأمانة العقيدة ، وأمانة الفكر وأمانة الحق وأمانة الاخلاق في كل ما ينتمـون ويعملون :

الفصل السادس

اسلاميات الحكيم

ان كان ما قدمه الاستاذ توفيق الحكيم في الاسلام قليل بالقياس الى ما كتبه هو في جوانب اخرى من التفكير او بالنسبة لما كتبه غيره .... الا انه يعتبر اضافة جديدة في مجال التفكير الاسلامي.

والجديد الذي اضافه هو أنه تناول الاسلام ونبيه الكريم بأسلوب فني يخاطب العقل والقلب معا .

الملاحظ ان كتابات الاستاذ توفيق الحكيم في الاسلام قليلة بالقياس الى بقية كتاباته في الفكر والادب اذ ان حجم اهتمامه في هذا الجانب بالذات لم يتجاوز حدود كتاب «محمد الرسول البشر» وبحثين كبيرين في الدين . وبالطبع هذا قليل ايضا بالقياس لما قدمه الاربعة الآخرون الذين تضمهم مع الاستاذ الحكيم الصفحات السابقة .

على الرغم من هذا الا ان الراصد لاهتمامات مفكرينا الاسلامية في ثلاثينات هذا القرن لا يستطيع ان يتجاوز كتابات الاستاذ الحكيم في الاسلام على قلتها .

ذلك ان الاستاذ الحكيم ابتدع لنفسه اسلوبا في التناول تفرد به واصبح من حقه على هذا الراصد او المتابع لما كتب عن الاسلام في هذه الفترة بالذات الا يتجاوزه او يتعداه .. وانما يتوقف عنده باحثا ومتأملا.

فان كان الاساتذة الاربعة طه حسين والعقاد واحمد امين وهيكل يتناولون كما راينا ــ الاسلام ونبيه الكريم بأسلوب واحد ــ وان اختلف في الزوايا والاهتمامات . هو اسلوب الدراسة او البحث ومخاطبة العقل مباشرة ، فان الاستاذ الحكيم تناول الاسلام ونبيه بأسلوب جديد ، هو الاسلوب الحواري القريب من الفن المسرحي الذي يخاطب الوجدان والعقل معا .

نعم ان الاستاذ الحكيم يتناول السيرة النبوية بأسلوب ، فني وهذا هو الجديد الذي اضافه في مجال الكتابة عن الاسلام ونبيه الكريم . هذا

من ناحية .

ومن ناحية اخرى فان هذا التناول بالذات الذي أقدم عليه الاستاذ الحكيم واستحدثه في مجالات الكتابة الاسلامية في ذلك الوقت .. يعتبر نوعا من الرد المفحم المقنع وبنفس طريقة التناول أيضا على ما كتبه بعض دعاة الفكر والحرية وفي مقدمتهم فولتير حين تناول السيرة النبوية بأسلوب حواري تمثيلي لكنه يتسم بالهجوم على الاسلام وتجريح لشخص الرسول الكريم هجوما وتجريحا يستنكره اي انسان يعرف الانصاف الى قلبه سبيلا ، وليس اي مسلم غيور على دينه او حتى يهمه أمر دينه ولست أدري كيف يمكن للمرء أن يقتنع أمام هذا المفكر الحر . كما ينعتونه بأنه حقا «مفكر» و«حر» وهو يكتب هذا الكتاب الذي ينحط بالفكر ويعصف بحريته ، كيف يقتنع المرء بأنه حقا أمام مفكر حر يتملق وينافق ويستجدي .. ونقرأ معا عبارة من اهداء فولتير هذا المفكر الحر لكتاب «محمد» للبابا «بنوا» الرابع عشر لنرى الى اي مدى كان الفكر الحر النبيل الشامخ بريئا منه . انه يقول للبابا «فلتستغفر قداستك لعبد خاضع من أشد الناس اعجابا بالفضيلة اذ تجرأ فقدم الى رئيس الديانة الحقيقية ما كتبه ضد مؤسس ديانة بربرية والى من — غير وكيل رب السلام والحقيقة استطيع ان أتوجه بنقدي القاسي لنبي كاذب ؟ فلتأذن لي قداستك في أن أضع عند قدميك الكتاب ومؤلفه وأن أجرؤ على سؤالك الحماية والبركة واني مع الإجلال العميق اجثو وأقبّل قدميك القدسيتين .. » .

على هذه الوقاحة وذاك الابتذال يتصدى بالرد الاستاذ توفيق الحكيم بكتابه «محمد الرسول البشر» بالحجة والمنطق وهي أساليب اسلامية محضة — والاكثر بنفس أسلوب التناول الذي اختاره فولتير وهو الاسلوب الحواري التمثيلي ومن هنا تبرز اهمية ما كتبه الاستاذ الحكيم.

لكن هل تكوّن تفكير الاستاذ الحكيم الاسلامي من مجرد قراءاته لهذه الكتب الضارة التي كتبها الاجانب من مستشرقين ومبشرين عن الاسلام إبان تواجده في فرنسا او بعد عودته منها .

يحدثنا الاستاذ الحكيم في ذكريات شبابه «زهرة العمر» انه أطال الوقوف عند القرآن الكريم ، وقد كرر هذا القول في كتابات كثيرة الامر الذي يجعلنا نتدبره ونتأمله .

وبعد التأمل يسهل أن نجد خيطا ولو رقيقا يربط بين ما في القرآن الكريم من أمور تشد وتستحوز على نفسية واتجاهات هذا الشاب الذي

عرف عنه ميل شديد «للقصص» فالقرآن الكريم يضم بين دفتيه عديدا من قصص الانبياء والامم السالفة وله نهجه في حكاية القصة بحيث يسبغ عليها أضواء واشكالا من الحياة الغامرة وقد سجل القرآن ان من بين أوجه ابداعه انه يقص احسن القصص لكي يكون فيها عظـــة وعبرة للقارئين والسامعين فاذا كان هذا بعض اهتمام القرآن الكريم فلا شك انه يشد انتباه هذا الشاب ويجعله يتأمل هذه المعاني الشامخة والافكار العظيمة التي جاءت بأسلوب فني رائع .

هذا بالاضافة الى اتجاهات الكتاب والمفكرين في ثلاثينات هذا القرن للدفاع عن الاسلام ونبيه الكريم الذي استهدف لهجمات ضارية مـــن مبشرين ومستشرقين اجانب. الجميع يريدون ان يقفوا مدافعين .. كل بالطريقة التي يستطيع اتقانها ، كما ذكرنا في مدخل هذا الكتاب .

ولا شك ان الاستاذ الحكيم كان اكثر الخمسة الذين تعرضنا لهـــم اتقانا لكتابة الفن الحواري او المسرحي . اليس هو الذي قال عنه طـــه حسين غداة عودته من فرنسا بأنه رائد المسرح المصري الحديث .

ولذلك يمكن التصور ان امكانيات الاستاذ الحكيم كانت معدة للكتابة عن الاسلام وبنفس الاسلوب الذي خرج به علينا من مجرد الرغبة فـــي الرد على كتابات ظالمة كان قد قرأها ، ومن تأثره أصلا بما قرأ في الاسلام وكتبه وفي مقدمتها القرآن الكريم .

فاذا كانت هذه هي الاسباب والمبررات التي كانت تدعوه للكتابة عن الاسلام فكيف كان يكتب ؟ بمعنى آخر ما هو المنهج الذي اتبعه فـــي تناوله للمادة الاسلامية التي امامه ؟

لقد استلهم الاستاذ الحكيم تراثه العربي الاسلامي محاولا ان يوفق بين مادته القديمة التي قرأها واستوعبها وبين الشكل المعماري الـــذي اكتسبه من الحضارة الاوروبية ولعل من السمات الفارقة ــ كما يقـــول الاستاذ صلاح عبد الصبور في مقاله عن توفيق الحكيم بالهلال ــ بين فكرنا التقليدي وبين الفكر الاوروبي . هذه المقدرة المعمارية التي نفتقدها والتي تعد بمثابة الشارة الاولى لكل فكر جدير باسمه .

والاستاذ الحكيم نفسه يحدثنا في ذكريات شبابه «زهرة العمر» عن صراعه للسيطرة على الشكل وغرامه باتقان البناء الفني ولا شـــك ان الشكل هو اول ما يملأ قلب الفنان الشرقي حين يطالع الآثار الادبيـــة الاوروبية فهذا المثقف الشرقي قد نشأ في ظل تراث لا يكاد يعير الشكل اهتماما ليجد نفسه في مواجهة تراث يتميز بهذه الروح المعمارية وهـــل

المسرحية الا شكل تصب فيه الافكار والتأملات والاحداث فاذا فقدت شكلها كادت تفقد جوهرها .. وهل الفن كله الا اعطاء شكل لاشياء لا شكل لها .

والحق ان هذا كله وضح في كتاب «محمد الرسول البشر» فمادته عبارة عن نصوص كثيرة لا تهتم كثيرا بالشكل .. نصوص منتشرة في سيرة ابن هشام وتفسيرها للسهيلي وطبقات ابن سعد والاصابة لابن حجر واسد الغابة لابن الاثير وتيسير الوصول والشمائل للترمذي هي نصوص بها وقائع يأخذها كمادة أقرب الى الخام ليصوغ منها شكلا جديدا لا يتقيد فيه بترتيب او تنسيق زمني بل يتقيد فقط بما يقتضيه العمل الفني الذي بين يديه .. ذلك الذي يقول عنه انه ليس عملا تاريخيا ولا علميا وانما هو عمل فني اولا واخيرا .

وليس عدم التقيد الا بما يقتضيه العمل الفني يجعله يبعد كثيرا عن الاصل او يشط كما يقولون كفنان بل ان المتابع لكتابات الاستاذ الحكيم في الدين الاسلامي يذهب الى انه كان حريصا الى درجة تشد الانتباه وبالطبع السبب واضح . هو انه يتناول مادة تاريخية وهي في نفس الوقت تتصل بالنبي صلى الله عليه وسلم وبتعاليم الدين الاسلامي .

صحيح ان الاستاذ الحكيم فنان له شطحاته وذوقه في تناول العمل الذي أمامه . ولكنه قبل كل شيء مسلم .. ثم انه بعد ذلك حين يكتب فانما يكتب عن ايمان .. والا فما معنى تصديه للدفاع عن أمر لا يؤمن به .. والجانب الايماني عند الحكيم كثيرا ما نلمسه في كتبه فهو حين يتكلم على لسان «يمليخا» في مسرحية «أهل الكهف» يقول : «لست اذكر شيئا مما قال لكني لن أنسى ما شعرت به اذ ذاك .. احساس لم يعترني في حياتي من قبل الا مرة اذ كنت اهبط الجبل ساعة غروب فأشرفت على منظر بالخلاء لم أر أجمل منه من ليلتي أفكر وأستذكر اين رأيت هذه الصورة من قبل ؟ أفي الطفولة ؟ أفي الاحلام أم قبل ان أولد؟ ان هذا الجمال على غرابته ليس مجهولا عندي . وقمت في الفجر فذكرت صورة البارحة وفجأة برقت في رأسي فكرة هذا الجمال ، كان موجودا دائما ، منذ الازل ، منذ وجدت الخليقة ، هذا الاحساس بعينه هو ما شعرت به وأنا أصغي الى الراهب ، ان كلامه الذي اسمعه اول مرة ليس مع ذلك جديدا عندي اين سمعته ومتى ؟ أفي الطفولة ؟ أفي الحلم ؟ أم قبل أن ولدت ؟ وتولدت في نفسي عقيدة ، ان هذا الكلام هو الحق اذ لا اتصور بدء الوجود بدونه ولا انتهائه بدونه» .

هكذا يتحدث الحكيم على لسان ابطال مسرحياته واعماله الفنية ، ولا غرابة في أن يكون في هذا الحديث ايمان لانه صدر عن قلب مليء بالايمان . انه لا يكتب هذه الكلمات او غيرها ليصور بها احدى شخصيات المسرحية فحسب وانما هو يكتب ليعبر عن رايه نفسه في الايمان الديني هذا الراي الذي يعد من ابرز آرائه واكثرها وضوحا والحاحا في اعماله الفنية .

فاذا كان هذا هو راي الحكيم في الايمان من خلال مسرحياته او اعماله الفنية فماذا عن رأيه في الايمان من خلال افكاره وتاملاته

والاجابة على هذا السؤال نجدها ولا شك في صفحات كتبها عن الايمان في كتابه «تحت شمس الفكر» انه يقول مثلا : «فالعقل لا يدري ما يلائم وظيفته وما يخضع لمقاييسه ، والحقيقة العقلية ليست الحقيقة كلها ، ولكنها الحقيقة التي يستطيع العقل ان يراها من زاويته ، فاذا كانت العقيدة مرجعها القلب فان العقل لن يرى منها الا الشطر الذي يستطيع أن يراه ويظل محجوبا عنه الشطر الواقع في دائرة القلب .

«فوجود الخالق ، الجبار . المنتقم ، الرحمن ، اللطيف . لا شك فيه عند القلب ، أما العقل فان استطاع أن يتصور وجود الخالق فانه يرتاب في صحة تلك الصفات المنسوبة اليه وقد يراها — في منطقه — صفات آدمية إسبغها البشر على خالقهم إجلالا له لانهم وهم بشر لا يملكون غير تلك الصفات ، التي هي في عرفهم مرادف الاكبار والتقدير اما حقيقة الخالق فأمر بعيد عن مقدرة العقل وهل يستطيع الجزء أن يرى الكل ؟

ان رجال الدين يقعون دائما في الخطأ اذ يبسمون بسمة الظفر كلما قال رجال العلم قولا يتفق مع الدين ويقطبون تقطيب الغضب كلما نقض رجال العلم أسس الدين وما أحراهم في كلتا الحالتين أن يبسموا غير مكترثين بسمة الصفاء واليقين وأن يعتقدوا تمام الاعتقاد ان العلم في كلا الحالتين كاذب عندهم وان صدق وان لا شأن للعلم بهم ، وان الحقيقة الدينية بعيدة عن وسائل العالم ودائرة بحثه وأن العقل يستطيع ان يهدم الدين كما يشاء دون أن يسمع القلب طرقة واحدة من طرقات معوله..» .

هكذا توفيق الحكيم في كتاباته الفنية او في تأملاته الفكرية ، انسانا قوي الايمان غيور على الاسلام . بذلك المنهج ومن هذا المنطلق يكتب الاستاذ الحكيم اسلامياته فيقدم لنا «محمد الرسول البشر» وبحثا «في

الدين» و«في الادب والدين» و«مختار تفسير القرطبي الجامع لاحكام القرآن » .

محمد
الرسول البشر

حين شرع الاستاذ توفيق الحكيم في الكتابة عن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم يبدو انه لم تكن لديه النية لان يقيم الدليل بإتباع منهج علمي صارم على صحة هذه او تلك من المسائل الدينية فهو حين تناول هذه السيرة الكريمة يتناولها من وجهة نظر فنان ، وليس كرجل من رجال الدين . كذلك لم يبد أن الرغبة لم تراوده في أن يكون من المؤرخين ، فكل ما كان يريده هو تبرير واعطاء حق المواطنة لكل الاصلاحات التي قامت في الماضي من خلال الاسلام ، هذا من ناحية ومن ناحية اخرى لا ينسى الحاضر الذي سيطرت عليه.الحضارة الاوربية التي لها كبير الاثر على تفكيره . هو يريد أن يجد في النهاية مخرجا لذلك الوضع البالغ التناقض الذي يتخبط في داخله العالم العربي المعاصر الذي تدفعه ظروف الحياة الحديثة لتبني الحضارة الغربية ، لكنه في نفس الوقت شديد الارتباط بالتقاليد ، شديد الولع بالمثل الدينية ، وسواء قدم هو مثل هؤلاء الكتاب تداعيا حرا لخيالاتهم . كما فعل طه حسين او تأملا عقليا كما فعل احمد امين وهيكل والعقاد ، فان الهدف المشترك هو اقامة جسر بين الماضي والحاضر . فالاستاذ توفيق الحكيم حين يتناول شخصية الرسول الكريم يعمل على خلق تقاليد متجددة ، او على الاقل اسلوبا جديد في التناول ، هو وحده يستطيع ان يمكن للفكر العربي أن يتحرر من قيوده واساليبه العقيمة وهو يواجه الحضارة الحديثة التي تفرض نفسها وتبذر الاضطراب في العقول والنفوس الورعة ، والأسى والخوف من أن تجلب على المؤمنين غضب السماء ، ذلك الذي يستطيع أن يعبر عنه رجال الدين وعلمائه .

وبهذا التقليد الجديد او الاسلوب المتجدد كان يطمح الاستاذ الحكيم حين بدأ الكتابة في السيرة النبوية الكريمة ، وحين تناول شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم .. كان يريد حمل رسالة جديدة كانت من قبله مجهولة . وبحث في هذا المعين الذي لا ينضب من الاحداث

الوثائقية المليئة بالادلة والتفاصيل عن كل ما يعمق صورة النبي صلى الله عليه وسلم وهو بهذا يقدم سلاحا ذا حدين ، تقديم الصورة الصادقة للرسول الكريم ، التي هي في نفس الوقت دفاع عنه ضد هذه الافتراءات التي صاغها الكتّاب الاجانب من مبشرين ومستشرقين ، وهذا أسلوب جديد ولا شك ، وخاصة حين يتناوله في قالب سرد فني ، وهو عمل كان لا يستطيع ان يقوم به سواه .

ومن هنا يمكن القول اتفاقا مع كتاب كثيرين ، بأن الاستاذ توفيق الحكيم حين قرر ان يتناول موضوع السيرة تناولها بقلبه لا بعقله ، فاطلع على كل ما اوردته كتب السيرة المتقدمة والمتاخرة من أخبار ، سواء كانت هذه الاخبار وقائع يقبلها العقل أم خوارق لا يصدقها غير المؤمن ولهذا فنحن نرى — في تناوله المسرحي للسيرة — مشاهد متفقا على صحتها الى جانب مشاهد مختلف عليها .

وربما نستطيع أن ندرك شيئا من هذا في تقديمه لهذا العمل حيث قال : «المألوف في كتب السيرة أن يكتبها الكاتب ساردا باسطا محللا معقبا مدافعا مفندا ، غير اني يوم فكرت في وضع هذا الكتاب قبل نشره عام ١٩٣٦ القيت على نفسي هذا السؤال : الى اي مدى تستطيع تلك الطريقة المألوفة أن تبرز لنا صورة بعيدة الى حد ما عن تدخل الكاتب ؟ صورة ما حدث بالفعل وما قيل بالفعل دون زيادة او اضافة توحي الينا بما يقصده الكاتب او بما يرمي اليه ؟

عندئذ خطر لي — الحديث للاستاذ الحكيم في تقديمه — ان اضع السيرة على هذا النحو الغريب ، فعكفت على الكتب المعتمدة والاحاديث الموثوق بها واستخلصت منها ما حدث بالفعل وما قيل بالفعل وحاولت على قدر الطاقة أن أضع كل ذلك في موضعه كما وقع في الاصل وأن أجعل القارىء يتمثل كل ذلك كأنه واقع أمامه في الحاضر غير مبيح لأي فاصل حتى الفاصل الزمني أن يقف حائلا بين القارىء وبين الحوادث ، وغير مجيز لنفسي التدخل باي تعقيب او تعليق ، تاركا الوقائع التاريخية والاقوال الحقيقية ترسم بنفسها الصورة .

كل ما صنعت هو الصب والصياغة في هذا الاطار الفني البسيط شان الصائغ الحذر الذي يريد أن يبرز الجوهرة النفيسة في صفائها الخالص فلا يخفيها بوشي متكلف ولا يغرقها بنقش مصنوع ولا يتدخل الا بما لا بد منه لتثبيت أطرافها في اطار رقيق لا يكاد يُرى» .

اذن نحن الان امام عمل فني .. او بتحديد اكثر نحن امام نمط من

السرد الحواري استمد الاستاذ الحكيم مادته من كتب السيرة المعتمدة مثل سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري وكتب طبقات الصحابة مثل «الاصابة» لابن حجر و«أسد الغابة» لابن الاثير ، فالمادة اذن موثقة بمعنى ما .. هو المعنى الذي اطلع عليه علماء المرويات الاسلامية ولكنها بالمعنى العصري مادة غير موثقة ، اذ اختلط فيها كثير من التراكمات الاسطورية وحفلت بتلك المادة التي أطلق عليها اسم الاسرائيليات فامتلأت بالخوارق والاساطير . والاستاذ الحكيم مثله في ذلك مثل الدكتور طه حسين في كتابه «على هامش السيرة» يقبل هذه المادة الاسطورية كلها ، فهو من بداية المنظر الاول في كتابه يحدثنا عن ذلك حيث يقول :

«على اطمة بيثرب ــ الوقت ليل» .

يهودي : (يصرخ بأعلى صوته) يا معشر يهود !

«جماعة من يهود يقبلون ويجتمعون اليه» .

الجماعة : ويلك ــ مالك ؟

اليهودي : (يشير الى السماء) انظروا ! انظروا !

الجماعة : (يتطلعون الى السماء) ماذا ؟

اليهودي : (يشير الى السماء) طلع الليلة نجم احمد !

هكذا يحدثنا الاستاذ الحكيم أن اليهود قد رأوا نجما متألقا في السماء يوم ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم ، كما يحدثنا انه قد خرج من آمنة نور رأت به قصور الشام ، وأن عبد المطلب رأى في منامه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف في السماء وطرف في الارض وطرف في الشرق وطرف في الغرب ، ثم كأنها شجرة على كل ورقة منها نور واذا اهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها ويحمدونها .

ونرى ابليس في صورة شيخ نجدي يحاور حية تظهر في الحائط ونسمع من الحية قصة الملكين اللذين شقا صدر محمد وهو طفل ونسمع نبوءة عراف هذيل ونبوءة الراهب بحيري بما سيكون للصبي محمد من شأن .

كذلك نرى الغمامة التي لا تظل الا نبيا ظهرت من جديد .. وهكذا صور كثيرة من الخوارق والاساطير أوردها الاستاذ الحكيم في هذا العمل الفني .

ولأن الاستاذ الحكيم اتفق معنا منذ البداية في تقديمه لهذا العمل انه سيتناوله كفنان فاننا لا نطالبه برفض هذه المادة الاسطورية ، تلك التي شكك فيها الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه «حياة محمد» وتجاهلها

الاستاذ العقاد في كتابه «عبقرية محمد» لن نطالبه برفض هذه المـــادة الاسطورية ، فما هو بمؤرخ او عالم .. وانما هو أديب فنان يتخذ مادته من المنابع التي تروق له ، وقد تكون هذه المادة الاسطورية اكثر بعثا على الالهام من وقائع التاريخ او العلم الراجحة عند العقل .

على أن هناك اتجاها يرى ان عمل الاستاذ الحكيم هذا لم يكن فنـا خالصا ، استلهم فيه المؤلف السيرة ليقدم من خلالها فكرة خاصة به ، ويصور شخصياتها من وجهة نظره لتحقق غرضا دراميا ، وتشرح الفكرة التي انتهى اليها المؤلف من قراءة التاريخ، كما فعل مثلا المؤلفون الاوربيون الذين كتبوا عن الانبياء والرسل : ابراهيـــــم ، وموسى ، وسليمان ، والمسيح ، عليهم السلام بل وعن محمد صلى الله عليه وسلم حين كتب عنه «فولتير» فعالجوا هذه الشخصيات بالطريقة التي تتلاءم مع فكــرة كل مسرحية .

للانصاف نقول : ان توفيق الحكيم لم ينهج هذا النهج الفني الخالص لاسباب كثيرة ، أولها : ثقافة توفيق الحكيم نفسه ، التي استقاها من القرآن الكريم ، وثباتها كونه مسلما يريد الدفاع عن الاسلام ونبي الاسلام كغيره ، ولكن بأسلوب يتقنه ، وهو السرد الحواري الفني . وثالثها ، ان لم تكن اهمها ، نظرة التقديس التي ينظر بها المجتمع الذي يعيش فيــه الاستاذ الحكيم للنبي صلى الله عليه وسلم ، تمنع تعريض هذه الشخصية العظيمة لاجتهادات الاديب وشطحات الفنان .

ولهذا فالاستاذ الحكيم لا يستخدم في هذا الكتاب فنه الخالص بقدر ما يستخدم حرفيته ولهذا ايضا كانت عبارته فعكفت على الكتب المعتمدة والاحاديث الموثوق بها واستخلصت منها ما حدث بالفعل وما قيل بالفعل وحاولت على قدر الطاقة ان أضع كل ذلك في موضعه كما وقع فـــي الاصل .. » .

ولهذا يمكن القول ايضا ان تناول الاستاذ الحكيم للسيرة النبويـــة ليست امتدادا لتناول الدكتور طه حسين في كتبه الثلاثة علـى هامش السيرة فقد ربط البعض بين الاثنين لاهتمامهما بالخوارق والاساطير ولأن ظهور كتاب الاستاذ الحكيم «محمد الرسول البشر» عام ١٩٣٦ كان بعد ظهور «على هامش السيرة» الذي صدر عام ١٩٣٣ .

الا ان الدكتور اسماعيل ادهم والدكتور ابراهيم ناجي يقولان فـــي كتابهما عن «توفيق الحكيم» انه بدأ يفكر في كتابة السيرة النبوية فـــي اسلوب مسرحي عام ١٩٢٧ حين كان بفرنسا غير انه لم يقم بعمل جدى

في هذا السبيل حتى كان عام ١٩٣٤ اذ طلبت اليه مجلة «الرسالة» التي كان يصدرها الاستاذ أحمد حسن الزيات ، أن يكتب فصلا حول السيرة لينشر في عددها الممتاز الذي تصدره في مستهل كل عام هجري عن الهجرة ، فرجع الاستاذ الحكيم الى السيرة في كتبها القديمة وكتب للمجلة فصلا من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم في قالب تمثيلي ، فصادف نجاحا عند جمهور مجلة «الرسالة» ، ولم يثر شيئا مما كان الاستاذ الحكيم يخشاه من غضب المتعصبين ، وتشجع فراجع ما أمكن من كتب السيرة والحديث واخذ يكتب سيرة الرسول في أسلوب مسرحي نشر في فبراير عام ١٩٣٦ .

اذن لم يكن تناول الاستاذ الحكيم للسيرة امتدادا لتناول الدكتور طه حسين ، يضاعف من التمسك بهذا الراي ان الاستاذ الحكيم قد قرا تمثيلية فولتير عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، واستفذته الطريقة التي اتبعها فولتير واهتم بما قرأ لفولتير حتى انه بدأ يقرأ ما كتبه الكتّاب والنقّاد بعد ذلك تقييما لهذا العمل الذي هاجم النبي والاسلام هجوما ضاريا ، ويذكر انه قرأ للكثيرين من الكتّاب في مقدمتهم جان جاك روسو ، حدث هذا اثناء تواجده في باريس وهو ما ذكره بعد ذلك في كتاباته .

ان كانت هذه نظرة من بعيد الى تناول الاستاذ الحكيم للسيرة النبوية بأسلوبه المسرحي او الحواري ، فما هي النظرة القريبة لهذا العمل العظيم ؟ بمعنى آخر ما هي تفاصيل هذا العمل ؟

المسرحية او هذه السيرة الحوارية تتكون من خمسة فصول يبلغ عدد مناظرها ٩٤ منظرا لكل فصل من الفصول الخمسة عدد من المناظر .

فالفصل الاول يتكون من ثمانية مناظر يبدأ أولها باليهود وهم يطالعون نجم أحمد في السماء ، ثم ولادته والقصص والاساطير التي قيلت حوله صلى الله عليه وسلم ، ثم طفولته وكيف كانت هذه الطفولة ثم شبابه وما اشتهر به من جمال في الخلقة والاخلاق امرا جعل امراة من أكرم النساء في قريش حسبا ونسبا تفكر فيه وهي السيدة خديجة فترسل اليه تابعتها نفيسة لتعرض عليه يدها ويتم الزواج بين محمد صلى الله عليه وسلم والسيدة خديجة رضي الله عنها وينتهي الفصل الاول عند هذا الحدث .

يليه الفصل الثاني وهو يتكون من ستة وثلاثين منظرا فيه يطالعنا الرسول صلى الله عليه وسلم في مبعثه وفي كفاحه ، وفي هجرته ،

ويبدأ هذا الفصل بمنظر لغار حراء وعلى مقربة منه راعيان يرعيان الغنم، ويكون موضع حديثهما محمد الذي يخلو بنفسه في هذا الغار ليتعبد ، ويختفي الراعيان في الوادي ليظهر الرسول الكريم وهو يسير الى الغار ويضع زاده في صمت ، ثم يسجد طويلا .

محمد : (ناظرا الى السماء) الم يأن لي أن أرى وجهك الذي اشرقت له الظلمات !

ويظل على هذه الحال حتى يرى ضوءا غريبا ويسمع صوتا عجيبا ، ويهبط عليه الوحي ، وتتوالى بعد هذا الاحداث . فالقوم لا يؤمنون بما يقول ، وهو مصر على ما يقول ، ويعرضون عليه كل مغريات الدنيا على ان يحيد عن موقفه فلا يقبل ، عندئذ لا يكون هناك بديل من التصادم مع هذا الرجل الذي يحطم أصنامهم ، ويسفه آراءهم ويسخر من معتقداتهم ولا يطول به المقام في هذا المكان فيهاجر الى المدينة لتبدأ أحداث جديدة.

والفصل الثالث من عشرين منظرا ويتناول حياة النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة حتى غزوة الخندق شارحا باسطا هذه الحياة الجديدة بالنسبة للمهاجرين والانصار .

وها هي المدينة لاول مرة تعلو اصوات المسلمين بالله أكبر الله أكبر ، وها هو الرسول الكريم مع الصديق ابي بكر وحولهما المسلمين من انصار ومهاجرين يقبلون من كل صوب وحدب ليكون هذا الحوار :

الناس : يا رسول الله جئتنا بالهدي أهدنا الى الله .

محمد : أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الارحام وصلوا والناس نيام وادخلوا الجنة بسلام .

«ينهض الى راحلته ومعه ابو بكر» .

المسلمون : إركب آمنا مطاعا .

(ثم يحيطون بالنبي وقد وضع النبي للناقة زمامها) .

الناس : من نساء وصبيان وإماء يصيحون فرحين «نبي الله جاء نبي الله جاء » .

وتتوالى الاحداث بعد ذلك ويزداد الصراع بين محمد صلى الله عليه وسلم ووراءه أتباعه الذين يدخلون في دين الله ، وبين أعدائه حتى يكون يوم الخندق حيث يحاصر العدو المسلمين ، ولكن الله سبحانه وتعالى ينصر دينه ونبيه على القوم الكافرين .

ثم الفصل الرابع وهو من اثنين وعشرين منظرا . تبدأ المناظر الاربعة منها بسرد حديث الأفك وكيف ان الناس ظنوا سوءاً بالسيدة عائشة رضي

الله عنها وكيف ان الله سبحانه وتعالى برأها حيث نزلت الآية الكريمة .. «ان الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ، لكل امريء منهم ما اكتسب من الاثم والذي تولى كبره منهم له عذاب أليم» .. وتستمر الحياة بعد ذلك بما فيها من صراعات بين هؤلاء الذين يرون ان ما يؤمنون به هو الحق ، الى ان يكون يوم فتح مكة الذي ينتهي به هذا الفصل وبهذه السورة الكريمة حيث يتلوها الرسول صلى الله عليه وسلم : «اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ــ فسبّح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا» .

ينتقل بعد ذلك الى الفصل الخامس والاخير وهو من ثمانية مناظر كلها عن ايام النبي الاخيرة حتى يوم وفاته .

«يرى جبريل قد هبط عليه»

جبريل : يا أحمد ان الله ارسلني اليك اكراما لك وتفضيلا لك وخاصة لك يسألك عما هو اعلم به منك ويقول لك كيف تجدك ؟

محمد : (شاخص العينين يتكلم من قلبه دون أن يبدو لمن حوله شيء) اجدني يا جبريل مغموما واجدني يا جبريل مكروبا .

جبريل : (يشير الى ملك خلفه) يا احمد هذا ملك الموت يستأذن عليك ولم يستأذن على آدمي من قبلك ولا يستأذن على آدمي بعدك .

محمد : ايذن له .

ملك الموت : يا رسول الله يا أحمد ، ان الله أرسلني اليك وامرني ان اطيعك في كل ما تأمرني ان امرتني أن اقبض نفسك قبضتها وان أمرتني أن اتركها تركتها .

محمد : وتفعل يا ملك الموت ؟

ملك الموت : بذلك امرت ان أطيعك في كل ما أمرتني .

جبريل : يا أحمد ان الله قد اشتاق اليك .

محمد : امض يا ملك الموت لما امرت به .

جبريل : السلام عليك يا رسول الله ، اليوم آخر عهدي بهبوط الارض «يرتفع الملكان ويتركان محمدا جثة هامدة» .

وتنتهي المسرحية بهذا المنظر الثامن : «النبي مسجى على سريره يدخل الناس عليه زمرا يصلّون عليه ويخرجون بغير أن يؤمهم إمام ، ابو بكر وعمر وعلي في الصف الاول امام جثة النبي صلى الله عليه وسلم مطرقين..

علي : (همساً للجثة والعبرات في عينيه) انت امامنا حيا وميتا .

أبو بكر وعمر : (للجثمان) السلام عليك ايها النبي ورحمةالله وبركاته، اللهم

انا نشهد ان قد بلغ ما انزل اليه ونصح لأمته وجاهد في سبيل الله حتى أعز الله دينه وتمت كلماته فآمن به وحده لا شريك له فاجعلنا يا إلهنا ممن يتبع القول الذي أنزل اليه ، وثبتنا بعده واجمع بيننا وبينه فانه كان بالمؤمنين رؤوفا رحيما لا نبتغي بالايمان بدلا ولا نشتري به ثمنا ابدا ..

الناس : (في صوت واحد) آمين .. آمين .

يبقى بعد عرضنا السريع للمسرحية القول بأن الاطار الفني الذي صب فيه الاستاذ الحكيم سيرة النبي صلى الله عليه وسلم اطار بسيط باعتراف الكاتب نفسه في مقدمته ، حيث قال : كل ما صنعت هو الصب والصياغة في هذا الاطار الفني البسيط ..

الحوار اذن في كتاب «محمد الرسول البشر» اطار خارجي ، ومن هنا فان هذا الكتاب ليس مسرحية بل سردا حواريا أما المضمون الفكري فيه ، فهو عسير على التلمس فلن نستطيع أن نقول انه محاولة لاسباغ العنصر الانساني في السيرة النبوية ، بدليل ان المؤلف لا يتوقف عند موقف دون آخر . فحادث مثل حادث الإفك تبدت فيه انسانية النبي صلى الله عليه وسلم وشجاعته النفسية ، لا يمثل من الصفحات اكثر من حوار بين النبي الكريم وبين احد الصحابة في أمر من أمور الحرب ، ومشهد حزين كموت ابنه ابراهيم لا يكاد يوقف عنده الا ريثما تقال الالفاظ التي وردت في كتب السيرة ثم يمضي عنه الاستاذ الحكيم على عجل .

لكن على اي حال لا يستطيع المرء الا الاعجاب بما كتب الاستاذ توفيق الحكيم مدافعا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ومؤكدا بتناوله الفني هذه القيم الاسلامية .

في الدين

في كتابه «تحت شمس الفكر» خصص الاستاذ توفيق الحكيم قسما كبيرا تحت عنوان «في الدين» ، تحدث في فصوله الستة عن الدين الاسلامي ، والحق ان هذا القسم كان يمكن ان يستقل بنفسه ، ليكون كتابا واحدا بنفس العنوان ، يضمنه الاستاذ الحكيم خلاصة رايه بل وعقيدته الاسلامية .

ففي فصل عنوانه «منطقة الايمان» يفرق الاستاذ الحكيم بين الحقيقة العقلية والحقيقة الاحساسية او الدينية . فالحقيقة العقلية او العلمية لا يتجاوز علمها الكائنات التي تمر بالحواس ، ومن يجمّل العقل اكثر من قدرته فهو فإنما يريد منه المستحيل ويشبه طلب كهذا كما نطلب من الكبد مضغ الطعام وعلى هذا فهو يقرر في هذا الفصل بالذات ان حقيقة الله امر بعيد عن مقدرتها العقل وهل يستطيع الجزء ان يرى الكل ؟

ويتساءل الاستاذ الحكيم في هذا الفصل كما يتساءل الناس دائما : ما الدين ؟ أهو شيء مفيد للبشر في أمر حياتهم ومعاشهم ؟ أم هو طريق لحل اللغز الاكبر وسبيل للنفوذ الى المجهول الاعظم ؟

ويجيب : ان كل دين من الاديان المعروفة يتكون من هذين الوجهين، فالدين باعتباره قانونا اجتماعيا ينظم الغرائز ويحفظ التوازن بين الخير والشر أمر متعلق بذات الانسان متصل اذن بعقله وعلمه .. على أن عنصر الاخلاق في الاديان ليس كل جوهرها . فان بعض البلاد قد استطاعت ان تجد في الاخلاق غني لها عن «الاديان» انما قوة الدين وحقيقته في العقيدة والايمان «بالذات الازلية الايمان بالله» .

هنا لا سبيل الى الدنو عن تلك «الذات» الا عن طريق يقصر عنه العلم الانساني .. بل يقصر عنه كل علم ، لان العلم معناه الاحاطة ، والذات الابدية لا يمكن ان يحيط بها محيط ، لانها غير متناهية الوجود فالاتصال بها عن طريق العلم المحدود مستحيل .

وهنا يقرر الحكيم حقيقة بالغة الاهمية وهي تتركز في قوله : «ها هنا يبدو عمل الدين ضرورة للبشر» . ثم يناشد رجال الدين في ختام فصله الى وجوب التسامح والهدوء كلما قام باحث يتكلم في الدين عن طريق العقل فان الشرق اليوم مقبل على حياة علمية واسعة مهادها المعاهد والجامعات ، ولا بد لنماء ملكة العقل من التفكير .

***

والفصل الثاني من هذا البحث وهو بعنوان «الدفاع عن الاسلام» فيه يقوم بالدفاع عن نبي الاسلام محمد صلى الله عليه وسلم حيث يذكر قصة فولتير التمثيلية «محمد» التي يهاجم فيها الرسول الكريم كنبي ، والاسلام كدين ، ويذكر انه علم بأن «جان جاك روسو» تناول اعمال فولتير بالنقد ، وانه اطلع على نقده لتمثيلية «محمد» عله يجد الحق وقد رد الى

نصابه فلم يجد . ان روسو هو الآخر لم يدفع عن محمد صلى الله عليه وسلم ما الصقه فولتير كذبا ، وكأن ما قيل عن النبي لا غبار عليه ، ولا حرج فيه ولم يتعرض للتمثيلية الا من حيث هي فن وادب .

ويذكر الحكيم صدمته وفجيعته المروعة في ذلك المفكر الكبير فولتير ويرى انه متهم عنده ولن يبرئه ابدا ، ولن يعده ابدا من بين اولئك العظام الذين عاشوا بالفكر وحده وللفكر وحده ، ويرى ان التاريخ العادل سوف يحكم عليه هذا الحكم .

لكن الفجيعة كانت اكبر والدهشة اعظم بالنسبة للاستاذ الحكيم ، ان الشرق والاسلام وقفا من هذا الامر موقف النائم الذي لا يعي ولا يشعر بما يحدث حوله ، فلم يقرأ كاتبا من كتّاب الاسلام قام في ذلك الوقت يدفع عن دينه هذا الهراء الذي قاله فولتير ، ويقذف في وجه هذا الكاتب بالحقائق الباهرة القاطعة ، فالمسألة ليست مسألة دين فحسب ، انما هي ايضا مسألة جنس وقومية .

فاوربا حين تقول «الاسلام» فانما تعني في غالب الاحيان الشرق ، والدفاع عن الاسلام لم يكن في كل الاحيان دفاعا عن عقيدة او ديانة انما هو دفاع عن حياة تلك الكتلة التي يسميها الغربيون الشرق ، ان الحروب الصليبية مثلا في حقيقتها لم تكن الا حرب الغرب على الشرق، وان الفتح الاسلامي عندما بلغ فرنسا وهدد اوربا ، لم يكن في الواقع الا حرب الشرق على الغرب .

ويذكر الاستاذ الحكيم بعض الآراء المهاجمة للاسلام ونبيه ، بذكر كتابات الوزير الفرنسي «جابرييل هانوتو» وكذلك كتابات «كيمون» . فمثلا هانوتو يرى خطر الاسلام زاحفا الى الغرب ، والثاني يرى ان الديانة المحمدية جزام فشا بين الناس ، وان قبر الرسول الكريم ما هو الا عمود من الكهرباء ، يبث الجنون في رؤوس المسلمين ويلجئهم الى الاتيان بمظاهر الصرع والهستيريا .

ويتضمن هذا الفصل رد للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده على «هانوتو» و «كيمون» .

ويذهب الى انه آن للغرب ان يحترم عقائد الشرق ، بل لقد آن للغرب ان يدرك أن «محمدا» والاسلام هما في منابع الفكر الحر ، وطفرة من طفرات البشرية المتحررة ، والدليل على ذلك شخصية النبي ذاتها ، وغرضه في الدعوة الى دين جوهره اقناع النفس ، وحين أعلن انه بشر وأن دينه هو دين الفطرة البشرية ، وانه قاوم السفهاء الذين كانوا يطلبون

الى الانبياء ان يثبتوا نبوتهم بالمعجزات فاتموا في الفكر البشري قبل أن يأثموا في حق الدين .

ان «محمدا» قد فهم حقيقة النبوة ، ووعى معنى الحقيقة العليا ، وادرك ان اكبر معجزة في هذا الكون هي الا يكون في الكون معجزات .

ان محمدا قد تأمل الطبيعة كثيرا ايام عزلته في «غار حراء» ، وفكر مليا في نظامها العجيب ، فكشف عن بصيرته وبصره فامتلأ قلبه بالله الواحد ، كما اقتنع عقله بوجوده ، فجاء دينه دينا متكاملا صادقا في نظر القلب والعقل معا .

ولئن كان في الارض نبي حرص على ان يجاهر بمحبة العلم ومصادقته: ولم يخش دينه العلم ، ولم يضطهد العلماء . فهو محمد الذي قال : «فضل العلم خير من فضل العبادة» : وقال : «اطلب العلم ولو في الصين» . وغيرها من الاحاديث التي تثني على العلم وتحصن عليه .. ذلك ان مصدر اقناع العلم ومصدر اقناع محمد واحد : الكون وملاحظة ما فيه من ابداع ينم عن عقل مبدع هائل .

ويختم الاستاذ الحكيم هذا الفصل بقوله : «اني كلما تاملت شخصية محمد مجردة ، ثبت ايماني بأن الخصومة المعروفة بين العلم والدين ليس لها في الحقيقة وجود ، وأن الدين الحق لا يتعارض والعلم الحق ، بل ان الدين والعلم شيء واحد كلاهما يطلب نور الله ويريد وجهه وكلاهما يسعى ويؤمن ويلهج بتناسق الوجود ووحدة قوانينه ودلالة وحدة الوجود على وحدة الخالق ولم يظهر نبي حق ، ولا عالم حق وشعر بغير ذلك ، انما الفارق بين رجل العلم ورجل الدين هو في السبيل التي يسلكها كل في الدنو من الله .

ان الطرق والسبل يجب ان تظل مختلفة مميزة لا يختلط بعضها ببعض ، انما المصدر واحد دائما والغاية واحدة .

هكذا كان دفاع الاستاذ الحكيم عن الاسلام ونبيه الكريم خير دفاع .

***

وفي الفصل الثالث وعنوانه «نجم أحمد» يواصل الاستاذ الحكيم حديثه أو دفاعه عن الاسلام ونبيه متسائلا ما الاسلام ؟ وكيف ظهر بظهور محمد ؟ ويجيب في الصفحات عاقدا مقارنة بين الاسلام وبقية الاديان «المسيحية» و«اليهودية» ويرى ان الاسلام جاء بأسلوب جامع مانع

سهل ممتنع محكم الوضع مصقول التراكيب .

ويحدثنا الحكيم في هذا الفصل عن حكمة الاسلام التي تبدو واضحة ظاهرة بين سائر الاديان . فهو دين بسيط فطري لم تدخله صناعة كل شيء فيه صادق خالص صافي ، ليس فيه انكار لقوانين الطبيعة بل فيه مسايرة حكيمة ومصاحبة رشيدة لكل ما فرضه النظام العلوي على البشر من حيث تركيبهم المادي والمعنوي ، ذلك ان اسلوب محمد صلى الله عليه وسلم في ادراك «الحق» كان اسلوبا مستقيمـــا . فهو قد ادرك أن معنى الحق انما هو السبب الذي يصدر عنه الناموس الاكبر ، وأن روح الوجود و«النظام» ، اذ لا يتصور ان تكون الفوضى من عناصر الخليقة.. بل ان الفوضى اذا حلت في نظام الوجود انقلبت نظاما لانه لا وجود بـلا نظام بل ان كلمة الفوضى لا محل لها الا في عقول البشر .

كل هذا فهمه «محمد» صلى الله عليه وسلم ، فجاء اسلوب الاسلام في الافصاح عن الحق واضحا جليا ، لا يأمر بالرهبية ، ولا بالفرار من الدنيا ، ولا بتعذيب الجسد من اجل الله لأن الله لا يأمر بتحطيم ما بناه.

ويوضح الاستاذ الحكيم في فصله هذا غاية الدين عند البشر ، وهي التي تعمل على توفير اسباب الحياة الصحيحة ، والدنيا الصحيحة خـير تمهيد لآخرة صحيحة ، فان الاسلام بلا مراء هو دين الصحة في كـــل شيء ، فهو ذو صوت جهير في الدعوة الى صحة الجسم وصحة العقل وصحة العقيدة .

ولما كانت هذه هي غاية الاسلام اصبح من اليسر ان يغزو النفوس والعقول .. فان الدين «المثالي» هو الدين البسيط ، وهل أبسط من الاسلام شريعة وهي لا تعرف «رجال دين» ؟ ولا تقر وجود أناس يجعلون من هداية الناس حرفة يأكلون منها ويكنزون ؟ ومن «الدين» مهنة تدر الرزق وتعطي متاع الدنيا ؟ ان اولئك الذين يجعلون الدين سلما — لا الدنيا سلما للدين — قد طردهم الاسلام من حظيرته ، وجعل الديـــن سمحا باسما باسطا ذراعيه لكل الناس لا احتراف فيه ولا احتكار .

***

وفي الفصل الرابع من هذا البحث وعنوانه «سر العظمة» يواصـــل الاستاذ الحكيم الحديث عن الدين الاسلامي والرسول صلى الله عليـــه وسلم ، فيحدد موقع النبي الكريم من العالم في بداية دعوته حين يكون

وحده ، الذي يدين بدين جديد ، بينما الدنيا كلها : أهله وعشيرته وبلده وأمته والفرس والروم والهند والصين وكل شعوب الارض ، لا يــــرون ما يرى ولا يشعرون له بوجود .

رجل ليس لديه قوة او سلاح ، الا مضاء العزيمة وصلابة الايمان ، امام عالم تدعمه قوة العدد والعدة وتؤازره حرارة عقيـــدة قديمة شب عليها ، وورثها عن أسلافه ؛ واتخذت لها في قرارة نفسه واعمـــاق تاريخه ، جذورا ليس من السهل اقتلاعها على اول قادم .

ويرى الاستاذ الحكيم أن هنالك مبارزة بين فرد اعـــزل وبين عصر بأسره يزمجر غضبا : عصر زاخر بأسلحته ورجاله وعقائده وفقهائه وعلمائه وتقاليده وماضيه وتاريخه ويتساءل قائلا : «هذه المبارزة الهائلة العجيبة من يستطيع أن يقدم عليها غير نبي ؟ ثم كيف استطاع النبي أن يـــرى الناس ما يرى وأن يقنعهم بما جاء به ؟

والجواب بسيط : حياة النبي وخلقه .. ان الناس لا تقتنع بالكلام وحده وانما يؤثر فيهم الفعل والمثل. ان الناس يوم أيقنوا ان محمدا صلى الله عليه وسلم لا يسعى الى غنى ولا الى ملك ، وأنه يريد ان يبقى فقيرا، يشبع يوما ويجوع اياما ، وأن تلك المخاطر التي يتعرض لها في كـــل خطوة ، وان كل ذلك الهوان الذي يناله من سفهاء القوم وأكابرهم ، وأن كل ذلك الجهاد الذي ملأ به حياته بأكملها : انما هو سبيل العقيدة التي يقول لهم عنها منذ ذلك اليوم الذي اجتمع فيه كبراء أمته وعرضوا عليه ثروتهم ، ووعدوه ان ينصبوه ملكا عليهم ، على شرط ان يتركهم على دين آبائهم . فرفض المال والمجد والسلطان وابى الا شيئا واحدا صغيرا : أن يؤمنوا معه بفكرته . عند ذاك أدرك القوم أن الامر جد لا هزل ، وانهـم امام رجل ليس ككل الرجال ، رجل يعيش من اجل فكرة .. يضحي في سبيلها بخير ما في الحياة .

لكن كل هذا لا يكفي ، فالناس قد تقتنع بأمانة النبي ، وقد تستمع الى ما يقول ، ولكنها لاتستطيع بأي حال من الاحوال أن تنبذ في يوم وليلة كل ماضيها لتؤمن بهذا الكلام الجديد . لقد وضعت المسألة اذن وضعا آخر واتخذت الحرب ميدانا جديدا فماذا يصنع النبي ؟ ســؤال يطرحه الحكيم في هذا الفصل ويتولى الاجابة عليه قائلا : لا بد له من ان يبدد ضباب الشك المخيم على الاذهان ، حتى يصل اليها نور الدين .. وهنا صفتان لازمتان الصبر والمثابرة ، فان العاقبة في الحرب لمن صبر وصابر وثابر وأن أمامه لخصم جديدا هو الشك الذي يقوم الان في رؤوس

الناس ، فان كان حقيقة رجلا عظيما فليقتل هذا الشك بمفرده وما هو بشك رجل واحد وانما هو شك أمة طامية .

لقد جاهد الرسول الكريم فعلا في كل لحظة من لحظات حياته ، الى ان استطاع ذات يوم ان ينقل العقيدة التي في قلبه حارة قوية الى قلوب الناس جميعا ، وهنا كان النصر الاخير ، وتمت المعجزة وتمكن هذا الرجل الواحد أن يضع العالم في قبضته ، ويخضعه لفكره ويطبعه الى ابد الآبدين ، بخاتمه وهذه سر عظمته .

***

وتحت عنوان «المراة في شباب النبي» وهو الفصل الخامس من هذا البحث يناقش الاستاذ الحكيم موقف النبي صلى الله عليه وسلم من المراة وكأنه يرد على هذه الاتهامات الباطلة التي كان يوجهها اليه دعاة الغرب من المبشرين والمستشرقين في هذا الموضوع بالذات فيقرر منذ البداية ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يتحرك قلبه لامراة قبل خديجة رضي الله عنها كما يروى لنا التاريخ . ويعلل ذلك بأن حياة النبي الكريم حتى الخامسة والعشرين ، كانت حياة عاكف على عمله ، متأملا في ملكوت الله فلم يكن للهو وللمراة حتى ذلك الوقت مكان من اهتمامه او تفكيره .

كانت العفة المطلقة اذن هي صفة النبي الكريم الغالية وقتئذ ، وكان الزهد والصبر والتواضع هي مميزاته عن بقية الشبان ومما جعل قومه يسمونه الامين .

ويفسر الاستاذ الحكيم مرحلةالشباب عند النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف كان يقضيها حتى الوقت الذي لقي فيه اول امراة أحبها «خديجة» رضي الله عنها ويؤكد ان شأن النبي في ذلك الوقت هو شأن اولئك الذين انتظرتهم أقدارا عظام ، وتملكتهم منذ شبابهم مثل عليا وأحلام عمرت كل أعوام شبابهم ، وحلت فيها محل اللهو والمرح . ان كل شاب يعيش فهو يعيش دائما مع شبح المجد المنتظر .

وحتى اذا تأملنا قصته مع السيدة خديجة رضي الله عنها ، لتبين لنا انه لم يكن البادىء بالحب ، .فكل شيء يدل على ان الزواج لم يخطر له على بال ، والزوجة والمراة آخر ما كان يفكر فيه وقتئذ ، فلقد كان يسير في طريق تأملاته الداخلية وأحلامه العليا ، وكأنه لا يمشي على

الارض الى أن لحظته خديجة ذات يوم ، ولمست كتفه فأفاق قليلا ، ورفع عينيه اليها . ويؤكد الحكيم على صفحات هذا الفصل انها هي التي كانت ترقبه منذ زمن وأن لشعورها نحوه جذورا ممتدة في أغوار قلبها امتداد عرق الذهب في المنجم العميق .

فاذا اضفنا الى كل هذا ان محمدا صلى الله عليه وسلم ، كان شابا في الخامسة والعشرين كريم الخلق جميل المنظر ، وأن خديجة رضي الله عنها كانت امراة في الاربعين أدركنا ان مثلها كان لا بد له ان يحب مثله وليس العكس .

ويتساءل الاستاذ الحكيم وكأنه يرد على الذين يتهمــــــون الرسول الكريم في هذه المسألة بالذات فيقول : وهل يمكن أن نسمي هذا الشعور باسم آخر غير الحب ؟ ذلك الذي يدفع امراة ذات شرف ثروة ان تبدأ هي الخطوة الاولى نحو فتى فقير يتيم ؟ وهي التي تقدم اليها اكرم رجـــال قريش نسبا ، وأعظمهم شرفا وأكثرهم مالا ، فلم تلتفت اليهم .

وينتهي الاستاذ الحكيم في هذا الفصل الى أن منبع الحب اذن ، كان قلب خديجة ، ولقد كان هذا الحب ساميا قويا عظيما فاستطاع ان يفتح قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن يملأه كل تلك الاعوام التي شبتها خديجة بل ان هذا الحب لم ينطفىء بموت خديجة رضي الله عنها ، ولقد ظل مكانها من قلبه قائما دائما لم تستطع اي امراة ان تزاحمها فيه .. وهذا هو حب «محمد» صلى الله عليه وسلم الاول .

***

ويختم الاستاذ الحكيم بحثه في الدين بالفصل السادس والاخير ، بالحديث عن جوهر الدين نفسه ، وفي هذا الفصل يشير الى التهويل في استخدام الالفاظ التي تخرج منعزلة عن النوايا ويحيي مع ذلك كل من يعنيه جوهر الدين ، بل والاكثر يحث الناس على ان يفخروا بالدين ذلك لان الدين هو الذي رفع الانسان فوق مرتبة الكائنات جمعاء .

فالذكاء ليس بالميزة التي اختص بها الانسان وحده ، والنظام الاداري المحكم او الاقتصادي الكامل ليس وقفا على المجتمع البشري فان مجتمع النحل أدق منا نظاما في الادارة ، وهو ايضا اتم منا إحكاما في الاقتصاد. لكن الذي يميزنا نحن معاشر البشر هو الايمان : فما من مجتمع غـــــير مجتمعنا البشري اهتدى الى ذلك الايمان الديني لان حياة الروح لم يلج

بعد بابها غير الانسان .

ويناشد القارىء الذي يهدر دينه فكانه قد اهدر آدميته وهل هناك مقابل للآدمية ؟ واذا خلع رداءه الديني فقد خلع رداءه البشري ، وانقلب دابة تسعى الى رزقها في الارض ولا تقوى على التطلع الى السماء .

ويختتم الاستاذ الحكيم هذا الفصل بل والبحث كله بهذه الحقائق فيقول الدين هو الذي يرفع بصرك الى أعلى ايها الانسان .. الى اعلى اقدامك وأرضك وطعامك وشرابك واذا استطعت ان ترفع بصرك الى أعلى من فمك فأنت أرقى من الحيوان واذا ارتفعت الى حيث تدرك وجود الله فأنت سيد الكائنات .

الفرق بين الانسان والحيوان .. هو أن الانسان يعرف معنى الدين، بينما الحيوان لا يعرف ذلك .. ولو عرفت جماعة من الحيوان يوما معنى الدين لاصبحت في الحال بشرا ساجدين .

وما من شيء نفخر به نحن الآدميين ، الا اننا نسجد من اجل فكرة عليا ، ونتحمس من اجل معنى مقدس وتعرف ـ وهذا هو المهم ـ وتعرف قلوبنا ما هو الايمان .

ومع ختام هذا الفصل يختتم الاستاذ الحكيم بحثه في الدين على ما رأينا .

الادب والدين

وفي كتابه «فن الادب» خصص الاستاذ الحكيم .. بحثا كبيرا تحت عنوان «الادب والفن» تناول فيه العلاقة بين الادب والدين ، وذهب الى أن الاثنين ينبعان من مصدر واحد ، او على حد تعبيره «الدين والادب كلاهما يضيء من مشكاة واحدة» . لكن كيف يكون ذلك ؟

هذا ما تتضمنه فصول البحث الستة ، والتي يبدأ أولها وعنوانه «السماء هي المنبع» بوضع فرض او اعتقاد هو أن رجل الادب او الفن ، ورجل الدين بينهما صلة . ذلك ان الدين والفن كلاهما يضيء من مشكاة واحدة ، هي ذلك القبس العلوي الذي يملأ الانسان بالراحة والصفاء والايمان . وأن مصدر الجمال في الفن هو ذلك الشعور بالسمو الذي يغمر نفس الانسان عند اتصاله بالاثر الفني .. من أجل هذا كان لا بد للفن أن يكون مثل الدين قائما على قواعد الاخلاق .

وبالطبع هذا رأي يخص الاستاذ الحكيم لا كـــل المشتغلين بشؤون الفن . ذلك لأن الجدل اشتد بين طائفتين . طائفة تقول ان الفن ينبغي ان يكون أخلاقيا ، وطائفة تقول ان الفن يجب ان يكون متحررا حتى من هذه الاخلاق . فالجمال في الفن او الادب ينبع من الاتقان ، وان الاجادة في تصوير الدمامة والرذيلة ، لا تقل فضلا عن الاجادة في تصوير الحسن والفضيلة . كما ان الدين ايضا — في تنزيله — يصـــــور لنا رجس المشركين وإثم الكافرين ، وقبح الاشرار والمفسدين كما يبرز لنا فضل المؤمنين واحسان المحسنين ولكن المقصود ليس حرية التصوير فهـــذه مكفولة في الفن ملحوظة في الدين ، وانما المقصود هو ذلك الاحساس الاخير الذي ينقله الفن والدين الى النفوس .

ويتساءل الاستاذ الحكيم فيقول ان الاحساس الاخير الذي ينقله الدين الى النفوس ، هو احساس أخلاقي فهل هذا هو واجب الفن ايضا ؟

واكثر من ذلك يتساءل بصورة أخرى ما مهمة الفن الحق اذن ؟ اهي أن يقف في المجتمع واعظا ومرشدا وهاديا الى سواء السبيل ؟

ويجيب على هذه التساؤلات بأنه من المُجمع عليه ان الوعظ والارشاد ليسا من وظيفة الفن . لان وظيفة الفن هي خلق شيئا حيا نابضا يؤثر في النفس والفكر .

لكن ما نوع هذا التأثير ؟ هنا القضية .

الحكيم يجيب بأن نوع التأثير هو الذي يحدد نوع الفن . فاذا طالعت أثرا فنيا : قصيدة او قصة او صورة ، وشعرت بعدئـــذ انها حركت مشاعرك العليا او تفكيرك المرتفع فانت امام فن رفيع .. فاذا لم تحرك الأ المبتذل من مشاعرك والتافه من تفكيرك فانت أمام فن رخيص .

واذا اتفقنا مع الحكيم على نوع التأثير فما مصدره ؟ أهو الاسلوب أم اللب ؟ أهو الشكل أم الموضوع ؟

في نظر الحكيم الاثر الفني الكامل هو ذلك الذي يحدث فينا ذلـك الشعور الكامل بالارتفاع ، وقلما يحدث هذا الا عن طريق السمو فـــي اللب والاسلوب ، لان ضعف الشكل وسقم الاسلوب ، يحدثان في النفس شعورا بالقبح والضيق والاشمئزاز ، وهذا ينافـــــي الشعور بالجمال والتناسق والانسجام .

شأن الفن هنا كشأن الدين ولو علم رجل الفن او الادب خطر مهمته لفكّر دهرا قبل أن يخط سطرا ولكن الوحي يهبط عليه فيسعفه شأنه في ذلك شأن المصطفين من اهل الدين .. وهل يمكن ان يهبط من اعلى الا

كل مرتفع نبيل ؟

وينتهي الحكيم الى نتيجة هامة وهي : للدين وللفن .. السماء هي المنبع .

***

وتحت عنوان «الماء الحي» يقدم لنا الحكيم حوارا بين يسوع عليه السلام وامرأة سامرية ينتهي الى قول يسوع عليه السلام : «كل من يشرب من هذا الماء يعطش ايضا ولكن من يشرب من الماء الذي أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع الى حيوات أبدية» .

ثم يتساءل الحكيم : كم من البشر انطفأ فيه ذلك العطش ونبع فيه ذلك الماء الحي ؟

ويتساءل ايضا اين هذا الماء الحي ؟ وبأي دلو نصل اليه ؟

ويجيب على صفحات هذا الفصل من بحثه هذا ، بانه موجود ليس في كل النفوس ولكنه ينبع في النفس التي تلقت بركات السماء وقد لا تشعر هي بوجوده وقد لا يشعر بذلك ايضا الناس المحيطون بها لان هذه النعمة اسمى من أن تراها كل العيون .

ويضرب على ذلك امثلة كثيرة ابسطها وأقربها الى فهم العامة مثل ذلك النجار ، الذي كان يعمل في حانوته طول النهار ، فاذا جاء المساء ذهب بربح يومه الى داره فتعشى هو واولاده ثم رفع عقيرته بالغناء .. فغنى وانيس وطرب بعض ليله ثم نام بين اسرته نوما هنيئا هادئا لذيذا حتى الصباح ، وكان له جار غني يرى هذه الحال منه ويتعب ويقول في نفسه كيف يكون لهذا النجار على فقره مثل هذا الصفاء وانا الغني لا أنام ولا اهمد ولا يطفىء المال عطشي للثراء ، ثم عزم على ان يدبِّر للنجار امرا .. فألقى في داره بكيس مملوء بالذهب ، وجعل يترقب ما يحدث وعندئذ حدث العجب ، فقد انقطع الغناء الذي كان يرتفع من دار النجار وسكت القلب المفرد السعيد ولغط الدهن المفكر المكدود وذهب الهناء وحل الشقاء بالنجار .. حيث شغل نهاره وليله بأمر ذلك المال الذي هبط عليه .. كيف ينتفع منه ويستغله وينميه . ومرت الايام والليالي وقد خيم على دار النجار ذلك السحاب الذي يخيم على دار جاره الغني .. سحاب الهم الذي لا يزول . لقد بدأ الجري الدائم خلف السراب لقد غاض النبع من البئر وجاء العطش الذي لا ينطفىء ابدا .

ويختم الحكيم هذا الفصل بذلك الدرس البليغ للمسيح عليه السلام، آملا ان تعيه الدول قبل الافراد . حيث يؤكد ان هـذه الحروب التي لا ينطفىء سعيرها ـ انما هي علامة عطش ، فمتى تؤمن الدول القوية ان هذا العطش لا يطفئه الطغيان ولا السيطرة ؟ كل دولة تشرب من بئـر السيطرة تعطش ايضا !؟

ويذكر هذه الدول بأن أجراس الميلاد تدق في أديارها وكنائسها ، فلا تغتر ولا تظن ان القنابل الذرية تطفىء العطش ، بل ينبغي ان تثق ان الذي يطفئه آخر الازمان هو ذلك الماء الحي .. الذي تحدث عنه السيد المسيح عليه السلام .

***

ولكي يقرب الحكيم أوجه الشبه بين رجل الادب وبين رجل الدين .. او لكي يقرب الادب من الدين .. يكتب هذا الفصل بعنوان «الحقيقـة الكاملة» في هذا البحث ، الذي يصدره بأسطورة صينية مملوءة بالحكمة. والتي تقول انه فوق تل من تلال غائبة نائية ، كان يعيش رجل شيخ مع ابن له وجواد ، وذات صباح هرب الجواد واختفى ، فأقبل الجيران على الشيخ يعزونه في نكبته بفقد جواده فقال لهم الشيخ: من أدراكم انهـا نكبة ، ولم تمض ايام حتى عاد الجواد مصطحبا عديدا من الخيول البرية، فعاد الجيران مهنئين له ذلك الحظ السعيد ، فقال لهم ومن أدراكم انـه حظ سعيد ، وامتطى ابن الشيخ احد هذه الخيول البرية ليروضهـا فسقط من فوق صهوته الى الارض فكسرت ساقه ، فرجـع الجيران محزونين يواسونه ويعزونه في هذا الحظ العثر ، فقال لهم ومن أدراكم انه حظ عاثر ، ومضى عام واذا بحرب تقوم جند فيها كل الشبـاب وأرسلوا الى الميدان فلاقى اكثرهم الحتف الا ابن هذا الشيخ لان العرج أعفاه من الذهاب الى الحرب وانقذه من الموت .

ويعلق الاستاذ الحكيم على هذه الاسطورة قائلا ان لكـل شيء نهاره وليله ، يدوران حوله بغير انقطاع ، ولكن الانسان في نظرته القصيرة لا يرى الحادث الا في حلقاته المنفصلة وأجزائه المتقطعة ونتائجه المؤقتـة ومؤثراته المفاجئة ، لعينه لا تستطيع أن تشمله في جملته لان جملتـه ممتدة الى الغد وعين الانسان لا ترى الغيب .

ولو استطاع انسان أن يشمل بنظرته الامس واليوم والغد ، وأن يتتبع

حادثا واحدا او رجلا بعينه لرأى العجب . فهذا الغني الذي يملك الملايين سيرى أمواله قد بددها وريث ، وهذا الوريث سيكـون له اولاد فقراء ، ومن هؤلاء الفقراء واحد ينشىء ثروة .. وهكذا دواليك : يأتي المال من العدم ويذهب المال في العدم ويولد من السعـــد نحس ومن النحس سعد .. والساقية تدور لا تكف عن الدوران ، وهي لا تقف طول الزمان وليس هناك في حقيقة الامر حظ زاهر ولا عاثر وأن ما تسميه الحظ ليس الا وقوف نظرنا المحدود على وضع من الاوضاع في وقت من الاوقات.

ان الحياة متوازنة هكذا جعلها الخالق عز وجل لكي تكون محتملـــة فيها الابيض وفيها الاسود فيها الغنى وفيها الفقر فيها السعادة والشقاء.

لكن من الذي يستطيع أن يدرك ذلك ؟ او كما يتساءل الحكيم مـــن الذي يملك العين التي ترى الاشياء في جملتها لا في جزء منها وفـــي تعاقبها لا في وقوفها ؟ ويرى : انه الاديب الصادق هو الذي يملك تلك العين التي ترى الحقيقة كاملة في حياة البشر .. هـــذه العين تبصر الساقية في دورانها .. مثله في ذلك مثل رجل الدين الحقيقي القريب بقلبه وعقله من الله يستطيع ان يرى الاشياء في جملتها .

وعن العقل البشري يحدثنا الحكيم حديثا يبدأ بأسطورة الفرد الصينية حيث يشبه العقل في ثورته بهذا الفرد وفي هذا الفصل الذي يقدمه لنا تحت عنوان «ثورة العقل» يصف العقل بأنه صحيح بارع نشيط براق ، استطاع بسرعة حركاته ان يوجه أنظارنا اليه وحده وأن يعلق اهتمامنا به وأن يقصر آمالنا عليه بل لقد نجح هذا العقل احيانا ان يوهمنا انه هو وحده مصدر الحركة الكبرى في الوجود ، حتى تملكه الغرور فصـــاح يقول : أنا كل شيء ولا وجود لغير ما أكشف عنه .. وفـــي قدرتي أن أفعل المستحيل .

فتجلت قدرة الله عز وجل قائلة : ايها العقل في قدرتك أن تثب الى الشجر ولكنك لن تثب الى السحب . في قدرتك أن تفعل اشياء ولكن ليس في قدرتك أن تفعل اشياء اخرى .. بسبب بسيط ولكنه جوهري هو ان قدرتك هذه لها حدود .. ليست لامتناهية .

قال العقل : سأثب قريبا الى ما فوق السحب ، لقد عرفت سر الذرة وأنا في طريقي الى بلوغ القمر والوثوب الى بقية الكواكب والاحاطـــة بكل ما في الكون .

ويرى الاستاذ الحكيم ان الانسان مهما قفز ومهما وصل الى أعلـــى مراتب العلم فانه لن يستطيع ان يبلغ نهاية القدرة الالهية ولن يخـــرج

عن محيطها .

وها هي القدرة الالهية تخاطب الانسان مشفقة به : لا تجهد قواك عبثا ولا تحاول المستحيل انك لم تزل في كفي نقطة حائرة نطفة عاجزة لك ان تقفز ما شئت ولكن اياك أن تغتر بمدى قفزاتك وتتوهم انك بالغ بها ما لا يمكن ان تبلغ فتعرض نفسك لذل الخيبة ومرارة اليأس وسخرية المقدرين لنشاطك .

الاستاذ الحكيم يريد ان يقول في هذا الفصل ان الانسان مهما وصل عقله ومهما كانت ثورته ، فلن يتجاوز حدود القدرة الإلهية بأي حال من الاحوال فهذه القدرة هي التي غرست فيه قدرته على التفكير وعلى التغيير.

وفي فصل بعنوان «معجزة الدين» من هذا البحث يطرح الحكيم سؤال لماذا لا يظهر في هذا العصر انبياء ؟ وهو سؤال يطرحه كثيرون ولا يتلقون عنه جوابا مقنعا ويضيف انه ظهر في هذا العصر من يدّعي شفاء الامراض ومن يزعم الاتصال بأرواح الموتى ولكن قلما يظهر من يدّعي النبوة .. لماذا ؟ السبب لا شك هو ان المتنبىء يعلم انه سوف يطالب بالاتيان بمعجزة لكن ما هي المعجزة التي تستطيع أن تقنع الناس في عصرنا الحاضر ؟

لو ان رجل ما ادّعى النبوة قال للناس انظروا ثم مد يده الى القمر فخلعه من موضعه في الفضاء وصره في منديله كأنه بطيخة وسار به متنقلا في أرجاء العالم فما الذي يحدث ؟

يحدث ان يهب علماء الارض لفحص هذه الظاهرة .. الفلكيون لهم راي وعلماء الكيمياء لهم رأي آخر .. وعلماء النفس لهم رأي ثالث .. وهكذا يمضي كل عالم وباحث في كل فرع يفحص ويمحص ويفترض ويستنتج وتكثر المجادلات الفنية وتتلاطم النظريات العلمية ولكن ما من واحد من هؤلاء العلماء يأخذ نبوة الرجل علىسبيل الجد او يحاول التسليم بوجود صلة مباشرة بين هذا الرجل والله عز وجل .

لم تعد المعجزة في عصرنا الحاضر دليل على النبوة فنحن في عصر المعجزات .

ويقرر الاستاذ الحكيم ان عصرنا الحاضر خليق انْ يعفي النبي من المعجزات التي تثبت شخصيته ثم يتساءل فلماذا لا يظهر المتنبىء اذن وقد ازيلت من طريقه العقبة الكبرى ؟

ويجيب : لا يظهر لانه سيطالب بأصعب معجزة وهي : الشريعة .. تلك الشريعة السماوية الانسانية التي تصلح للناس كافة ويكون فيها صلاح

الناس كافة في آخرتهم ودنياهم وفي سمائهم وأرضهم .. كيف تنزل هذه الشريعة دون ان تكون تكرارا لما سبقها من شرائع ؟

لا بد اذن من شيء جديد ولا بد ان يكون الله قد اراد ذلك فعلا .. كل معجزات الارض قليلة الى جانب المعجزة العظمى وهي الديانة التي يفجرها الله من نوره فيتبعها أفواج البشر مبهورين شاعرين انها سكبت في شرايينهم ومزجت بدمائهم الى يوم الدين .

ويختم الاستاذ الحكيم هذا البحث بالفصل السادس وعنوانه «الايمان بالحياة» وفيه يحدثنا عن الايمان بالحياة .. وهو منارة تقع بين جنبي الانسان .. مكانها القلب ذلك القلب المؤمن بالحياة .. الحارس لها ، الذائد عنها دون ان نتدخل في عمله بأذهاننا ، فهو ذلك الجزء الاصيل فينا .. ذلك الجزء الذي وضعه الله عز وجل .

لا يستطيع عقلنا لحسن الحظ ان يصدر أمره الى القلب فيوقف نبضاته كما يصدر أمره الى الايدي والأقدام فيوقف حركاتها .

لا احد غير الله يستطيع أن يصدر أمره الى القلب .

مختار تفسير القرطبي
الجامع لأحكام القرآن

ويفاجئنا الاستاذ الحكيم في بداية هذا العام (١٩٧٧) بأضخم كتاب يحمل اسمه وهو كتاب «مختار تفسير القرطبي الجامع لاحكام القرآن» حيث يقدمه ويحققه في أسلوب مركز عصري وهو في تقدمته المختصرة للكتاب يؤكد ، بأن الذي أوحى اليه بضرورة تقديم وتحقيق هذا الكتاب للمكتبة العربية أمران :

الامر الاول : ما جاء عن هذا الكتاب في غيره من الكتب وبأنه اقتصر على ما لا بد لكل عالم فقيه او حافظ او محدث أو اديب من معرفته وحفظه لكثرة استعماله وجريانه على الألسن وأنه إجتنب عويصي اللغة وغريبها طلبا للاختصار وتسهيلا للحفظ .

الامر الثاني الذي أوحى للاستاذ الحكيم بضرورة هذا الكتاب الضخم الذي يبلغ عدد مجلداته عشرون مجلدا .. هو ما يراه اليوم في مصر

والبلاد العربية من الاهتمام المخلص بالدين والرغبة الصادقة في الاستزادة من معرفة جوهر الاسلام واحكامه مما يقتضي الرجوع الى المنبع الاصلي للشريعة لمن يريد الاتصال المباشر بالنصوص وتفسيرها في أمهات المراجع المعتمدة ولما كانت هذه المراجع من الضخامة بحيث تشق قراءتها على أكثر الناس فقد رأى الاستاذ الحكيم ان يقوم باستخراج مختار في مجلد واحد حرص فيه على الاقتصاد على ما لا بد لكل متدين ومسلم وقارىء للقرآن من معرفته وحفظه .

والاستاذ الحكيم حين يقوم بتقديم وتحقيق هذا الكتاب يسير على نفس المنهج الذي سار عليه منذ اربعين عاما عندما نشر كتابه «محمد الرسول البشر» حيث وضع القارىء وجها لوجه أمام منبع الشريعة في القرآن الكريم وأحكامه .

ولم يقف حائلا بين القارىء وما يقرأ وانما ترك الوقائع والاحكام ترسم بنفسها الصورة الكاملة التي يقبلها العقل والتي انتجت هذه الحصيلة الدينية والفكرية التي تدعو الى الفخر والعجب وتدلنا على أن الله سبحانه وتعالى عندما دعانا الى النظر والتأمل فيما حولنا من خلقه ، انما اراد لعقلنا البشري أن يتحرك للبحث في حقائق الاشياء .. وهكذا تحرك عقل الاستاذ الحكيم مع هذه العقول التي سبقته في تفسير كلام الله عز وجل. وفكر ورأى في ضوء مناقشاتهم وتحليلاتهم ما أعانه على رؤية الحقائق بنفسه وهذه فضيلة الاتصال المباشر بالمنابع الاصلية ، وخاصة في التفسيرات التي تتيح للقارىء الاطلاع على الآراء المختلفة عند مختلف الأئمة والعلماء .

فالاستاذ الحكيم مع حرصه على عدم التدخل في هذا التفسير ، الا انه لم يستطع منع فكره الذي تحرك من أن ترد عليه بعض الخواطر في صدد بعض المسائل القابلة للمناقشة والتحليل دون المساس باللب او الجوهر .

واذا اتفقنا على ان تفسير القرطبي يشتمل على أبواب في كيفية التلاوة للقرآن الكريم ، ومعنى نزول القرآن على سبعة أحرف ، وذكر جمع القرآن ، وما جاء في ترتيب سور القرآن ، وذكر معنى السورة والآية الكلمة والحرف ، وسؤال : هل ورد في القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب ؟ ومسائل في إعجاز القرآن ، والتنبيه على أحاديث وضعت في فضل سور القرآن ، وما جاء من الحجة في الرد على من طعن في القرآن .

وبالاضافة الى هذه الابواب ما يشتمل عليه القرآن من مسائل يطرحها ويضع لها الحلول التي تصلح لكل زمان ومكان ، وهو ما لم يترك فيها القرآن الكريم شاردة ولا واردة الا واحصاها .. حتى غطى حاجة الانسان . وكل هذا قام بتفسيره القرطبي وعرضه اولا ثم ذكر آراء وتفسيرات من سبقه حتى ولو كانت مخالفة لرأيه وتفسيره .

والقرطبي يؤكد ذلك من قريب او من بعيد في مقدمته للكتاب الاصلي ، الذي حققه الاستاذ الحكيم ، حيث يقول : «وشرطي في هذا الكتاب اضافة الاقوال الى قائليها والاحاديث الى مصنفيها فانه يقال من بركة العلم أن يضاف القول الى قائله ، وكثيرا ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهما لا يعرف من أخرجه الا من اطلع على كتب الحديث فيبقى من لا خبرة له بذلك ، حائرا لا يعرف الصحيح من السقيم ..» .

وينتهي القرطبي في مقدمته الى انه يذكر الآراء حول المسألة الواحدة حتى اذا كانت مخالفة لما يراه ويذهب اليه عقله فهذا من بركة العلم وكرامته .

والاستاذ الحكيم حين تصدى لتحقيق هذا التفسير وتقديمه في قالب يقبله القارىء .. فانه كما قلنا ـ وقد تحرك عقله مع هذا الحشد من العلماء والمفسرين ـ لم يستطع منع فكره من مناقشة بعض المسائل وتحليلها فبرز رأيه واضحا جليا على امتداد صفحات هذا الكتاب في «إعجاز القر»ن و«في التلاوة والتطريب» و«في الجمع بين الدين والدنيا» و«في الإذن بالقتال» و«في الحكم ونظام المجتمع» و«في العقوبات والحدود» و«في لا عنصرية في الاسلام» و«في حقيقة أن الله غني عن العالمين» و«في مسألة العقل أعجب الخلق» و«الله والعلماء» .

وهكذا يلمس القارىء «لمختار تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن» اضافة جديدة الى ما فيه من تفسير للعلماء والمفسرين السابقين .. قام بها الاستاذ الحكيم في هذه المسائل التي ذكرت .

فالاستاذ الحكيم يقول في صدد ما جاء في الكتاب من دلائل الاعجاز في القرآن الكريم ، انه نزل على صورة لم يعرفها العرب لا في الشعر ولا في النثر وبه كل الجلال فحاروا ، ودهشوا لان المألوف في أعمال البشر العظيمة ان تكون لها بدايات تتطور من عهد الى عهد ، ومن عبقري الى عبقري ، فكل عظماء العلوم والآداب والفنون منذ الخليقة كانت أعمالهم المبتكرة لها بوادر وبدايات تطورت في أشكالها ومضامينها ، حتى بلغت القمم التي وصلت اليها ، اما القرآن الكريم فقد ظهر دفعة واحدة

بشكله ومعانيه ، بما لم تسبقه بوادر وبدايات معروفة عند البشر . فنزوله بهذه الصورة دفعة واحدة بغير تطور سابق ، أمر يشبه نزول شيء سماوي كشهاب منير ، فاذا قيل هو وحي من السماء أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان ذلك هو الطبيعي الاقرب الى التصديق ، فمن إعجاز القرآن اذن هو هذا النزول في صورته النهائية بغير سابق نمو او تطوير مما ينطبق عليه قوله تعالى : «كن فيكون» .

وفي التلاوة والتطريب للاستاذ الحكيم راي خلاصته أن يكون للترتيل مكان الى جانب التطريب فمع الترتيل يتجه الذهن الى عمق المعاني ومع التطريب تتجه الاذن الى موسيقى الكلمات . والجمع بين المعنى والمبنى ، فيه اكتمال للادراك واستيعاب لعنصري الوجود : الروح والجسد وهذا جوهر اساسي في الاسلام .

وفي الجمع بين الدين والدنيا اي بين شؤون الروح ودواعي الجسد .. هذا الجمع الذي يميز الانسان .. وللاستاذ الحكيم راي هو أن الانسان يتغذى روحيا بغذاء نوراني وجسديا بغذاء مادي ولهذا كانت فطرة الانسان هذه هي الانسان جوهر الاسلام ولهذا ايضا كان الاسلام هو ختام الاديان السماوية وكان محمد رسول الله، هو خاتم النبيين، لان ما جاء به وما يمثله في التطور البشري ، لم تعد بعده حاجة الى بعثة أخرى من عند الله .

وفي الاذن بالقتال في الكتاب الاصلي يرى القتال محظورا في اول الرسالة، ثم أذن بقتال الدفاع لا قتال الاعتداء. والاستاذ الحكيم يرى في هذا الصدد ان العقائد والمذاهب لا يمكن ان تبقى طويلا في صورتها المعنوية وحدها ، أمام اعتداء المعتدين بالقوة المادية فالروح يمكن ان تصمد للروح، ولكنها امام قوة مادية لا بد لها من درع مادي يحميها ، وحتى ان صمدت فانها تبقى محصورة في نطاق محدود ، ولا تخرج وتنتشر الا بقوة مادية.

في الحكم ونظام المجتمع يرى الاستاذ الحكيم انه لاستتباب النظام في المجتمع ينبغي ان يكون القانون هو صاحب الحق في القصاص — والقانون هنا هو الشريعة الاسلامية — فانه يقضي لا عن هوى او تأثر شخصي او انفعالي ، بل بناء على التروي والفحص والبحث واستنباط القواعد من واقع الحال ، وضرورات الظروف وتغيرات المجتمع .

وفي العقوبات والحدود يرى الاستاذ الحكيم ان الحد الشرعي بالجلد، مضافا اليه المعادل الانتاجي لخير المجتمع ، أفضل من الحبس . ذلك ان مصادرة الحرية في عصرنا الحديث ، لم تعد عقوبة رادعة وخاصة بعد

المطالبة بتحسين السجون لتصبح حجراتها مثل حجرات الفنادق .

وحول العنصرية يقرر الاستاذ الحكيم انه لا عنصرية في الاسلام ، مستشهدا بما جاء على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال لرجل : انظر في وجوه القوم .. فنظر فقال له النبي «ما رايت ؟» فقال الرجل : «رأيت ابيض واسود واحمر ..» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «انك لا تفضلهم الا بالتقوى» .

ويرى الاستاذ الحكيم ان الله غني عن العالمين ذلك انه عندما يقال ان التقوى والصلاح والصلاة والصيام والزكاة وكل هذه الفضائل ترضي الله، فان معنى الرضا هنا ليس لان الله في حاجة الى هذا الارضاء ولكن رضا الله هو لمصلحة الناس واساس عبادة الله هو اساس رقي الانسان ، اذ من خلال هذه العبادة يرتفع البشر من مرتبة الحيوان الى مرتبة أرفع هي التي اراد لها الخالق ان تكون من نوع أرقى ولن يتيسر هذا الارتقاء الا بإدراك الارقى ، والارقى والاعلى هو الله ..

وعن العقل يرى الحكيم ان الله سبحانه وتعالى كرّم الانسان به لادراك عظمة الكون الذي ابدعه الخالق سبحانه وتعالى .

ان العلماء هم الذين يمثلون قوة هذا العقل ولذلك جعل الله لهم هذه المرتبة الكبرى التي ذكرها في القرآن الكريم : انما يخشى الله من عباده العلماء» والخشية كما فسرها المفسرون ترمز الى التقدير والإجلال وسواء كان التقدير والإجلال من العلماء لله ، أم من الله تعالى للعلماء ، فان المعنى هو أن هناك اتصالا راقيا بين الخالق والمخلوق ، وهو جوهر العبادة الراقية للعقل الانساني الراقي بارتفاعه ، الى حيث يدرك قدرة الخالق وعظمته .

كذلك يرى الاستاذ الحكيم أن القرن القادم وهو الحادي والعشرين سيكون للدين . ذلك ان العلماء كلما توغلوا في العلم ، اقتربوا من الدين ومن الخشوع لله ، وابتعدوا عن علماء القرن التاسع عشر ، يوم كان العلم الوليد في بداياته المغدورة يدفعهم الى الإلحاد فالقليل من العلم كما يقال يورث الإلحاد والكثير منه يؤدي الى الايمان . فهذا القرن (العشرين) ينبىء بقرن قادم يصل فيه مستوى العلم الحديث الى درجة من النفوذ والكشف عن اسرار الكون، تجعل علماءه أقرب الناس الى باب الله والدين.

هذه المسائل وغيرها خطرت على عقل الاستاذ الحكيم اثناء جمعه لمختار القرطبي وهي من المؤكد بفعل ما آثاره كتاب القرطبي في نفسه من آراء وأفكار .

الفصل السابع

جديد اضافته الاسلاميات

والآن لنا أن نتوقف لحظات .. فيها نلتقط انفاسنا بعد أن فرغنا من قراءة اسلاميات الدكتور طه حسين، والدكتور احمد امين والدكتور محمد حسين هيكل ، والاستاذ عباس محمود العقاد ، والاستاذ توفيق الحكيم . وتعرفنا على خصائص كل مفكر ، وملامح منهجه الذي سار عليه في تناول هذه المادة الاسلامية من جديد وقسمات هذه الاسلاميات وكتبها . بعد هذا نتوقف ونستمع الى نفس السؤال الذي كان يلح علينا اثناء القراءة بل وقبلها.. والذي يقول : «وما هو الجديد الذي أضافته هذه الاسلاميات للفكر الاسلامي ؟ هل كانت كتابات الخمسة تحصيل لحاصل وصورة طبق الاصل لما هو موجود في الكتب القديمة ؟» .

والاجابة على هذا السؤال تلمحها جملة وتفصيلا فيما كتبه الخمسة.

وجملة ذلك من كون ان كل واحد من هؤلاء الخمسة لو لم يكن مقتنعا بأن ما يقدمه يعتبر اضافة للتفكير الاسلامي وليس تحصيلا لحاصل حل لما بدأ . وواصل الكتابة في سنوات تعتبر من انضج سنوات عمره واخصبها انتاجا ..

وتفصيلا وذلك من اعادة النظر الى هذه الاسلاميات لتحديد الفائدة التي عادت على التفكير الاسلامي منها . وهي الاضافة الجديدة لذات التفكير .. وسوف نجد ان هذه الفائدة او الاضافة تتضح في هذه الحالات التالية :

اولا : اسلاميات الدكتور طه حسين والدكتور أحمد أمين والدكتور محمد حسين هيكل والاستاذ محمود العقاد والاستاذ توفيق الحكيم ؛ عملت على مواصلة واستمرارية كتابة السيرة المحمدية بعد ان انقطع المؤرخون او كادوا.. عن كتابتها نيفا وأربعة قرون حيث كان كتاب «امتاع

الاسماع بما للرسول من خولة وحفدة واتباع» للمــــؤرخ المصري الكبير تقي الدين المقريزي .. في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي .

في هذه الفترة ـ من القرن الخامس عشر حتى القرن العشريــــن تقريبا ـ لم يظهر كتاب في السيرة النبوية الشريفة باستثناء كتاب واحد ظهر منذ نيف وستين عاما تقريبا وهو الذي كتبه رفاعة رافع الطهطاوي تحت عنوان «نهاية الايجاز في سيرة ساكن الحجاز» .

وخلو هذه الفترة من اعادة كتابة السيرة المحمدية امر كان له اثره. حين سمح بانتشار قصص المتصوفة والدراويش التي تحول سيرة النبي الكريم التي بدأت عند ابن هشام سيرة «بشر مثلنا» الى سيرة كائن يسرف الرواة والمداحين من المتصوفة والدراويش في وصف جمال خلقته وفحولته وقدرته على مخاطبة الطير والحيوان والشجـــر والسحاب والنجوم ، وتفسير ما وقع له عليه الصلاة والسلام تفسيرا اسطوريا خارقا . «كان يجعلوا القمر يهبط من السماء ويستقر فوق قمة الكعبة يوم مولده عليه السلام ثم يطوف حول هذه الكعبة ليدخل من كم ردائه الايمن ويخرج من الكم الايسر .. ثم ينقسم ـ اي القمر ـ الى نصفين يتجه احدهما الى اليمين ويتجه الآخر الى اليسار .. ثم يلتقي النصفان في كبــد السماء ليعاود القمر سيره في فلكه ...» الخ هذه الخرافات .

وهنا كانت كتابة السيرة بأقلام هؤلاء الخمسة .. وبالتحديد ، مـــا تضمنته كتب «حياة محمد» للدكتور هيكل و«عبقرية محمد» للعقاد و«على هامش السيرة» للدكتور طه حسين و«محمد الرسول البشر» للاستـــاذ توفيق الحكيم .. بمثابة القضاء على هذه الخرافات . ثم التصحيح لمـا جاءت به أوصاف هؤلاء المداحين والدراويش والمتصوفة التي اضافت الى حياة صاحب السيرة عليه الصلاة والسلام ما لا يصدقه عقل ، ولا حاجة اليه في ثبوت رسالته .

نقول كانت هذه الاسلاميات بمثابة اداة التنقية والبلورة التي تستهدف في النهاية تقديم النبي الكريم في صورة منطقية يقبلها العقل .. وخاصة هذا العقل الحديث الذي لم يعد يؤمن بالاساطير والخرافات .

ثانيا : وهذه الاسلاميات كانت بمثابة الرد القاطع والكامل .. علــى كتابات المتعصبين من الغربيين سواء منها ما ظهر في الاستشراق او مـا ظهر على يد المبشرين ..

فقد لج هؤلاء الخصوم في الطعن على النبي الكريم وعلــى الاسلام والمسلمين مستفيدين من هذه الخرافات والخوارق التي نسجها العامة ،

بل وما كتبه بعض علماء الدين في القرون المظلمة ممن اخذوا علمهم القليل عن المتأخرين المقلدين .. فقدموا السيرة بصورة ضعيفة مستهدفة للهجوم .. فكان رد اصحاب الاسلاميات ودفاعهم على اباطيل الخصوم واتخذ هذا الرد أساليب عدة .. فكانت مباشرة حيث كما فعل العقاد في كتابه «ما يقال عن الاسلام» وفيه رد - كما راينا - على عشرات الكتب التي كتبت في الاسلام، وكان رده مدعما بالحجة والمنطق والدليل.

وغير مباشرة حين قدمت حقيقة الاسلام وما يدعو اليه كما فعل طه حسين وأحمد أمين في تناول الحياة الادبية والعقلية في الاسلام . وكما صنع الدكتور هيكل فيما كتب ، والاستاذ العقاد في عبقرياته وشخصياته وبحوثه ودراساته والاستاذ الحكيم في تأملاته . حيث عمل كل منهم في ميدانه جاهدا ليقدم حقيقة هذا الدين المفترى عليه .

ثالثا : كذلك فان استخدام اصحاب الاسلاميات للمنهج العلمي الحديث في كتاباتهم الاسلامية فيه نفع وفائدة للمسلمين .

فهذا المنهج الذي يقتضي من الباحث ان يبدأ بالملاحظة والتجربة ثم بالموازنة والترتيب ثم الاستنباط القائم على هذه المقدمات العلمية لتكون نتيجة بحثه أيا كانت نتيجة علمية ما لم يثبت ان الخطأ قد تسرب الى ناحية من نواحيها وان ظلت هذه النتيجة خاضعة للبحث والتمحيص من ذوي التخصيص فيها والاهتمام بها .

استخدام هذا المنهج فيه نفع وذلك حين اصبحت العقلية الحديثة تتقبله ، وترفض سواه . فالمسلم الذي لا يجد الاسلام مكتوبنا بهذا الاسلوب من التفكير لا شك انه سيبحث عنه في كتابات اخرى لغير المسلمين وهنا يسهل ضرب الاسلام في صورة الهجوم على رسوله والتطاول عليه والافتراء ، يخرج هذا بصورة مبسطة قريبة من عقل القارىء الحديث .

وفضلا عن ان هذا المنهج العلمي قريب من روح الاسلام كما عرفنا فهو طريقة القرآن في البحث ، وهو طريقة السلف من فلاسفة المسلمين . وفي مقدمتهم الامام ابو حامد الغزالي .

هذا بالنسبة لنفع المسلمين وفائدتهم . وأما لغير المسلمين من هؤلاء المستشرقين والمبشرين المتعصبين فاستخدام المسلمين للمنهج العلمي فيه سد الطريق امام دعاته من الاجانب . فحين يجد هؤلاء الاجانب أن المسلمين وهم أحرص على دينهم من غيرهم - قد سارعوا وتناولوا الاسلاميات بالمنهج العلمي .. الذي يتفق مع العقلية الحديثة فلا مجال

اذن امامهم لاستخدامه ، ولا يجدون امامهم غير الكف عن الكتابة في الاسلام وتركها لمن يعنيهم أمرها وهم اصحابها .

رابعا : والاسلاميات ان لم تكن هي تأريخ للحضارة الاسلامية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معاني فهي على الاقل تسهم في تقديم صورة دقيقة لهذه الحضارة الاسلامية بكل مقوماتها .

والحق انه قبل كتابة هؤلاء الاربعة في الاسلام كان البحث عن الحضارة الاسلامية غير متيسر .. فالعرب كما نعلم لم يعرفوا هذا النوع من التأريخ .. مثل غيرهم من امم الحضارات القديمة .. كاليونان والرومان والفرس .. ممن حرصوا على الاهتمام بتأريخ حضاراتهم .

لأن العرب لم يعرفوا أو على الاقل لم يهتموا بهذا النوع من التفكير فانه يصعب على الباحث الذي ينهض لتصوير الحضارة الاسلامية في مختلف عصورها .. مع بيان العناصر المكونة لها . والظروف التي أدت الى ظهورها .. كالعوامل الجغرافية والسياسية والاجتماعية والادبية والاقتصادية لن يجد هذا الباحث شيئا من هذا قديما ..

ولكن بعد أن قدم هؤلاء الخمسة الاسلام في صورة حديثة.. فجددوا بذلك روح الحضارة الاسلامية ، وحددوا معناها . فعندما يتفق الدكتور طه حسين مع كل من الدكتور احمد امين والاستاذ عبد الحميد العبادي على كتابة الحياة الاسلامية من جوانبها الادبية والعقلية والسياسية فان ذلك ولا شك يعني الاهتمام لعناصر الحضارة الاسلامية وتوضيحها .

وعندما يكتب الدكتور محمد حسين هيكل عن حياة صاحب الرسالة ويعقبه بالكتابة عن الخلفاء الثلاثة «أبو بكر» و«عمر» و«عثمان» ثم عن المكان الذي نزل فيه الوحي ، وبعد ذلك عن الامبراطورية الاسلامية .. فانه يقدم صورة للمجتمع الاسلامي .. وهو تناول حضاري .

وحين يضع العقاد أمامه الاسلام تاريخه ورجاله ويقسمه في التناول الى عبقريات وشخصيات ودراسات وابحاث فانه ولا شك يقدم مقومات وعناصر لهذه الحضارة الاسلامية محددة واضحة .

خامسا : وهذه الاسلاميات بأسلوبها الجديد استطاعت ان تكون خير دعاية للاسلام في عالمنا الجديد فكثيرا ما نسمع ان احدى الجامعات في الخارج تدرس اسلاميات الدكتور هيكل او ان احدى الهيئات العلمية قامت بترجمة اسلاميات طه حسين او العقاد واحمد امين والحكيم .. فان ذلك يعني اول ما يعني دعاية طيبة للاسلام.. دعاية تخطت الحدود. وهي في نفس الوقت الذي تقدم فيه حقيقة الاسلام فهي تصحح ما يكون

قد دسه الاستعمار والصهيونية على الاسلام والاثنان اخطـــر المغرضين قديما وحديثا . والعقاد له في هذا الجانب بالذات وجهة نظر مفيـــدة مؤداها ان الدعاية الصهيونية بوجهها العلني والمقنع هي من اخطر ما يواجه الاسلام .. خاصة وان كان هؤلاء الصهاينة يملكون من وسائل هذه الدعاية والكثير منهم يملكون دور النشر ، ويملكون الاذاعات ، ويملكون اسهمـا وافرة في شركات السينما وينتسب اليهم عدد كبير من الممثلين والممثلات ونقاد المسرح ، والى جانب هذه الوسائل الفنية والمالية وسائلهـم وراء الستار وأمامه بين الساسة والنواب والمرشحين لمراكز الزعامة والمتنازعين على الاصوات في مواسم الانتخابات ، واستخدامهم لوسائل الجمال في هذه المعارك . وما اليها بأقل من استخدامهم لوسائل المال .

كذلك يشير العقاد الى الاستعمار وبأنه قوة تضارع الدعاية الصهيونية الخفية ان لم تزد عليها في بعض الاحوال اذ هي قوة الدولة وقوة المال وسائر القوى المسخرة للسياسة والتبشـــــير مجتمعات . وكلها تحاول تشويه الاسلام .

هذا خلاصة ما ذكره العقاد في تقديمه لكتاب «ما يقال عن الاسلام» فيما يختص باعتداء الصهيونية والاستعمار على الاسلام .

ومن هنا نرى ان العقاد وبقية اصحاب الاسلاميات كانوا يكتبون وفي ذهنهم شبح الدعاية الاستعمارية والصهيونية التي تفتري على الاسلام.. لذلك كانت كتاباتهم تخاطب العقل قبل العاطفة وتقنع المسلم وغير المسلم لتكون خير دعاية للاسلام بنبيه ورجاله في العالم الخارجي .

سادسا : ولعل اعظم فائدة أسدتها الاسلاميات للاسلام والتفكـــير الاسلامي أن أتاحت السبيل للنشء أن يطلعوا عليها . وذلـــك بعد ان قررت بعضا منها وزارة التربية والتعليم في مدارسها . فأكثر عبقريات الاستاذ العقاد قد قررت ، وكذلك على هامش السيرة للدكتور طه حسين .

هذه الفائدة لا تخفى علينا في مجال حصر ما أضافـــوه للاسلام . خاصة وان كان جني ثماراتها في ابنائنا . وهم أحوج الناس الى التعرف على الاسلام بصورته المثلى ليشبوا على هدي من هذا الدين الحنيـــف اقوياء بإيمانهم وتمسكهم بالدين .

وهو في مقدمة ما ترجوه الدعوة الاسلاميـــة أن ينتشر الاسلام بين أصحابه .

اقول لولا وجود هذه الاسلاميات بصورتها المقنعة المبسطـة لما تيسر للقائمين على التربية والتعليم أن يقرروها ضمن مناهجهم . وإلا هل كان

من الممكن مثلا ان يقرروا سيرة ابن هشام او «امتاع الاسماع بما للرسول من خولة وحفدة وأتباع» للمقريزي او «نهاية الايجاز في سيرة ساكن الحجاز» للطهطاوي وغيرها من الكتب التي لا ننكر فضلها ولكن ربما تكون مستغلقة على فهم الابناء في بداية تكوينهم الثقافي .

وعلى هذا فيمكن القول بأن الاسلاميات استطاعت ان تضيف جديدا الى التفكير الاسلامي وانها لم تكن بحال من الاحوال تحصيل لحاصل في كتب قديمة .

وبعـــد

فهذه «إسلاميات الدكتور طه حسين ، والدكتـــور أحمد أمين ، والدكتور محمد حسين هيكل ، والاستاذ عباس محمود العقاد ، والاستاذ توفيق الحكيم» .

ترى هل هذه الاسلاميات التي أنفق فيها أصحابها زهرة عمرهم .. قد انتهت عند آخر سطور هذا الكتاب ؟

وهل نحسب ان هذه الصفحات تزعم لنفسها انها قد أوفت على الغاية وشارفت على الغرض ؟

وهل هذه الصفحات استطاعت ان تغطي ما أثارته هذه الاسلاميات من نظريات ومناقشات وتساؤلات وآراء وأفكار ؟

لا .. فإسلاميات هؤلاء العمالقة الخمسة غزيرة كالضـــوء المنتشر ، ممتلئة كالسحاب الثقال ، عظيمة عظمة من كتبت عنهم في الاسلام ؟

وهذا الجهد المتواضع الذي أسعفه توفيق من الله وعونه ليس سوى «اشارة» الى هذه الاسلاميات الحافلة بالنظريات والمناقشات والتساؤلات والآراء والافكار .

سامح كريم

مصادر

الكتاب	المؤلف
إسلاميات	الدكتور طه حسين
إسلاميات	الدكتور أحمد أمين
إسلاميات	الدكتور محمد حسين هيكل
إسلاميات	عباس محمود العقاد
إسلاميات	توفيق الحكيم
تصوير طه حسين والعقاد وهيكل لأبي بكر وعمر	علي أبو بكر محمد
الأيام	الدكتور طه حسين
أنا	عباس محمود العقاد
مذكرات في السياسة	د. محمد حسين هيكل
حياتي	الدكتور أحمد أمين
مع طه حسين	سامي الكيلاني
أثر الثقافة الفرنسية في فكر طه حسين	كمال ثابت
مع العقاد	د. شوقي ضيف
هيكل حياته وتراثه	د. طه عمران وادي
محاضرات عن أحمد أمين	الدكتور زكي المحاسني
العقاد دراسة وتحية	تلاميذ العقاد
الشخصيات العشرون	محمود تيمور
محمد وهؤلاء	أحمد عبد المعطي حجازي
تطور مصر	تأليف مارسيل كولومب ترجمة زهير الشايب
مختار تفسير القرطبي	توفيق الحكيم

حياة محمد لهيكل (مقالة) . . . د. حسين فوزي النجار
ضحى الاسلام (مقالة) . . . للدكتور شوقي ضيف
رأيت وسمعت . . . . محمد كرد علي
عدد الهلال الخاص . . . . عن طه حسين
عدد الهلال الخاص . . . . عن العقاد
عدد الهلال الخاص . . . . عن الحكيم
الموسوعة العربية الميسرة . . .
دائرة المعارف الاسلامية . . .

الفهرس

تقـديم ٩
كلمة : ١٣
مقدمة الطبعة الثانية ١٦
الفصل الأول : الإسلاميات .. معناها وأسبابها ١٩
الفصل الثانى : إسلاميات طه حسين ٤٣
الفصل الثالث : إسلاميات .. أحمد أمين ٦١
الفصل الرابع : إسلاميات هيكل ٨١
الفصل الخامس : إسلاميات العقاد ١١١
الفصل السادس : إسلاميات الحكيم ١٦١
الفصل السابع : جديد أضافته الإسلاميات ١٩٥
وبعد ٢٠٣
مصادر ٢٠٥

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٣٠٩٨ / ١٩٩٨

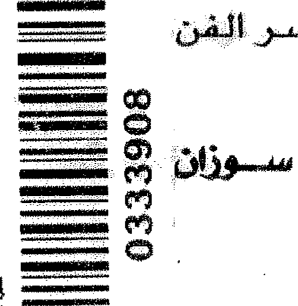
I.S.B.N 977 - 01 - 5933 - 6



ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل - ومازلنا نتشبث بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

شبَّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضىء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب فى متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى فى كل العالم الثالث، ومازلت أحلم بالمزيد من لآلىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى تثرى وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان



مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨

مائة وخمسون قرشاً



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب